التدبر والبيان

في

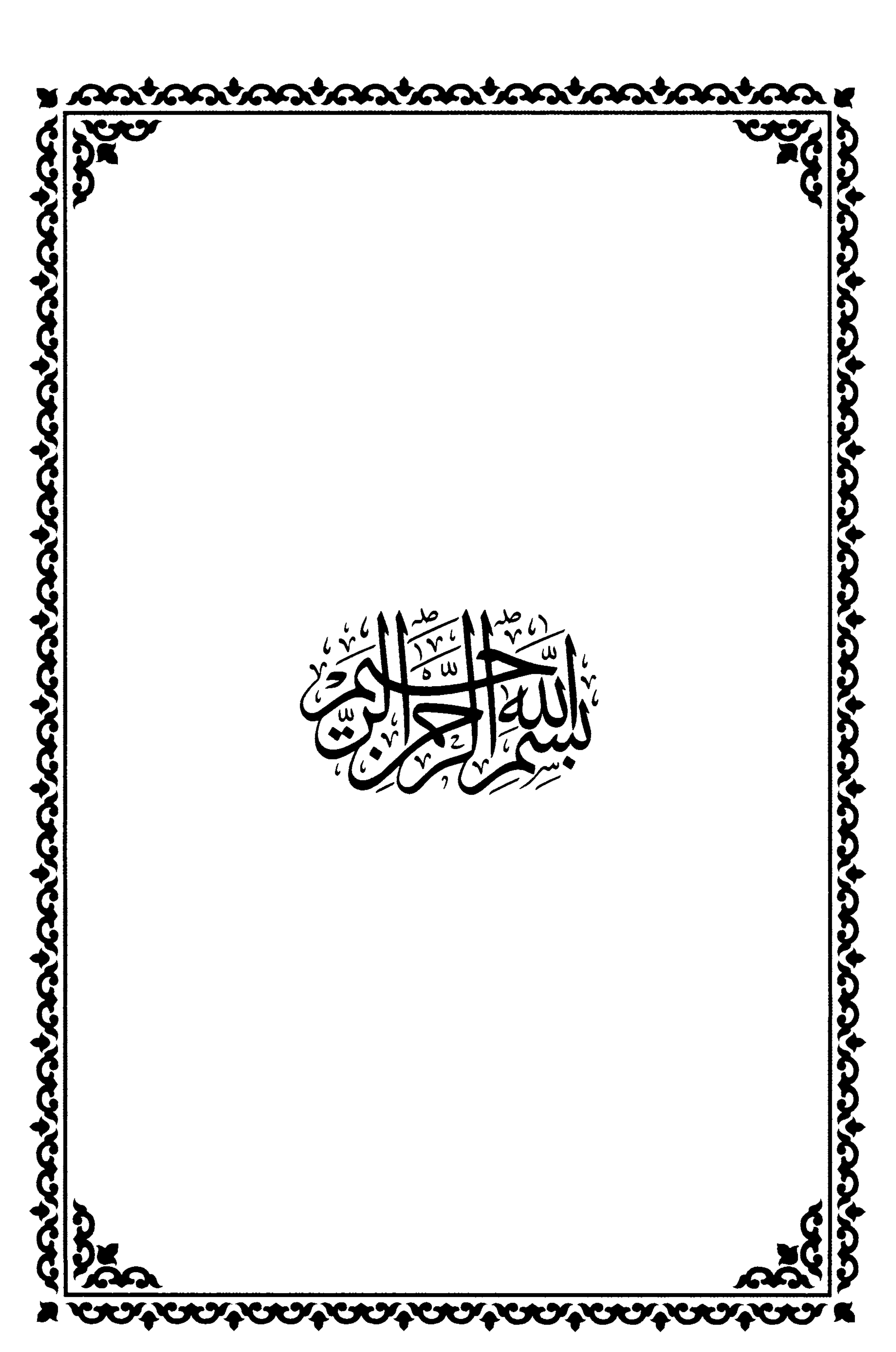
تفسير القرآن بصحيح السنن

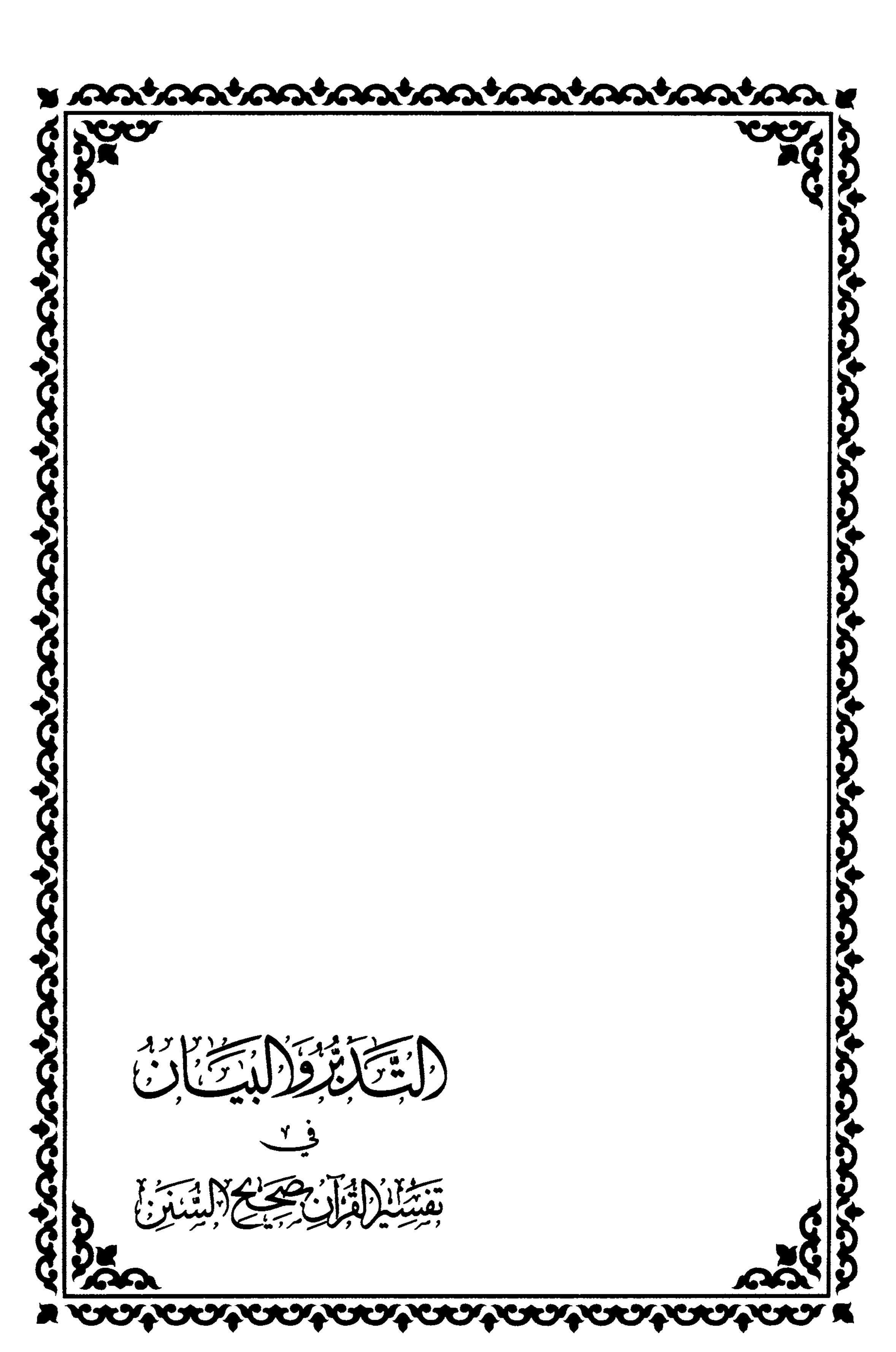
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثاني عشر

سورة الأنفال


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات
Size 17×24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨





سورة الأنفال

أغراض السورة

قال البقاعي: «ومقصودها: تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر اللَّه، واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده. . . فيثمر ذلك الاعتصام بأمر اللَّه، المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين، وإذلال المفسدين، المنتج لكل خير، والجامع لذلك كله: أنه كما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله، والاجتماع عليه، لما ثبت من تفرده واقتداره، كان مقصود هذه إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضا والتبرؤ من كل حول وقوة، إلى من أنعم بذلك كله، ولو شاء سلبه.

وأدل ما فيها على هذا المقصود: قصة الأنفال، التي اختلفوا في أمرها وتنازعوا في قسمها، فمنعهم اللَّه منها، وكف عنهم حظوظ الأنفس وألزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاها نبيه ﷺ؛ لأنه الذي هزمهم بما رمى من الحصيات التي خرق اللَّه فيها العادة، بأن بثها في أعين جميعهم، وبما أرسل من جنوده، فكان الأمر له وحده يمنحه من يشاء، ثم لما صار له ﷺ، رده فيهم منة منه عليهم، وإحسانا إليهم»[1].

وقال ابن عاشور: «ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها.

* والأمر بتقوى اللَّه في ذلك وغيره.

---

(١) مصاعد النظر (٢/ ١٤٦-١٤٧).

* والأمر بطاعة اللَّه ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها.

* وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل، وذكر الخروج إلى غزوة بدر، وبخوفهم من قوة عددهم وما لقوا فيها من نصر وتأييد من اللَّه، ولطفه بهم، وامتنان اللَّه عليهم بأن جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر والهداية إن اتقوا اللَّه بالثبات للعدو والصبر.

* والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.

* والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.

* والأمر بأن يكون قصد النصرة للدين نصب أعينهم.

* ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر، وذكر مواقع الجيشين، وصفات ما جرى من القتال.

* وتذكير النبي ﷺ بنعمة اللَّه عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة، وخلصه من عنادهم، وأن مقامه بمكة كان أمانا لأهلها، فلما فارقهم فقد حق عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام، ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام، وإيذانهم بالقتال، والتحذير من المنافقين.

* وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل اللَّه ولم يشكروا نعم اللَّه.

* وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم، وأحكام الأسرى.

* وأحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ نزول سورة الأنفال

* عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر». وفي لفظ لمسلم: «**تلك سورة بدر**»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٨٩/ ٤٦٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٣٢٢/ ٣٠٣١).

★ **فوائد الحديث:**

قال صديق حسن خان: «صرّح كثير من المفسرين بأنها مدنية لم يستثنوا منها شيئًا. وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد اللّه بن الزبير وزيد بن ثابت. وعن ابن عباس أنه قال: «**نزلت في بدر**». وفي لفظ «**تلك سورة بدر**». قال القرطبي: «وعنه[1]: هي مدنية إلا سبع آيات من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2] إلى آخرها. يعني فإنها مكية.

قلت: وإن كانت في شأن الواقعة التي وقعت بمكة فلا يلزم أن تكون كذلك، فالآيات نزلت بالمدينة تذكيرًا بما وقع في مكة. فهذا القول ضعيف والأول هو الأصح»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بسورة الأنفال

* عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ «**كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

ينبغي إحياء سنة قراءة سورة الأنفال في صلاة المغرب كغيرها من السور التي ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ بها كالأعراف والطور والمرسلات وق التي كان يقرأها على المنبر، وأما يوم الجمعة، فكانت قراءته ﷺ لسورتي السجدة والإنسان راتبة إلا ما ندر، وهكذا ينبغي أن نتبع خطواته ﷺ في قراءته في سيرته العملية، ولعل عنايته بسورة الأنفال وقراءته بها في صلاة المغرب؛ لما فيها من أصول الإيمان، وإصلاح ذات البين التي وصفها ﷺ إذا انعدمت بأنها الحالقة، ولما في السورة من أصول الجهاد، والدفاع عن حوزة الإسلام، ولأن في السورة من المعجزات ما هو خارج عن طاقة البشر، من مشاركة الملائكة في الجهاد، ولأن في

---

(١) يعني ابن عباس. (٢) الأنفال: الآية (٣٠).

(٣) فتح البيان (٥/ ١٢٥).

(٤) أخرجه: الطبراني (٥/ ١٢٥/ ٤٨٢٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ١١٨)، وعزاه للطبراني في الكبير وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

السورة أعظم غزوة كانت فاتحة خير على أهل الإسلام، سقط فيها رؤوس الشرك الذين كانوا حجر عثرة في قيام دعوة الرسول ﷺ، ومنها انطلقت مسيرة النصر لأهل الإسلام، ولم تتوقف بفضل اللَّه إلى يومنا هذا، وما تزال الآمال قائمة في أن النصر لأهل الإسلام لا محالة، ومهما عظم كابوس الكفر وأهله فإنه لا محالة آئل للسقوط والاضمحلال، وفي السورة عبر كثيرة وأصول عظيمة تجعل الاهتمام بها اهتماما بقواعد وأصول الإسلام، فاللهم صل وسلم على خير الأنام الذي إذا قال حديثا، أو خطى خطوة، فإنهما الحكمة والنور والبركة والسرور، واللَّه المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

الأنفال: هو في أصل اللغة من النَّفْل بفتح فسكون. أي: الزيادة. ولذا سمي التطوع وولد الولد نافلة. ثم صار حقيقة في العطية. لكونها تبرعًا غير لازم. وتسمى به الغنيمة لأنها منحة من اللَّه من غير وجوب. أو لأن المسلمين فُضِّلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم، أو لأنها زيادة على ما شُرِعَ الجهاد له. وهو إعلاء كلمة اللَّه. كذلك يسمى بالنَّفَل ما يشترطه الإمام للغازي زيادة على سهمه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «واختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال:

الأول: أن المراد بها خصوص ما شذّ عن الكافرين إلى المؤمنين، وأخذ بغير حرب، كالفرس والبعير يذهب من الكافرين إلى المسلمين، وعلى هذا التفسير فالمراد بالأنفال هو المسمى عند الفقهاء فيئًا، وهو الآتي بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[٢] وممن قال بهذا القول عطاء بن أبي رباح.

الثاني: أن المراد بها الخمس، وهو قول مالك.

الثالث: أن المراد بها خمس الخمس.

الرابع: أنها الغنيمة كلها، وهو قول الجمهور وممن قال به ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد قاله ابن كثير.

الخامس: أن المراد بها أنفال السرايا خاصة، وممن قال به الشعبي، ونقله ابن جرير عن علي بن صالح بن حي، والمراد بهذا القول: ما ينفله الإمام لبعض السرايا

---

(١) الأنفال: الآية (١).

(٢) الحشر: الآية (٦).

زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم»[١].

قال ابن جرير -بعد أن ذكر الخلاف في المراد بالأنفال-: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: «الأنفال»، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سَلبه[٢] على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه، ترغيبًا له، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس؛ لأن ذلك أمره إلى الإمام، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب؛ لأن «النفل» في كلام العرب، إنما هو الزيادة على الشيء، يقال منه: «نفَّلتك كذا»، و«أنفلتك»، إذا زدتك. و«الأنفال»، جمع «نَفَل»، ومنه قول لبيد بن ربيعة:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

فإذ كان معناه ما ذكرنا، فكل من زيد من مقاتلة الجيش على سهمه من الغنيمة إن كان ذلك لبلاء أبلاه، أو لغناء كان منه عن المسلمين بتنفيل الوالي ذلك إيّاه، فيصير حكم ذلك له كالسلب الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زيد من ذلك؛ لأن الزيادة وإن كان مستوجِبَة في بعض الأحوال لحق، ليس هو من الغنيمة التي تقع فيها القسمة. وكذلك كل ما رُضِخ لمن لا سهم له في الغنيمة، فهو «نفل»؛ لأنه وإن كان مغلوبًا عليه، فليس مما وقعت عليه القسمة.

فالفصل إذ كان الأمر على ما وصفنا بين «الغنيمة» و«النفل»، أن «الغنيمة» هي ما أفاء اللَّه على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر، نفل منه منفِّل أو لم ينفّل، و«النفل»: هو ما أعطيه الرجل على البلاء والغَنَاء عن الجيش على غير قسمة.

---

(١) أضواء البيان (٤٨/١).

(٢) السلب: ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره.

وإذْ كان ذلك معنى «النفل»، فتأويل الكلام: يسألك أصحابك يا محمد عن الفضل من المال الذي تقع فيه القسمة من غنيمة كفار قريش الذين قتلوا ببدر، لمن هو؟ قل لهم يا محمد: هو لله ولرسوله دونكم، يجعله حيث شاء»[١].

وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضًا، وننقل كلامه بأكمله لما فيه من فوائد: قال: «اعلم أن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ يقتضي البحث عن خمسة أشياء، السائل والمسؤول وحقيقة النفل، وكون ذلك السؤال عن أي الأحكام كان، وإن المفسرين بأي شيء فسروا الأنفال.

أما البحث الأول: فهو أن السائلين من كانوا؟ فنقول إن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا؛ لأن حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلومًا معينًا فانصرف هذا اللفظ إليهم، ولا شك أنهم كانوا أقوامًا لهم تعلق بالغنائم والأنفال وهم أقوام من الصحابة.

وأما البحث الثاني: وهو أن المسؤول من كان؟ فلا شك أنه هو النبي ﷺ.

وأما البحث الثالث: وهو أن الأنفال ما هي؟ فنقول: قال الزهري: النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل، وسميت الغنائم أنفالًا؛ لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم، وصلاة التطوع نافلة؛ لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[٢] أي زيادة على ما سأل.

وأما البحث الرابع: وهو أن السؤال عن أي أحكام الأنفال كان؟ فنقول: فيه وجهان: الأول: لفظ السؤال، وإن كان مبهمًا إلا أن تعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعًا عن ذلك المعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[٣] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[٤] فعلم منه أنه سؤال عن حكم من أحكام المحيض واليتامى، وذلك الحكم غير معين، إلا أن الجواب كان معينًا لأنه تعالى قال في المحيض: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[٥] فدل هذا الجواب على أن

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٧١).
(٢) الأنبياء: الآية (٧٢).
(٣) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٤) البقرة: الآية (٢٢٠).
(٥) البقرة: الآية (٢٢٢).

ذلك السؤال كان سؤالًا عن مخالطة النساء في المحيض. وقال في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾(١) فدل هذا الجواب المعين على أن ذلك السؤال المعين كان واقعًا عن التصرف في مالهم ومخالطتهم في المواكلة. وأيضًا قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾(٢) وليس فيه ما يدل على أن ذلك السؤال عن أي الأحكام إلا أنه تعالى قال في الجواب: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(٣) فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان عن كون الروح محدثًا أو قديمًا، فكذا ههنا لما قال في جواب السؤال عن الأنفال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ دل هذا على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي: من الأنفال، والمراد من هذا السؤال: الاستعطاء على ما روي في الخبر، أنهم كانوا يقولون: يا رسول اللَّه، أعطني كذا أعطني كذا(٤)، ولا يبعد إقامة ﴿عَن﴾ مقام (من)، هذا قول عكرمة. وقرأ عبد اللَّه: ﴿يسألونك الأنفال﴾.

والبحث الخامس: وهو شرح أقوال المفسرين في المراد بالأنفال. فنقول: إن الأنفال التي سألوا عنها يقتضي أن يكون قد وقع بينهم التنازع والتنافس فيها، ويدل عليه وجوه: الأول: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يدل على أن المقصود من ذكر منع القوم عن المخاصمة والمنازعة. وثانيها: قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يدل على أنهم إنما سألوا عن ذلك بعد أن وقعت الخصومة بينهم. وثالثها: أن قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدل على ذلك.

إذا عرفت هذا فنقول: يحتمل أن يكون المراد من هذه الأنفال: الغنائم، وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهرًا؛ ويحتمل أن يكون المراد غيرها.

أما الأول: ففيه وجوه:

أحدها: أنه ﷺ قسم ما غنموه يوم بدر على من حضر وعلى أقوام لم يحضروا

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٠).

(٢) الإسراء: الآية (٨٥). (٣) الإسراء: الآية (٨٥).

(٤) سيأتي تخريجه من حديث مصعب بن سعد عن أبيه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

أيضًا، وهم ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فأحدهم عثمان فإنه ﷺ تركه على ابنته لأنها كانت مريضة، وطلحة وسعيد بن زيد. فإنه ﷺ كان قد بعثهما للتجسس عن خبر العير وخرجا في طريق الشام، وأما الخمسة من الأنصار، فأحدهم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، خلفه النبي ﷺ على المدينة، وعاصم خلفه على العالية، والحرث بن حاطب: رده من الروحاء إلى عمرو بن عوف لشيء بلغه عنه، والحرث بن الصمة أصابته علة بالروحاء، وخوات بن جبير، فهؤلاء لم يحضروا، وضرب النبي ﷺ لهم في تلك الغنائم بسهم، فوقع من غيرهم فيه منازعة. فنزلت هذه الآية بسببها.

وثانيها: روي أن يوم بدر الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول اللَّه ﷺ في المصاف، فقال الشبان: الغنائم لنا؛ لأنا قتلنا وهزمنا، وقال الأشياخ: كنا ردءًا لكم، ولو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فوقعت المخاصمة بهذا السبب، فنزلت الآية[1].

وثالثها: قال الزجاج: الأنفال الغنائم. وإنما سألوا عنها لأنها كانت حرامًا على من كان قبلهم، وهذا الوجه ضعيف؛ لأن على هذا التقدير يكون المقصود من هذا السؤال طلب حكم اللَّه تعالى فقط، وقد بينا بالدليل أن هذا السؤال كان مسبوقًا بالمنازعة والمخاصمة.

وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد من الأنفال شيئًا سوى الغنائم، فعلى هذا التقدير في تفسير الأنفال أيضًا وجوه:

أحدها: قال ابن عباس في بعض الروايات: المراد من الأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال، من دابة أو عبد أو متاع، فهو إلى النبي ﷺ يضعه حيث يشاء.

وثانيها: الأنفال الخمس الذي يجعله اللَّه لأهل الخمس، وهو قول مجاهد، قال: فالقوم إنما سألوا عن الخمس. فنزلت الآية، وثالثها: أن الأنفال هي السلب وهو الذي يدفع إلى الغازي زائدًا على سهمه من الغنم، ترغيبًا له في القتال، كما إذا

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

قال الإمام: «**من قتل قتيلًا فله سلبه**»[1] أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو يقول: فلكم نصفه أو ثلثه أو ربعه، ولا يخمس النفل، وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعد بن العاصي وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلت: إن اللَّه تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف. فقال: «**ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في الموضع الذي وضعت فيه الغنائم**» فطرحته وبي ما يعلمه اللَّه من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلًا حتى جاءني رسول اللَّه ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال فقال: يا سعد «**إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فخذه**»[2] قال القاضي: وكل هذه الوجوه تحتمله الآية، وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض. وإن صح في الأخبار ما يدل على التعيين قضي به، وإلا فالكل محتمل، وكما أن كل واحد منها جائز، فكذلك إرادة الجميع جائزة فإنه لا تناقض بينها، والأقرب أن يكون المراد بذلك ماله عليه السلام أن ينفل غيره من جملة الغنيمة قبل حصولها وبعد حصولها؛ لأنه يسوغ له تحريضًا على الجهاد، وتقوية للنفوس كنحو ما كان ينفل واحدًا في ابتداء المحاربة. ليبالغ في الحرب. أو عند الرجعة. أو يعطيه سلب القاتل، أو يرضخ لبعض الحاضرين، وينفله من الخمس الذي كان عليه السلام يختص به. وعلى هذا التقدير فيكون قوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ المراد الأمر الزائد على ما كان مستحقًا للمجاهدين»[3].

قال النحاس بعد أن ذكر هذه الأقوال الخمسة: «فهذه خمسة أقوال وإن كان بعضها يدخل في بعض لأن قول من قال: هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين يدخل في قول من قال: للإمام أن ينفل، وكذا قول من قال: هي أنفال السرايا، وقول مجاهد هي الخمس، يرجع إلى قول من قال: التنفيل من الخمس»[4].

واختلف في هذه الآية، أهي منسوخة أم لا؟ فقال بعضهم: هي منسوخة، وقد

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٥/ ٣٠٦)، والبخاري (٨/ ٤٣/ ٤٣٢١)، ومسلم (٣/ ١٣٧٠-١٣٧١/ ١٧٥١)، وأبو داود (٣/ ١٥٩-١٦٢/ ٢٧١٧)، والترمذي (٤/ ١١١/ ١٥٦٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٦/ ٢٨٣٧) كلهم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١١٧-١٢٠).

(٤) الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٧٥).

نسخها قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[1] الآية.

وقال آخرون: هي محكمة وليست بمنسوخة.

قال النحاس: «واحتج بعضهم بأنها لما كانت من أول ما نزل بالمدينة من قبل أن يُؤمر بتخميس الغنائم، وكان الأمر في الغنائم كلها إلى النبي ﷺ، وجب أن تكون منسوخة، بجعل الغنائم حيث جعلها اللّٰه تعالى، وقائلو هذا القول يقولون: الأنفال هاهنا: الغنائم، ويجعل بعضهم اشتقاقه من النافلة، وهي الزيادة، قال: فالغنائم أنفال؛ لأن اللّٰه تعالى نفلها أمة محمد ﷺ خصهم بذلك.

وقال بعضهم: ليست بمنسوخة، وهي محكمة، وللأئمة أن يعملوا بها فينفلوا من شاؤوا إذا كان في ذلك صلاح للمسلمين، واحتجوا أن هذه هي الأنفال على الحقيقة لا الغنائم؛ لأنها زيادات يزادها الرجل على غنيمته، أو يزيدها الإمام من رأى»[2].

قال الرازي: «قال مجاهد وعكرمة والسدي: إنها منسوخة بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، وذلك لأن قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ يقتضي أن تكون الغنائم كلها للرسول، فنسخها اللّٰه بآيات الخمس، وهو قول ابن عباس في بعض الروايات، وأجيب عنه من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ معناه أن الحكم فيها لله وللرسول. وهذا المعنى باق فلا يمكن أن يصير منسوخًا، ثم إنه تعالى حكم بأن يكون أربعة أخماسها ملكًا للغانمين.

الثاني: أن آية الخمس. تدل على كون الغنيمة ملكًا للغانمين، والأنفال ههنا مفسرة لا بالغنائم، بل بالسلب. وإنما ينفله الرسول ﷺ لبعض الناس لمصلحة من المصالح»[3].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّٰه جل ثناءه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه ﷺ ينفل من شاء، فنفل القاتل السلب، وجعل للجيش في

---

(١) الأنفال: الآية (٤١).

(٢) الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٦٦).

(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٢٠).

البداءة الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس[١]، ونفل قومًا بعد سهمانهم بعيرًا بعيرًا في بعض المغازي[٢]، فجعل اللَّه -تعالى ذكره- حكم الأنفال إلى نبيه ﷺ ينفل على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين، وعلى من بعده من الأئمة أن يستنوا بسنته في ذلك، وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ لاحتمالها ما ذكرت من المعنى الذي وصفت، وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادث حكم بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبر يوجب الحجة أن أحدهما ناسخ للآخر»[٣].

قال القرطبي: «ولا يصح الحكم بالنسخ، إذ الجمع بين الآيتين ممكن، ومتى أمكن الجمع فهو أولى من النسخ باتفاق الأصوليين. وقال مجاهد في الآية: إنها محكمة غير منسوخة»[٤].

قال الطاهر بن عاشور عند قوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولِ﴾: «عطف ﴿وَالرَّسُولِ﴾ على اسم اللَّه؛ لأن المقصود الأنفالُ للرسول ﷺ يقسمها، فذكر اسم اللَّه قبل ذلك للدلالة على أنها ليس حقًا للغزاة، وإنما هي لمن يعينه اللَّه بوحيه، فذكر اسم اللَّه لفائدتين: أولاهما: أن الرسول إنما يتصرف في الأنفال بإذن اللَّه توقيفًا أو تفويضًا. والثانية: لتشمل الآية تصرف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته ﷺ؛ لأن ما كان حقًا لله كان التصرف فيه لخلفائه»[٥].

قال عبد الكريم الخطيب: «كانت غزوة بدر أول موقف وقفه المسلمون إزاء الغنائم التي وقعت لأيديهم من يد أعدائهم في ميدان القتال. ولهذا اضطربت مشاعر المسلمين فيها، واختلفت أنظارهم عليها. فمن قائل: إنها لمن جمع الغنائم وحازها ليده، ومن قائل: إنها لمن قاتل والتحم بالعدو. ومن قائل: إنها لمن شهد القتال، قاتل أو لم يقاتل، حاز غنيمة أو لم يحزها. ومن قائل: إنها للجماعة

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٣) جامع البيان (٩/ ١٧٦).

(٤) المفهم (٣/ ٥٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥١).

الإسلامية التي كانت تضمها المدينة. . وهكذا توزعت مشاعر المسلمين وعواطفهم في مواجهة هذا الطارق الغريب، الذي أطل عليهم بوجهه لأول مرة. ولو ترك هذا الموقف للمسلمين يقضون فيه برأيهم، ويلتقون فيه على رأي، لما كان في هذا ما يحسم الموقف، ويجمع هذه العواطف المشتتة، وتلك النوازع المختلفة. فإن أي رأي يلتقي عنده المسلمون لم يرض نفرا منهم أيّا كان عدده. وتلك لا شك ثلمة في بناء الجماعة التي لا تزال على أول الطريق في استكمال كيانها، ودعم بنائها؛ بل هو صدع في هذا البناء، تزيده الأيام عمقا واتساعا، إن لم يكن في الحساب توقيه قبل أن يقع. حتى يحفظ هذا الجسد سليما معافى من أية آفة تندس إليه، وتنفث سمومها فيه. ولهذا جاءت كلمة الفصل من السماء حتى لا يكون لقائل قول، ولو كان الرسولَ الكريم نفسه، والذي لو قال كلمة هنا لتلقاها المسلمون بالقبول والرضا، ولسكن عندها كل خاطر، ولماتت بعدها كل نازعة أو وسواس، لما للرسول في نفوس المسلمين من حب وطاعة وولاء. إذ كانوا على يقين بأنه -صلوات اللّه وسلامه عليه- لا يقضي إلا بالحق، ولا يقول إلا بما أراه الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1].

ومع هذا، فإن حكمة الحكيم العليم اقتضت أن تكون كلمة اللّه هي القضاء الفصل فيما اختلف فيه المسلمون، حتى يعودوا من هذه المعركة وقد خلت نفوسهم من أي همّ من هموم الدنيا، وحتى يكونوا جندا خالصا لدين اللّه، لا يجاهدون إلا في سبيل اللّه، وفي إعلاء كلمة اللّه، دون التفات إلى شيء من هذه الدنيا، وما يقع لأيديهم من مغانم الحرب. فتلك المغانم -وإن كثرت- لا حساب لها في هذا الوجه الكريم الذي يتجه إليه المجاهدون في سبيل اللّه.

ومن أجل هذا، كان حكم اللّه قاضيا على المجاهدين بألا شأن لهم بهذه الغنائم، وأن أمرها إلى اللّه، ثم إلى رسول اللّه يضعها حيث يشاء، ويتصرف فيها كما يرى. تلك هي كلمة اللّه، وهذا هو قضاؤه.

(﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ وانظر كيف كانت الحكمة في هذا الحكم، وهذا التدبير الحكيم. لقد كان ذلك أول الإسلام، ومع أول تجربة يقع

---

(١) النجم: الآية (٣).

للمسلمين فيها خير ماديّ، بعد أن احتملوا ما احتملوا من أذى وضر في أموالهم وأنفسهم. ولو كان الذي حدث في بدر جاريا مع موقع النظر الإنساني لكان أول ما يتبادر إلى العقل هو التمكين للمسلمين الذين قاتلوا أن يحوزوا هذه الغنائم، ليكون منها بعض العزاء لما ذهب منهم، سواء أكانوا مهاجرين أو أنصارا. حيث هاجر المهاجرون تاركين وراءهم الديار والأموال، وحيث شاطرهم الأنصار ديارهم وأموالهم. !

ولكن تدبير اللَّه يعلو هذا التدبير، وحكمته تقضي بغير ما يقضي به هذا النظر البشري المحدود.

فلو أن المسلمين شغلوا أنفسهم من أول خطوهم بهذه الغنائم لكان في ذلك جور على الدعوة التي دعاهم اللَّه إليها، وندبهم لها، ولكان حسابهم معها قائما على الربح والخسارة في جانب الدنيا، أكثر منه في جانب الدين.. !

ولهذا، جاء أمر اللَّه قاطعا على المسلمين هذا الطريق، آخذا على أيديهم أن تمتد إلى تلك الغنائم التي جعلها اللَّه سبحانه له، ثم وضعها بين يدي رسوله. إنهم مجاهدون في سبيل اللَّه وحسب، باعوا أنفسهم لله، ورصدوها للجهاد في سبيله.

أما الغنائم فأمرها خارج عن هذا العهد الذي عاهدوا اللَّه عليه.

فإذا جاء بعد هذا قضاء من عند اللَّه في شأن ما يقع للمجاهدين من غنائم. وإذا جعل اللَّه للمقاتلين نصيبا مفروضا فيها، فذلك فضل من اللَّه، ومنّة منه على عباده، وبهذا يظل المجاهدون على هذا الشعور الأول الذي أقامهم اللَّه عليه، وهو أن تلك الغنائم هي لله ولرسوله، وأن ما فرض لهم بعد ذلك هو استثناء من الحكم الأصليّ، جاء برّا بهم، ورحمة لهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول سورة الأنفال

* عن مصعب بن سعد، قال: أنزلت في أبي أربع آيات، قال: قال أبي: أصبت سيفا، قلت: يا رسول اللَّه، نفلنيه. قال: «ضعه» قلت: يا رسول اللَّه، نفلنيه، أُجعل كمن لا غناء له؟ قال: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت: ﴿يسألونك الأنفال﴾. قال:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٥٧-٥٦٠).

وهي في قراءة ابن مسعود كذلك- ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾.

وقالت أمي: أليس اللَّه يأمرك بصلة الرحم، وبر الوالدين؟ واللَّه لا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا، حتى تكفر بمحمد، فكانت لا تأكل حتى يشجروا فمها بعصا فيصبون فيه الشراب -قال شعبة: وأراه قال: والطعام- فأنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، وقرأ حتى بلغ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ودخل علي النبي ﷺ وأنا مريض، قلت: يا رسول اللَّه أوصي بمالي كله؟ فنهاني، قلت: النصف؟ قال: «لا»، قلت: الثلث؟ فسكت، فأخذ الناس به.

وصنع رجل من الأنصار طعاما، فأكلوا وشربوا وانتشوا من الخمر، وذاك قبل أن تحرم، فاجتمعنا عنده، فتفاخروا، وقالت الأنصار: الأنصار خير، وقالت المهاجرون: المهاجرون خير، فأهوى له رجل بلحي جزور ففزر أنفه، فكان أنف سعد مفزورا، فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2]»[3].

★ **غريب الحديث:**

لحي جزور: اللحي: عظم الحنك، وهو الذي عليه الأسنان، وهو من الإنسان حيث ينبت الشعر، وهو أعلى وأسفل.

فزر: من باب ضرب. أي: فسخته وكسرته، وفزر الثوب ونحوه فزورا: انشق.

يشجروا فمها: الشجر: مفتح الفم، وقيل: هو الذقن. والمعنى: أدخلوا في شجره عودا حتى يفتحوه به.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عبيد: «في هذا النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى. فإحداهن: في النفل الذي لا خمس فيه. والثانية: في

---

(١) لقمان: الآيتان (١٤و١٥). (٢) المائدة: الآيتان (٩٠ و٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٨١ و١٨٥-١٨٦)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٤)، ومسلم (٤/ ١٨٧٧/ ١٧٤٨)، وأخرجه: أبوداود (٣/ ١٧٧/ ٢٧٤٠)، والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٨٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٨-٣٤٩/ ١١١٩٦) مختصرا.

النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس. والثالثة: في النفل الذي يكون من الخمس نفسه. والرابعة: في النفل من جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، فأما الذي لا خمس فيه فإنه السلب، وذلك أن ينفرد الرجل بقتل المشرك، فيكون له سلبه مسلما، من غير أن يخمس أو يشركه فيه أحد من أهل العسكر، وأما الذي يكون من الغنيمة بعد الخمس، فهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع، أو الثلث بعد الخمس. وأما الثالث فأن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى. وأما الذي يكون من جملة الغنيمة فما يعطي الأدلاء على عورة العدو، ورعاء الماشية والسواق لها، وذلك أن هذا منفعة لأهل العسكر جميعًا، وفي كل ذلك أحاديث واختلاف»[١].

قال أبو عمر: «والنَّفَل يكون على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يريد الإمام تفضيل بعض الجيش لشيء يراه من غنائه وبأسه وبلائه، أو لمكروه تحمّله دون سائر الجيش فيُنَفِّله من الخمس، لا من رأس الغنيمة، أو يجعل له سَلَب قتيله. . .

الوجه الآخر: أن الإمام إذا بعث سرية من العسكر فأراد أن يُنَفِّلها مما غنمت. ثم يعطي السرية مما بقي وبعد الخمس ما شاء، رُبُعًا أو ثلثًا، ولا يزيد على الثلث؛ لأنه أقصى ما روي عن النبي ﷺ نَفَّلَه، ويقسم الباقي بين جميع أهل العسكر وبين السرية على السوية، للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد[٢].

الوجه الثالث: أن يحرض الإمام أو أمير الجيش أهل العسكر على القتال، قبل لقاء العدو، ويُنفّل جميعَهُم مما يصير بأيديهم ويفتحه اللَّه عليهم؛ الربع أو الثلث قبل القَسْم تحريضًا منه على القتال. وهذا الوجه كان مالك يكرهه ولا يراه، وكان يقول: قتالهم على هذا الوجه إنما يكون للدنيا، وكان يكره ذلك ولا يجيزه، وأجازه جماعة من أهل العلم»[٣].

---

(١) الأموال (ص: ٣١٨-٣١٩).

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٢/ ٢)، والبخاري (٦/ ٨٣/ ٢٨٦٣)، ومسلم (٣/ ١٣٨٣/ ١٧٦٢)، وأبوداود (٣/ ١٧٢-١٧٣/ ٢٧٣٣)، والترمذي (٤/ ١٠٥/ ١٥٥٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٢/ ٢٨٥٤) عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ.

(٣) فتح البر (١١/ ١٥٤).

* عن عبادة بن الصامت قال: «خرج رسول اللَّه ﷺ إلى بدر، فلقي العدو، فلما هزمهم اللَّه، اتبعهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول اللَّه ﷺ، واستولت طائفة على العسكر والنهب، فلما كفى اللَّه العدو، ورجع الذين طلبوهم، قالوا: لنا النفل، نحن طلبنا العدو، وبنا نفاهم اللَّه وهزمهم، وقال الذين أحدقوا برسول اللَّه ﷺ: واللَّه ما أنتم أحق به منا، هو لنا، نحن أحدقنا برسول اللَّه ﷺ لأن لا ينال العدو منه غرة. قال الذين استولوا على العسكر والنهب: واللَّه ما أنتم بأحق منا، هو لنا، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، فقسمه رسول اللَّه ﷺ بينهم، وكان رسول اللَّه ﷺ ينفلهم إذا خرجوا بادين الربع، وينفلهم إذا قفلوا الثلث، وقال: أخذ رسول اللَّه ﷺ يوم حنين وبرة من جنب بعير، ثم قال: **يا أيها الناس، إنه لا يحل لي مما أفاء اللَّه عليكم قدر هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وإياكم والغلول، فإنه عار على أهله يوم القيامة، وعليكم بالجهاد في سبيل اللَّه، فإنه باب من أبواب الجنة، يذهب اللَّه به الهم والغم.** قال: فكان رسول اللَّه ﷺ يكره الأنفال ويقول: **ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم**»[1].

★ غريب الحديث:

أحدق: أحدق القوم بالبلد إحداقا: أحاطوا به. والحديقة: البستان يكون عليه حائط؛ لأن الحائط أحدق بها أي: أحاط.

النهب: الغارة والسلب، والمقصود به هنا: الغنيمة. قال في اللسان: النهب: الغنيمة.

بادين: من البدو، وهو الظهور، يقال: بدى إلى البادية بداوة بالفتح والكسر: خرج إليها.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢٣-٣٢٤)، وابن حبان (الإحسان ١١/ ١٩٣-١٩٤/ ٤٨٥٥) واللفظ له، والحاكم (٢/ ١٣٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
وأخرجه مختصرًا: الترمذي (٤/ ١١٠/ ١٥٦١)، والنسائي (٧/ ١٤٩/ ٤١٤٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٥١/ ٢٨٥٢).

وبرة: الوبر للبعير: كالصوف للغنم. وبعير وبِر بالكسر: كثير الوبر.

الغلول: الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. يقال: غلَّ في المغنم يغُلُّ غلولا فهو غال. وكل من خان في شيء خفية فقد غل. وسميت غلولا لأن الأيدي فيها مغلولة: أي ممنوعة مجعول فيها غُلٌّ، وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ يوم بدر: «**من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا**» قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح اللَّه عليهم قال المشيخة: كنا ردءًا لكم، لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان وقالوا: جعله رسول اللَّه ﷺ لنا، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[1] يقول: «**فكان ذلك خيرًا لهم، فكذلك أيضًا فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم**»[2].

★ غريب الحديث:

ردءًا: عونًا، مشتق من أردأته: أي: أعنته.

فئتم: رجعتم.

★ فوائد الحديثين:

اختلف العلماء في سبب نزول الآية. **قال ابن جرير ما ملخصه**: «قال بعضهم: نزلت في غنائم بدر؛ لأن النبي ﷺ كان نفَّل أقواما على بلاء، فأبى أقوام وتخلف آخرون مع رسول اللَّه ﷺ، فاختلفوا فيها بعد انقضاء الحرب، فأنزل اللَّه هذه الآية على رسوله، يعلمهم أن ما فعل فيها رسول اللَّه ﷺ فماض جائز..

وقال آخرون: إنما نزلت هذه الآية لأن بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ سأله من

---

(١) الأنفال: الآيات (١-٥).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٧٥-١٧٦/ ٢٧٣٧-٢٧٣٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٩/ ١١١٩٧)، وابن حبان (الإحسان ١١/ ٤٩٠/ ٥٠٩٣)، والحاكم (٢/ ١٣١-١٣٢) وقال: «هذا حديث صحيح فقد احتج البخاري بعكرمة وقد احتج مسلم بداود بن أبي هند ولم يخرجاه»، قال الذهبي في التلخيص: «هو على شرط البخاري»، وفي (٢/ ٣٢٦-٣٢٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

المغنم شيئًا قبل قسمتها، فلم يعطه إياه، إذ كان شركا بين الجيش، فجعل اللَّه جميع ذلك لرسول اللَّه ﷺ . . .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه تعالى أخبر في هذه الآية عن قوم سألوا رسول اللَّه ﷺ الأنفال أن يعطيهموها، فأخبرهم اللَّه أنها لله، وأنه جعلها لرسوله، وإذا كان ذلك معناه، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول اللَّه ﷺ فيها، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد أنه سأله إياه، وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله قسم ذلك بين الجيش»[١].

قال الخطابي: «كان رسول اللَّه ﷺ يُنَفِّلُ الجيوش والسرايا تحريضًا على القتال، وتعويضًا لهم عما يصيبهم من المشقة والكآبة، ويجعلهم أسوة الجماعة في سهمان الغنيمة. فيكون ما يخصهم به من النفل كالصلة والعطية المستأنفة. ولا يفعل ذلك إلا بأهل الغناء في الحروب، وأصحاب البلاء في الجهاد»[٢].

قال ابن قدامة: «ينفل الإمام بعض الجيش لغنائه وبأسه وبلائه، أو لمكروه تحمله دون سائر الجيش. قال أحمد في الرجل يأمره الأمير يكون طليعة أو عنده يدفع إليه رأسا من السبي أو دابة قال: إذا كان رجل له غناء، ويقاتل في سبيل اللَّه فلا بأس بذلك، ذلك أنفع لهم، يحرض هو وغيره، يقاتلون ويغنمون. وقال: إذا نفذ الإمام صبيحة المغار الخيل، فيصيب بعضهم وبعضهم لا يأتي بشيء، فللوالي أن يخص بعض هؤلاء الذين جاءوا بشيء دون هؤلاء. وظاهر هذا أن له إعطاء من هذه حاله من غير شرط. وحجة هذا حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: «أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول اللَّه ﷺ فاتبعتهم، فذكر الحديث فأعطاني رسول اللَّه ﷺ سهم الفارس والراجل»[٣] رواه مسلم و أبو داود»[٤].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٧٥).

(٢) معالم السنن (٢/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٢-٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٣٣-١٤٤١/ ١٨٠٧) مطولا، وأبو داود (٣/ ١٨٥-١٨٧/ ٢٧٥٢) مختصرًا.

(٤) المغني (١٣/ ٥٥-٥٦).

قوله : «وكان رسول اللَّه ﷺ ينفلهم إذا خرجوا بادين الربع ، وينفلهم إذا قفلوا الثلث» :

قال أبو عبيد : تأويل نفل السرايا : أن يدخل الجيش أرض العدو ، فيوجه الإمام منها سراياه في بدأته ، فيضرب يمينا وشمالا ، ويمضي هو في بقية عسكره أمامه ، وقد واعد أمراء السرايا أن يوافوه في منزل قد سماه لهم يكون به مقامه إلى أن يأتوه ، ووقت لهم في ذلك أجلا معلوما ، فإذا وافته السرايا هناك بالغنائم بدأ فعزل الخمس من جملتها ، ثم جعل لهم الربع مما بقي نفلا خاصا لهم ، ثم يصير ما فضل بعد الربع لسائر الجيش ، وتكون السرايا شركاءهم في الباقي أيضًا بالسوية ، ثم يفعل بهم بعد القفول مثل ذلك ، إلا أنه يزيدهم في الانصراف فيعطيهم الثلث بعد الخمس ، وإنما جاءت الزيادة في المنصرف لأنهم يبدءون إذا غزوا نشاطا متسرعين إلى العدو ، ويقفلون كلالا بطاء ، قد ملوا السفر وأحبوا الإياب .

وأما اشتراك أهل العسكر مع السرايا في غنائمهم بعد النفل فإنما يشركونهم ؛ لأن هذا العسكر ردء للسرايا ، وإن كان أولئك حووا الغنيمة ، وهؤلاء غيب عنها»[١] .

قال ابن قدامة : «إن رأى الإمام أن لا ينفلهم شيئًا فله ذلك ، وإن رأى أن ينفلهم دون الثلث والربع فله ذلك ؛ لأنه إذا جاز أن لا يجعل لهم شيئًا جاز أن يجعل لهم يسيرا ، ولا يجوز أن ينفل أكثر من الثلث ، نص عليه أحمد ، وهو قول مكحول ، والأوزاعي ، والجمهور من العلماء . وقال الشافعي : لا حد للنفل ؛ بل هو موكول إلى اجتهاد الإمام ؛ لأن النبي ﷺ نفل مرة الثلث وأخرى الربع ، وفي حديث ابن عمر نفل نصف السدس ، فهذا يدل على أنه ليس للنفل حد لا يتجاوزه الإمام ، فينبغي أن يكون موكولا إلى اجتهاده . ولنا أن نفل النبي ﷺ انتهى إلى الثلث ، فينبغي أن لا يتجاوزه . وما ذكره الشافعي يدل على أنه ليس لأقل النفل حد ، وأنه يجوز أن ينفل أقل من الثلث والربع ، ونحن نقول به»[٢] .

وقال أيضًا : «إنما زيد في الرجعة على البداءة في النفل لمشقتها ، فإن الجيش في البداءة ردء للسرية تابع لها ، والعدو خائف ، وربما كان غارا ، وفي الرجعة لا ردء

(١) الأموال (ص : ٣٢٧) .
(٢) المغني (١٣/ ٥٥) .

للسرية؛ لأن الجيش منصرف عنهم، والعدو مستيقظ كلب. قال أحمد: في البداءة إذا كان ذاهبا الربع، وفي القفلة إذا كان في الرجوع الثلث؛ لأنهم يشتاقون إلى أهليهم فهذا أكبر»[١].

قوله: «فقسمه رسول اللَّه ﷺ بينهم»:

قال ابن كثير: «ساوى فيها بين الذين جمعوها، وبين الذين اتبعوا العدو، وبين الذين ثبتوا تحت الرايات، لم يخصص بها فريقا منهم ممن ادعى التخصيص بها ولا ينفي هذا تخميسها وصرف الخمس في مواضعه، كما قد يتوهمه بعض العلماء، منهم أبو عبيدة وغيره، واللَّه أعلم؛ بل قد تنفل رسول اللَّه ﷺ سيفه ذا الفقار من مغانم بدر.

قال ابن جرير: وكذا اصطفى جملا لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة[٢]، وهذا قبل إخراج الخمس أيضًا»[٣].

قوله ﷺ: **«إنه لا يحل لي مما أفاء اللَّه عليكم قدر هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»**:

قال ابن عبد البر: «أراد إلا الخمس، فإنه إلي أعمل فيه برأيي، وأرده عليكم باجتهادي؛ لأن الأربعة الأخماس من الغنيمة مقسومة على الموجفين ممن حضر القتال على الشريف والمشروف والرفيع والوضيع والغني والفقير بالسواء، للفارس ثلاثة أسهم إذا كان حرا ذكرا، غير مستأجر؛ وللراجل منهم سهم واحد، وليس للرأي والاجتهاد في شيء من ذلك مدخل، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء قرنا بعد قرن، وراثة عن رسول اللَّه ﷺ، إلا ما اختلف فيه من سهم الفارس على ما قد ذكرناه في باب نافع عن ابن عمر؛ فإن من أهل العلم طائفة منهم أبو حنيفة يقولون: للفارس سهمان، والجمهور على أن للفرس سهمين، ولراكبه سهما، ثلاثة أسهم[٤]»[٥].

---

(١) المغني (١٣/ ٥٥).

(٢) يشير إلى حديث ابن عباس «أن رسول اللَّه ﷺ قد كان أهدى جمل أبي جهل، الذي كان استلب يوم بدر في رأسه برة من فضة، عام الحديبية في هديه». أخرجه: أحمد (١/ ٢٦١)، وأبو داود (٢/ ٣٦٠-٣٦١/ ١٧٤٩)، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٦/ ٢٨٩٧)، والحاكم (١/ ٤٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

(٣) السيرة النبوية (٢/ ٤٦٧).

(٤) تقدم تخريجه قريبا.

(٥) فتح البر (١١/ ١٢١-١٢٢).

قوله: «**فكان ذلك خيرا لهم، فكذلك أيضًا فأطيعوني، فإني أعلم بعاقبة هذا منكم**»:

قال في عون المعبود: «أي كان الخروج إلى بدر خيرا لهم لما ترتب عليه من النصر والظفر. «**فكذلك أيضًا**» أي: فهذه الحالة التي هي قسمة الغنائم على السوية بين الشبان والمشيخة وعدم مخالفة النبي ﷺ في إعطاء النفل لمن أراده مثل الخروج في أن الكل خير لهم. «**فأطيعوني**»: في كل ما أقول لكم، ولا تخالفوني. «**بعاقبة هذا**» أي: إعطاء النفل. «**منكم**» وأنتم لا تعلمون»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفل السرية تخرج من العسكر

* عن ابن عمر: «أن **رسول اللَّه** ﷺ بعث سرية فيها عبد اللَّه بن عمر قبل نجد، فغنموا إبلًا كثيرة فكانت سهمانهم اثني عشر بعيرًا، أو أحد عشر بعيرًا، ونفلوا بعيرًا بعيرًا»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر: «فيه أن ما يحصل عليه المسلمون ويفيدونه من أموال العدو يسمى غنيمة.

وفيه أن ما غنمه المسلمون من أموال المشركين يقسم بينهم بعد إخراج خمسه سهمانًا. وما حصل من ذلك بأيديهم فهو مال من أموالهم من أطيب كسبهم إذا سلم من الغلول وإخراج خمسه.

وفيه أن للإمام وللأمير على الجيش أن يُنَفِّل من الغنائم ما شاء على قدر اجتهاده»[٣].

قال ابن حجر: «(قال النووي: معناه: أن أمير السرية نفلهم فأجازه النبي ﷺ فجازت نسبته لكل منهما). وفي الحديث أن الجيش إذا انفرد منه قطعة فغنموا شيئًا

---

(١) عون المعبود (٧/ ٤١٣-٤١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٥ و٦٢ و٨٠)، والبخاري (٦/ ٢٩١/ ٣١٣٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٨/ ١٧٤٩)، وأبو داود (٣/ ١٧٩-١٨٠/ ٢٧٤٣-٢٧٤٤-٢٧٤٥).

(٣) فتح البر (١١/ ١٤٤ بتصرف يسير).

كانت الغنيمة للجميع. قال ابن عبد البر: (لا يختلف الفقهاء في ذلك، أي إذا خرج الجيش جميعه ثم انفردت منه قطعة). انتهى

وليس المراد الجيش القاعد في بلاد الإسلام، فإنه لا يشارك الجيش الخارج إلى بلاد العدو؛ بل قال ابن دقيق العيد: (أن الحديث يستدل به على أن المنقطع من الجيش عن الجيش الذي فيه الإمام ينفرد بما يغنمه. قال: وإنما قالوا بمشاركة الجيش لهم إذا كانوا قريبا منهم يلحقهم عونه وغوثه لو احتاجوا) انتهى. وهذا القيد في مذهب مالك»[١].

وقال أيضًا: «فيه مشروعية التنفيل، ومعناه: تخصيص من له أثر في الحرب بشيء من المال»[٢].

قال الخطابي: «واختلفوا في هذه الزيادة التي هي النَّفَل، من أين أعطاهم إياها؟ فكان ابن المسيب يقول: إنما يُنَفِّل الإمام من الخمس، يعني سهم النبي ﷺ. وهو خمس الخمس من الغنيمة. وإلى هذا ذهب الشافعي وأبو عبيد.

وذلك أن النبي ﷺ كان يضعه حيث أراد اللَّه ﷻ في مصالح أمر الدين ومعاون المسلمين.

قال الشافعي: فإذا كثر العدو، واشتدت شوكتهم، وقلَّ مَنْ بإزائهم من المسلمين نَفَّل منه الإمام اتباعًا للسنة. وإذا لم يكن ذلك لم يُنَفِّل. وقال أبو عبيد: الخمس مفوض إلى الإمام، يُنفِّل منه إن شاء. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**مالي مما أفاء اللَّه عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**». وقال غيرهم: إنما كان النبي ﷺ يُنَفِّلهم من الغنيمة التي يغنمونها. كما نَفَّل القاتل السَّلَب[٣] من جملة الغنيمة. وعلى هذا دلّ أكثر ما روي من الأخبار في هذا الباب»[٤].

قال أبو عمر: «وأما حديث ابن عمر المذكور في هذا الباب، فلا يحتمل تأويلًا، ولا له إلا وجه واحد؛ وذلك أنهم نفلوا بعيرًا بعيرًا بعد سهمانهم، فدل على

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٩٥).
(٢) فتح الباري (٦/ ٢٩٥).
(٣) السَّلَب: ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره.
(٤) معالم السنن (٢/ ٢٦٩).

أن ذلك من غير سهمانهم، ولا موضع لغير السهمان إلا الخمس»[١].

وقال: «أعدل الأقاويل عندي والله أعلم في هذا الباب، أن يكون النفل من خمس الخمس: سهم النبي ﷺ، لولا أن في حديث ابن عمر هذا، ما يدل على أنه لم يكن ذلك من خمس الخمس، وذلك أن تنزل تلك السرية على أنهم كانوا عشرة مثالًا، ومعلوم أنك إذا عرفت ما للعشرة، عرفت ما للمائة، وما للألف وأزيد، فمثال ذلك: أن تكون السرية عشرة أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين بعيرًا، خرج منها خمسها ثلاثون بعيرًا وصار لهم مائة وعشرون، قسمت على عشرة، وجب لكل واحد اثنا عشر، اثنا عشر بعيرًا، ثم أعطي القوم من الخمس بعيرًا بعيرًا؛ فهذا على مذهب من قال النفل من جملة الخمس؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة»[٢].

قال ابن حجر: «قال الأوزاعي وأحمد وأبو ثور وغيرهم: النفل من أصل الغنيمة، وقال مالك وطائفة: لا نفل إلا من الخمس. وقال الخطابي: أكثر ما روي من الأخبار يدل على أن النفل من أصل الغنيمة، والذي يقرب من حديث الباب أنه كان من الخمس؛ لأنه أضاف الاثني عشر إلى سهمانهم، فكأنه أشار إلى أن ذلك قد تقرر لهم استحقاقه من الأخماس الأربعة الموزعة عليهم فيبقى للنفل من الخمس. قلت: ويؤيده ما رواه مسلم في حديث الباب من طريق الزهري قال: بلغني عن ابن عمر قال: نفل رسول الله ﷺ سرية بعثها قبل نجد من إبل جاؤوا بها نفلا سوى نصيبهم من المغنم، لم يسق مسلم لفظه، وساقه الطحاوي، ويؤيده أيضًا ما رواه مالك عن عبد ربه بن سعيد، عن عمرو بن شعيب، أن النبي ﷺ قال: «**مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، وهو مردود عليكم**» وصله النسائي من وجه آخر حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأخرجه أيضًا بإسناد حسن من حديث عبادة بن الصامت، فإنه يدل على أن ما سوى الخمس للمقاتلة، وروى مالك أيضًا عن أبي الزناد أنه سمع سعيد بن المسيب قال: كان الناس يعطون النفل من الخمس. قلت: وظاهره اتفاق الصحابة على ذلك. وقال ابن عبد البر: إن أراد الإمام تفضيل بعض

---

(١) فتح البر (١١/ ١٥٢).

(٢) فتح البر (١١/ ١٥٤).

الجيش لمعنى فيه فذلك من الخمس لا من رأس الغنيمة، وإن انفردت قطعة فأراد أن ينفلها مما غنمت دون سائر الجيش فذلك من غير الخمس، بشرط أن لا يزيد على الثلث. انتهى

وهذا الشرط قال به الجمهور. وقال الشافعي: لا يتحدد؛ بل هو راجع إلى ما يراه الإمام من المصلحة، ويدل له قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ففوض إليه أمرها، والله أعلم»[١].

* * *

(١) الفتح (٦/ ٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم، فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر. والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة اللّه ورسوله، كما أن من لم يطع اللّه ورسوله فليس بمؤمن. ومن نقصت طاعته للّه ورسوله، فذلك لنقص إيمانه»[١].

قال شيخ الإسلام: «إن من القواعد العظيمة التي هي جماع الدين، تأليف القلوب واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٢].. وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنها هم أهل الفرقة»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا نفس ما بينكم، وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض، وهي رابطة الإسلام، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق، والإيثار

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤١-١٤٢).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١).

أيضًا. والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[1] ويعبر عن هذه الرابطة بذات البين. وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين، فهو واجب شرعا، تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها، وتحفظ به وحدتها: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم، فاللَّه تعالى يطاع لذاته؛ لأنه رب العالمين ومالك أمرهم، والرسول يطاع في أمر الدين؛ لأنه مبلغ له عن اللَّه تعالى، ومبين لوحيه فيه بالقول والفعل والحكم، وهذه الطاعة له تعبدية لا رأي لأحد فيها، وتتوقف عليها النجاة في الآخرة والفوز بثوابها، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة، ولا سيما الحرب من حيث إنه الإمام القائد العام، فمخالفته إخلال بالنظام العام، وإفضاء إلى الفوضى التي لا تقوم معها للأمة قائمة، فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى، فقد أمره اللَّه تعالى في تنفيذ أحكامه، وإدارته بمشاورة الأمة، كما تقدم في سورة آل عمران، وأشرك معه في هذه الطاعة أولي الأمر، كما تقدم في سورة النساء.. ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وإدارة الأمور العامة، وقيادة الجند ما كان له ﷺ منه، مقيدا بعدم معصية اللَّه تعالى وبمشاورة أولي الأمر..

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فامتثلوا الأوامر الثلاثة، فإن الإيمان يقتضي ذلك كله؛ لأن اللَّه تعالى أوجبه، والمؤمن باللَّه غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة أو سورة غضب، ثم لا يلبث أن يفيء إلى أمر اللَّه، ويتوب إليه مما عرض له»[2].

قال الرازي: قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وفيه بحثان: البحث الأول: معناه فاتقوا عقاب اللَّه، ولا تقدموا على معصية اللَّه، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال. وارضوا بما حكم به رسول اللَّه ﷺ. البحث الثاني: في قوله: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: وأصلحوا ذات بينكم من

---

(١) الأنعام: الآية (٩٤).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٨٧-٥٨٨).

الأقوال، ولما كانت الأقوال واقعة في البين قيل لها ذات البين، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدور قيل لها ذات الصدور»[1].

قال ابن عاشور: «تفريع ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على جملة ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ لأن في تلك الجملة رفعًا للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال، أو في طلب التنفيل، فلما حكم بأنها ملك لله ورسوله، أو بأن أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهة كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنهم أحق بتلك الأنفال ممن أعطيها، تبعًا لعوائِدهم السالفة في الجاهلية فذكرهم اللَّه بأن قد وجب الرضى بما يقسمه الرسول منها، وهذا كله من المقول. وقدم الأمر بالتقوى؛ لأنها جامع الطاعات. وعُطف الأمر بإصلاح ذات البين؛ لأنهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن الصامت: «**اختلفْنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا**»[2] فأمرهم اللَّه بالتصافح، وختم بالأمر بالطاعة، والمراد بها هنا الرضى بما قسم اللَّه ورسوله، أي الطاعة التامة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾[3]. .

وهذا إلهاب لنفوسهم على الامتثال، لظهور أن ليس المراد: فإن لم تكونوا مؤمنين فلا تتقوا اللَّه ورسوله، ولا تصلحوا ذات بينكم، ولا تطيعوا اللَّه ورسوله، فإن هذا المعنى لا يخطر ببال أهل اللسان، ولا يسمح بمثله الاستعمال.

وليس الإتيان في الشرط بـ«إنْ» تعريضًا بضُعف إيمانهم، ولا بأنه مما يشك فيه من لا يعلم ما تخفي صدورُهم، بناء على أن شأن (إنْ) عدمُ الجزم بوقوع الشرط بخلاف (إذا) على ما تقرر في المعاني، ولكن اجتلاب (إنْ) في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان وهي: التقوى الجامعة لخصال الدين، وإصلاح ذات بينهم، والرضى بما فعله الرسول، فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صُوره ومظاهره»[4].

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ١٢٠).

(٢) جزء من حديث تم تخريجه في: الآية السابقة وهذه الرواية أخرجها: أحمد (٥/ ٣٢٢-٣٢٣)، والطبري في التفسير (٩/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) النساء: الآية (٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٢-٢٥٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إصلاح ذات البين

* عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ قال: «**هذا تحريج من اللَّه على المؤمنين أن يتقوا اللَّه، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال**»[١].

★ غريب الحديث:

تحريج: تضييق. من الحَرَج، والحرج في الأصل الضيق، ويقع على الإثم والحرام وقيل: الحرج: أضيق الضيق.

★ فوائد الحديث:

قال صديق حسن خان: «فيه من التهييج والإلهاب، والتنشيط للمخاطبين، والحث لهم على المسارعة إلى الامتثال ما لا يخفى، مع كونهم في تلك الحال على الإيمان، فكأنه قال: إن كنتم مستمرين على الإيمان باللَّه؛ لأن هذه الأمور الثلاثة لا يكمل الإيمان بدونها»[٢].

بوب البخاري في كتابه الأدب المفرد على هذا الحديث بقوله: (باب إصلاح ذات البين) **قال فضل اللَّه الجيلاني**: «والمعنى إصلاح الأحوال التي تجري بينكم حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها ذات البين، وإصلاحها سبب الاعتصام باللَّه، وعدم التفرق بين المسلمين، فهي درجة فوق درجة من اشتغل بخويصة نفسه بالصيام والصلاة، فرضا ونفلا»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٩/ ١٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم٣٩٢) وقال فيه الألباني: «صحيح الإسناد موقوف».

(٢) فتح البيان (٥/ ١٢٨).

(٣) فضل اللَّه الصمد (١/ ٤٧٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(١)]

★ **غريب الآية:**

وجلت: قال محمد رشيد رضا: «قال الراغب: الوجل استشعار الخوف. يعني: ما يجعل القلب يشعر به بالفعل، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف (وبابه فرح وتعب)، وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله، فالوجل والفزع أخص منه»[(٢)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر اللَّه وجل قلبه؛ أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(٤)] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم. أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق اللَّه، فيجل قلبه»[(٥)].

وقال القرطبي: «وصف اللَّه تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة إيمانهم، ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه، ونظير هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(٦)] وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[(٧)] فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل الفزع من عذاب اللَّه، فلا تناقض، وقد جمع اللَّه بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا

---

(١) الأنفال: الآية (٢).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٨٩).
(٣) آل عمران: الآية (١٣٥).
(٤) النازعات: الآيتان (٤٠و٤١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١-١٢).
(٦) الحج: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٧) الرعد: الآية (٢٨).

﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[١] أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله»[٢].

قال الشوكاني: «قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية، من جهة أن وجل القلوب عند الذكر، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله، يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية: هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة»[٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا﴾ قال ابن عطية: «ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط أي: الكاملون»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «المراد بذكر الله: ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله، أو لوعيده ووعده، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم، وغير ذلك من صفاته وأفعاله، سواء صحبه ذكر اللسان أم لا، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر، وقد يقول المؤمن في صلاة التهجد في الخلوة «الله أكبر» مستحضرا لمعنى كبريائه ﷻ فينتفض ويقشعر جلده، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا، وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه، وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته، ولم يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[٥] ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفيض دمعه من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٦] الخ. ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء. وإنما يأخذ مثل هذا من معاني القرآن من فهمه بظواهر بعض الألفاظ

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٣) فتح القدير (٢/ ٤٠١).
(٤) المحرر الوجيز (١/ ٥٠١).
(٥) فاطر: الآية (٢٨).
(٦) الحشر: الآيتان (٢١و٢٢).

بدون شعور بما لها من التأثير في القلوب فيقابل بين هذه الآية وما في معناها وبين قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١] فيظن أن بينهما تعارضا، فيحاول التفصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي، ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات اللَّه تعالى في الأنفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالإيمان باللَّه تعالى والثقة بما عنده»[٢].

قال ابن عاشور: «وقد أجملت الآية ذكر اللَّه إجمالا بديعا ليناسب معنى الوجل، فذكر اللَّه يكون: بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين؛ لأنه يحصل معه استحضار جلال اللَّه، وشدة بأسه وسعة ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقع حلول بأسه، وتوقع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته، وهو وجل يبعث المؤمن على الاستكثار من الخير، وتوقي ما لا يرضي اللَّه تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود اللَّه في أمره ونهيه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقيقة الوجل

* عن أنس بن مالك، أن الناس سألوا نبي اللَّه ﷺ حتى أحفوه بالمسألة. فخرج ذات يوم فصعد المنبر. فقال: «**سلوني. لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم**»، فلما سمع ذلك القوم أرمُّوا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر.

قال أنس: فجعلت ألتفت يمينًا وشمالًا. فإذا كل رجل لافٌ رأسه في ثوبه يبكي. فأنشأ رجل من المسجد، كان يلاحى فيدعى لغير أبيه. فقال: يا نبي اللَّه، من أبي؟ قال: أبوك حذافة، ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: رضينا باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، عائذًا باللَّه من سوء الفتن. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لم أر كاليوم قط في الخير والشر. إني صورت لي الجنة والنار، فرأيتهما دون**

(١) الرعد: الآية (٢٨).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٨٩-٥٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٦).

هذا الحائط».

وفي رواية: «غطوا رؤوسهم ولهم خنين»[1].

★ **غريب الحديث:**

خنين: قال النووي: «هو بالخاء المعجمة هكذا هو في معظم النسخ ولمعظم الرواة، ولبعضهم بالحاء المهملة، وممن ذكر الوجهين القاضي وصاحب التحرير وآخرون، قالوا: ومعناه بالمعجمة: صوت البكاء، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب. قالوا: وأصل الخنين: خروج الصوت من الأنف كالحنين بالمهملة من الفم. وقال الخليل: هو صوت فيه غنة. وقال الأصمعي: إذا تردد بكاؤه فصار في كونه غنة فهو خنين. وقال أبو زيد: الخنين مثل الحنين وهو شديد البكاء»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «فجعلت ألتفت يمينًا وشمالًا، فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي» هذه حالة العارفين بالله تعالى، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما تفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام من الزعيق والزفير، ومن النهيق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجد وخشوع: إنك لم تبلغ ذلك، أي تساوي حال رسول الله ﷺ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله تعالى، والبكاء خوفا من الله، والوقار حياء من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3]، فصدر الله تعالى الكلام في هذه الآية بـ(إنما) الحاصرة لما بعدها، المحققة له؛ فكأنه قال: المؤمنون على التحقيق هم الذين تكون أحوالهم هكذا عند سماع ذكر الله، وتلاوة كتابه، ومن لم يكن

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٢-١٧٧)، والبخاري (١٣/ ٣٢٩/ ٧٢٩٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٤/ ٢٣٥٩[١٣٧])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨/ ١١١٥٤). وأخرجه مختصرا دون ذكر موضع الشاهد: أبو داود (٥/ ٩٠/ ٤٧١٨)، والترمذي (٥/ ٢٣٩/ ٣٠٥٦).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ٩١-٩٢).

(٣) الأنفال: الآية (٢).

كذلك فليس على هديهم، ولا على طريقتهم، وكذلك قال اللّه تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]. فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والمجون، فهو من أخسهم حالا، والجنون فنون. فإن قيل: فقد صح عن جماعة من السلف أنهم صرخوا عند سماع القرآن والمواعظ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع قارئا يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾[2] فصاح صيحة خر مغشيا عليه، فحمل إلى أهله، فلم يزل مريضا شهرا. وروي أن زرارة بن أوفى قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[3] فصعق ومات في محرابه. وقرأ صالح المري على أبي جهين فمات، وسمع الشافعي قارئا يقرأ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[4]، فغشي عليه. وسمع علي بن الفضل قارئا يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5] فسقط مغشيا عليه. فالجواب: أين الدرّ من الصدف، والمسك من الجيف؟ هيهات، قياس الملائكة بالحدادين، والمحققين بالممخرقين، فإن كنت -يا من لبس عليه- تدعي أنك على نعتهم فمت كموتهم، فتنبه لبهرجتك؛ فإن الناقد بصير، والمحاسب خبير، ثم يقال لمن صرخ في حال خطبة الجمعة: إن كنت قد ذهب عقلك حال صعقتك، فقد خسرت في صفقتك؛ إذ قد سلب عقلك، وذهب فهمك، ولحقت بغير المكلفين، وصرت كالصبيان والمجانين، وحرمت سماع الموعظة، وشهود الخطبة. وقد قال مشايخ الصوفية: مهما كان الوارد مانعا من القيام بفرض، ومانعا من الخير فهو من شيطان. ثم يلزم من ذهب عقله أن ينتقض وضوؤه، فإن صلى بعد تلك الغشية الجمعة ولم يتوضأ كان كمن يشهد الخطبة ولا صلى، فأي صفقة أخسر ممن هذه صفقته، وأي مصيبة أعظم ممن هذه مصيبته؟ وإن كان وقت صراخه في غفلة فقد تكلم في حال الخطبة، وشوش على الحاضرين سماعها، وأظهر بدعة في مجتمع الناس، وعرضهم لأن يجب عليهم تغييرها، فإن لم يفعلوا عصوا، فقد عصى اللّه من جهات متعددة، وحمل الناس على المعصية، إلى ما ينضاف إلى ذلك من رياء

---

(١) المائدة: الآية (٨٣).
(٢) الطور: الآيتان (٧و٨).
(٣) المدثر: الآية (٨).
(٤) المرسلات: الآيتان (٣٥ و٣٦).
(٥) المطففين: الآية (٦).

كامن في القلب، وفسق ظاهر على الجوارح. فنسأل اللَّه تعالى الوقاية من الخذلان، وكفاية أحوال الجهال والمجان»[١].

* عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول اللَّه ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: **«أوصيكم بتقوى اللَّه، والسمع والطاعة وإن عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

ذرفت: ذرفت العين ذرفا من باب ضرب: دمعت. وذرف الدمع: سال. وذرفت العين الدمع.

النواجذ: جمع ناجذ، وهو آخر الأضراس، ولكل إنسان أربع نواجذ.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن الجوزي: «اعلم وفقك اللَّه، أن قلوب الصحابة كانت أصفى القلوب. وما كانوا يزيدون عند الوجد على البكاء والخشوع.. وهذا حديث العرباض بن سارية وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قال أبو بكر الآجري: ولم يقل صرخنا ولا ضربنا صدورنا كما يفعل كثير من الجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان..

فإن قال قائل: إنما يفرض الكلام في الصادقين لا في أهل الرياء. فما تقول فيمن أدركه الوجد ولم يقدر على دفعه؟ فالجواب: إن أول الوجد انزعاج في الباطن، فإن كف الإنسان نفسه كيلا يطلع على حاله يئس الشيطان منه، فبعد عنه.

---

(١) المفهم (٦/ ١٦٠-١٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥ الإحسان)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦) وصححه ووافقه الذهبي.

كما كان أيوب السختياني إذا تحدث فرق قلبه مسح أنفه وقال: ما أشد الزكام. وإن أهمل الإنسان ولم يبال بظهور وجده، أو أحب اطلاع الناس على نفسه نفخ فيه الشيطان فانزعج على قدر نفخه..

فنفرض أن الكلام فيمن اجتهد في دفع الوجد فلم يقدر عليه وغلبه الأمر، فمن أين يدخل الشيطان؟ فالجواب: إنا لا ننكر ضعف بعض الطباع عن الدفع إلا أن علامة الصادق أنه لا يقدر على أن يدفع، ولا يدري ما يجري عليه، فهو من جنس قوله ﷺ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]..

وقد مات خلق كثير من سماع الموعظة وغشي عليهم. قلنا: هذا التواجد الذي يتضمن حركات المتواجدين وقوة صياحهم وتخبطهم، فظاهره أنه متعمل والشيطان معين عليه.

قال المصنف: فإن قيل: فهل في حق المخلصين نقص بهذه الحالة الطارئة عليه. قيل: نعم من جهتين. أحدهما: أنه لو قوي العلم أمسك. والثاني: أنه قد خولف به طريق الصحابة والتابعين، ويكفي هذا نقصا»[2].

قال شيخ الإسلام: «والذي عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فقال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه ونحو هذا، وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة: فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه. لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) تلبيس إبليس (ص: ٣٠٩-٣١٥).

ٱللَّهِۚ﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٢] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٣]وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٤] وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها، والجفاء عن الدين، ما هو مذموم وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

أحدها: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب، لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥]وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[٦].

والثانية: حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد، وضعف القلب عن حمله، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن، أو يحب أمورا دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه، أو يذهب بعقله، ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوبا على ذلك. فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه للريبة، كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفنا، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها، فإنه إذا لم يكن السبب محظورا، لم يكن السكران مذموما بل معذورا، فإن السكران بلا تمييز، وكذلك قد

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).
(٢) مريم: الآية (٥٨).
(٣) المائدة: الآية (٨٣).
(٤) الإسراء: الآية (١٠٩).
(٥) البقرة: الآية (٧٤).
(٦) الحديد: الآية (١٦).

يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة؛ فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر، وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها، كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم لأن سببه محظور، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر، وهذا أيضًا مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم، ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرما، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ولو بأمور فيها نوع من الإيمان، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، ولم يأذن لنا اللَّه أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا، بخلاف من زال عقله بسبب مشروع، أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه، وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ويحرك ساكنه ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالمغمى عليه والمجنون ونحوهما، . . ومن هؤلاء عقلاء المجانين، الذين يعدون في النساك، وقد يسمون المولهين، قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم اللَّه عقولا وأحوالا فسلب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب، فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك إذا كانت أسبابها مشروعة، وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذورا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم، وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه اللَّه، أو فعل ما يكرهه اللَّه، ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم، وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم»[1].

وقال أيضًا: «وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشائخها وأئمتها، كالصحابة

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٨-١٢).

والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي وأمثال هؤلاء. . . ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة، ما لا يتسع له خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٨٠-٨١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: في هذه الآية الكريمة التصريح بزيادة الإيمان، وقد صرح تعالى بذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[٤]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[٥] وتدل هذه الآيات بدلالة الالتزام على أنه ينقص أيضًا؛ لأن كل ما يزيد ينقص، وجاء مصرحًا به في أحاديث الشفاعة الصحيحة كقوله: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه وفي قلبه مثقال حبة من إيمان**»[٦] ونحو ذلك»[٧].

قال السعدي: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[٨].

قال محمد رشيد رضا: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيمانا، أي يقينا في الإذعان

---

(١) الأنفال: الآية (٢).
(٢) التوبة: الآية (١٢٤).
(٣) الفتح: الآية (٤).
(٤) المدثر: الآية (٣١).
(٥) محمد: الآية (١٧).
(٦) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (١/ ١٣٨-١٣٩/ ٤٤)، ومسلم (١/ ١٨٢/ ١٩٣[٣٢٥])، والترمذي (٤/ ٦١٣/ ٢٥٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢) كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٧) أضواء البيان (٢/ ٥٠).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٢-١٤٣).

وقوة في الاطمئنان، وسعة في العرفان، ونشاطا في الأعمال، ويطلق الإيمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما، والقرائن تعين المراد، وفيما رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحيهما شواهد صريحة في ذلك، ومن أهمها أحاديث أقل الإيمان المنجي في الآخرة، وحديث: «**الإيمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[١]، ولهذا حمل بعض الناس زيادة الإيمان على زيادة العمل اللازم له، وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الإيمان الذي فسروه بالتصديق القطعي، والحق أن الإيمان القلبي نفسه يزيد وينقص أيضًا، فإن إبراهيم ﷺ كان مؤمنا بإحياء اللّه للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٢] فمقام الطمأنينة في الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا.. وجملة القول: أن زيادة الإيمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى، كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذ دعاهم إلى القتال بعد ما أصابهم القرح في غزوة أحد ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٣] وفي معناه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[٤] وعطف التسليم على الإيمان هنا يؤيد كون المراد به إيمان القلب لا العمل. وفي معناه قوله تعالى في أول سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٥] فهو في إيمان القلب كما هو المتبادر.

وأما آيتا أواخر التوبة (١٢٤-١٢٥)، وآية سورة المدثر (٣١) فمما يحتمل أن تكون زيادة الإيمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن. على أن البخاري استدل بآيتي التوبة وأمثالهما على زيادة الإيمان في القلوب، وعليه جمهور السلف؛ بل حكى الإجماع عليه الشافعي وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره»[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٣).

(٤) الأحزاب: الآية (٢٢).

(٥) الفتح: الآية (٤).

(٦) تفسير المنار (٩/ ٥٩٠-٥٩٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في زيادة الإيمان ونقصانه

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

★ **غريب الحديث:**

بضع: البضع ما بين العقدين من واحد إلى عشرة، ومن أحد عشر إلى عشرين.

شعبة: الشعبة: الطائفة من الشيء.

إماطة الأذى: أي: تنحيته. يقال: مطت الشيء وأمطته.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «تقدم أن أصل الإيمان في اللغة: التصديق، وفي عرف الشرع: تصديق القلب واللسان، وظواهر الشرع تطلقه على الأعمال كما وقع هنا: «**أفضلها شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وآخرها إماطة الأذى عن الطريق**»، وقدمنا أن تمام الإيمان بالأعمال، وكماله بالطاعات، وإن التزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق ودلائل عليه، وأنها خلق أهل التصديق، فليست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي، وقد نبه -ﷺ- على أفضلها بالتوحيد المتعيَّن على كل مسلم، والذي لا يصح شيء من هذه الشعب إلا بعد صحته، وأدناها ما يتوقع ضرره بالمسلمين من إماطة الأذى عن طريقهم، وإن لم يقع الأذى بعد، وبقي بين هذين الطرفين من أعداد أبواب الإيمان ما لو تُكُلف حصرها بطريق الاجتهاد، وتعينها بغلبة الظن إلى حصر عدته لأمكن»(٢).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وقد انتدب لعدها طائفة من العلماء، كالحليمي والبيهقي وابن شاهين وغيرهم؛ فذكروا أن كل ما ورد تسميته إيمانًا في

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٤)، والبخاري (١/ ٧١/ ٩)، ومسلم (١/ ٦٣/ ٣٥[٥٨])، وأبو داود (٥/ ٥٥-٥٦/ ٤٦٧٦)، والترمذي (٥/ ١٢/ ٢٦١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٨٤/ ٥٠٢٠)، وابن ماجه (١/ ٢٢/ ٥٧).

(٢) الإكمال (١/ ٢٧٢-٢٧٣).

الكتاب والسنة من الأقوال والأعمال وبلغ بها بعضهم سبعًا وسبعين، وبعضهم تسعًا وسبعين.

وفي القطع على أن ذلك هو مراد الرسول ﷺ من هذه الخصال عسر، كذا قاله ابن الصلاح وهو كما قال»[١].

قال القاضي: «ولكنه قد جاء في الأحاديث النص على بعض تلك الشعب.. ولا يلزم معرفة تعيينها ولا يقدح جهل ذلك في الإيمان. إذ أصول الإيمان وفروعه معلومة محققة، والإيمان بأنها هذا العدد من الحديث واجب على الجملة، وتفصيل تلك الأصول وتعينها على هذا العدد يحتاج إلى توقيف»[٢].

قال ابن بطال: «فإن قال قائل من المرجئة: كيف يجوز أن تسمى أفعال البِرّ كلها إيمانًا، وقد تقدم من قولكم أن الإيمان هو التصديق؟

قيل: قد تقدم قول المهلب أن أعمال البر إذا انضافت إلى التصديق كمل تصديق صاحبها بها على تصديق من عري من أعمال البر، وقد تقدم قول الطبري أن التصديق يكون بالفعل كما يكون بالقول»[٣].

وفي جعل النبي ﷺ شرائع الإيمان بعضها أعلى وبعضها أدنى دليل على أن الإيمان يتفاضل، ففي ضمنه رد على من يجعله شيئًا واحدًا لا يتجزّأ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في 'الإيمان': «وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر اللّه به ورسوله، وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث، قالوا: فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئًا من الإيمان، إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئًا واحدًا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله:

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٣).

(٢) الإكمال (١/ ٢٧٢).

(٣) شرح ابن بطال (١/ ٦١-٦٢).

«**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»[(١)]، ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص»[(٢)].

وقال أيضًا: «والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[(٣)]، وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات؛ أي: وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذا زيادة الإيمان، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٤)] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله، وثباتًا على الجهاد وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[(٥)] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والاستبشار غير مجرد التصديق، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾[(٦)] والفرح بذلك من زيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[(٧)] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[(٨)] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (١٣/ ٥١٧-٥١٩/ ٧٤٣٩)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣)، والترمذي (٤/ ٦١٥/ ٢٥٩٨)، والنسائي (٨/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٥٠٢٥)، وابن ماجه (١/ ٢٣/ ٦٠) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) الإيمان (ص: ٢١٠).

(٣) الأنفال: الآية (٢).

(٤) آل عمران: الآية (١٧٣).

(٥) التوبة: الآيتان (١٢٤و١٢٥).

(٦) الرعد: الآية (٣٦).

(٧) يونس: الآية (٥٨).

(٨) الروم: الآيتان (٤و٥).

ﱡﭐالْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًاﱠ[١] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[٢] وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٤] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب، وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين، يكون ريبًا في العلم، وريبًا في طمأنينة القلب»[٥].

وقال أيضًا: «فصل: وزيادة الإيمان الذي أمر اللَّه به، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه:

أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان باللَّه ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملًا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل باللَّه وبالرسول باطنًا وظاهرًا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين، مات مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٦] أي: في التشريع بالأمر والنهي،

---

(١) المدثر: الآية (٣١).
(٢) الفتح: الآية (٤).
(٣) التوبة: الآية (٢٦).
(٤) التوبة: الآية (٤٠).
(٥) الإيمان (ص: ٢١٥-٢١٧).
(٦) المائدة: الآية (٣).

ليس المراد أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك؛ بل في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، وجعل نقصان عقلها أن شهادة امرأتين شهادة رجل واحد، ونقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي[1]، وهذا النقصان ليس هو نقصًا مما أمرت فلا تعاقب على هذا النقصان، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله، كان دينه كاملًا بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين.

الوجه الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقًا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره، ونهيه، وخبره، وطلب العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه، فعلمه، وآمن به، ولم يعمل به، فهؤلاء وإن اشتركوا في الوجوب، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل ممن عرف ما وجب عليه والتزمه، وأقر به، لكنه لم يعمل بذلك كله، وهذا المقر بما جاء به الرسول، المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل، أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ، مع أنه مقر بنبوته باطنًا وظاهرًا.

فكما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

وكذلك من عرف أسماء اللَّه ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء بل آمن بها إيمانًا مجملًا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء اللَّه وصفاته وآياته، كان إيمانه به أكمل.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٥٣٤/ ٣٠٤)، ومسلم (١/ ٨٧/ ٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه، يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها، أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب، أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه، أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن اللَّه حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة اللَّه، وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب دال على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم، دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ليس المخبر كالمعاين**»[1] فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه، ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر اللَّه، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أنه عند المعاينة، يحصل له من تصور المخبر به، ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق.

الخامس: أن أعمال القلوب، مثل محبة اللَّه ورسوله، وخشية اللَّه تعالى ورجائه، ونحو ذلك، هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلًا عظيمًا.

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة، هي أيضًا من الإيمان، والناس يتفاضلون فيها.

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره اللَّه به واستحضاره لذلك، بحيث لا يكون غافلًا عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر، والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمر بن حبيب من

---

(١) أخرجه: من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما أحمد (١/ ٢٧١)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٩٦/ ٦٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣٢١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

الصحابة: إذا ذكرنا اللّٰه وحمدناه وسبّحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه، وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه: «اجلسوا بنا ساعة نؤمن»، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[3] ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك، وعمل به، حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء اللّٰه وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك، كما في الأثر: «**من عمل بما علم ورّثه اللّٰه علم ما لم يعلم**»، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[4]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[5]، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملًا بذلك العلم، وتزيدهم تذكّرًا لما كانوا نسوه، وعملًا بتلك التذكرة، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[6]؛ أي: أن القرآن حق، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[7]، فإن اللّٰه شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمن به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدلّ على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[8] فالآيات المخلوقة والمتلوّة فيها تبصرة، وفيها تذكرة: تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان

---

(١) الكهف: الآية (٢٨).
(٢) الذاريات: الآية (٥٥).
(٣) الأعلى: الآيتان (١٠و١١).
(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٢٤٩/ ٦٤٠٧) بهذا اللفظ، وأخرجه: مسلم (١/ ٥٣٩/ ٧٧٩) بلفظ «مثل البيت الذي...»، كلاهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٥) الأنفال: الآية (٢).
(٦) فصلت: الآية (٥٣).
(٧) فصلت: الآية (٥٣).
(٨) ق: الآيات (٦-٨).

يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة، ثم كلما فعل شيئًا مما أمر به، استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه وإن لم يكن مكذبًا.

الثامن: أن الإنسان قد يكون مكذبًا ومنكرًا لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها، وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث، أو يتدبر ذلك، أو يفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبًا به، ويعرف ما كان منكرًا، وهذا تصديق جديد، وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرًا بل جاهلًا، وهذا وإن أشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليمًا عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك، فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج، وأما كثير من الناس، بل من أهل العلوم والعبادات، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول، وهم لا يعرفون أنها تخالف، فإذا عرفوا رجعوا، وكل من ابتدع في الدين قولًا أخطأ فيه، أو عمل عملًا أخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول، أو عرف ما قاله وآمن به، لم يعدل عنه، هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول، فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول، وعمل به، أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ، وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك»[1].

شبه المرجئة في هذه المسألة والرد عليهم

قال أبو الحسين الملطي في معرض رده على المرجئة: «ويقال لهم في قولهم: (إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص) ما تقولون فيمن آمن وهو بالله وبدينه عارف؟ ومن آمن وهو بالله وبدينه جاهل، فإن قالوا: هما سواء، تجاهلوا، وإن قالوا: (المؤمن العارف بالله وبدينه أفضل)، تركوا قولهم، وقالوا بالحق: إن الإيمان يزيد بالعمل

---

(١) الإيمان (ص: ٢١٩-٢٢٤).

والعلم، وينقص بنقص العلم والعمل.

ويقال لهم: هل تجعلون بين أهل المعصية، وأهل الطاعة فضلا؟ فإن قالوا: (لا فضل بينهم) تجاهلوا، وإن قالوا: (نعم) قيل لهم: ما الذي تجعلونه بينهم؟ فإن قالوا: (لأهل الطاعة الوعد والثواب، ولأهل المعصية الوعيد والعقاب) تركوا قولهم الخبيث وقالوا بالحق، وإن قالوا: (لا ندري) تجاهلوا.

ويقال لهم: ما تقولون في قول اللَّه -تبارك تعالى-: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] أليس عندكم من تصدق بدرهم فله عشر من الحسنات، ومن سرق درهما فعليه وزر درهم واحد، فإذا قالوا: (نعم) يقال لهم: فرجل سرق عشرة دراهم وتصدق منها بدرهم أليس له تسع حسنات وعنده تسع دراهم؟ فإن قالوا: (لا تجزئه صدقة من سرقة؛ لأن السرقة تحبط أجره) تركوا قولهم، وإن قالوا: (تجزئه) زعموا أن من سرق عشرة دراهم وتصدق بدرهم منها فله تسع حسنات وعنده تسع دراهم؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، وهذا ربح لا ربح بعده، مع أن على السارق لأموال الناس بسبب سرقته ذنوبا يعاقب عليها»[2].

هذا وقد استدلت المرجئة بمجموعة من الشبه ليؤيدوا بها مذهبهم الباطل الفاسد وفي استدلالاتهم **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم، وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة، وهذه طريقة أهل البدع، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: (أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس).

ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة، ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب

---

(١) الأنعام: الآية (١٦٠).

(٢) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص: ٤٦-٤٧)

الأدب، وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضًا، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار، فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء، إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع، وإذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل»[١].

فمن شبههم التي جرتهم إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص زعمهم أن الإيمان شيء واحد لا يتفاضل.

قال شيخ الإسلام: «وإنما أوقع هؤلاء -أي المرجئة- كلهم ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض، وأنه ينقص ولا يزول جميعه، كما قال النبي ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**»[٢]»[٣].

وقال أيضًا: «وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين[٤]، إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجبينا، قالوا: فإذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنا بما فيه من الإيمان كافرا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع، ولهذه الشبهة -والله أعلم- امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه، كأنه ظن إذا قال ذلك يلزم ذهابه كله، بخلاف ما إذا زاد»[٥].

وقال أيضًا: «وهؤلاء منتهى نظرهم أن يروا حقيقة مطلقة مجردة تقوم في أنفسهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٨-١١٩).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (١٣/ ٥١٧-٥١٩/ ٧٤٣٩)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣)، والترمذي (٤/ ٦١٥/ ٢٥٩٨)، والنسائي (٨/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٥٠٢٥)، وابن ماجه (١/ ٢٣/ ٦٠) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٨٢).

(٤) السكنجين: خليط من الخل والعسل.

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١١).

فيقولون: الإيمان من حيث هو هو، والسجود من حيث هو هو، لا يجوز أن يتفاضل، ولا يجوز أن يختلف وأمثال ذلك، ولو اهتدوا لعلموا أن الأمور الموجودة في الخارج عن الذهن متميزة بخصائصها، وأن الحقيقة المجردة المطلقة لا تكون إلا في الذهن، وأن الناس إذا تكلموا في التفاضل والاختلاف، فإنما تكلموا في تفاضل الأمور الموجودة واختلافها، لا في تفاضل أمر مطلق مجرد في الذهن لا وجود له في الخارج، ومعلوم أن السواد مختلف فبعضه أشد من بعض، وكذلك البياض وغيره من الألوان، وأما إذا قدرنا السواد المجرد المطلق الذي يتصوره الذهن فهذا لا يقبل الاختلاف والتفاضل، لكن هذا هو في الأذهان لا في الأعيان. . . ونحن نذكر ما يتعلق بهذا الموضع فنقول: -ولا حول ولا قوة إلا بالله- الكلام في طرفين:

أحدهما: أن شعب الإيمان هل هي متلازمة في الانتفاء؟.

والثاني: هل هي متلازمة في الثبوت؟.

أما الأول: فإن الحقيقة الجامعة لأمور -سواء كانت في الأعيان أو الأعراض- إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها، وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التسعة، فإذا زال أحد جزئي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون: زالت الصورة المجتمعة، وزالت الهيئة الاجتماعية، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

فيقال أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد: إن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعا. . . وأما زوال الاسم فيقال لهم: هذا أولا بحث لفظي، إذا قدر أن الإيمان له أبعاض وشعب، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**الإيمان بضع وسبعون**

شعبة، أعلاها قول لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» كما أن الصلاة والحج له أجزاء وشعب، ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب، كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصلاة زوال سائر الأجزاء.

فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصواب، ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله، وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت، يبقى النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الأجزاء؟ فيقال لهم: المركبات في ذلك على وجهين:

منها: ما يكون التركيب شرطا في إطلاق الاسم. ومنها: ما لا يكون كذلك، فالأول كاسم العشرة وكذلك السكنجبين.

ومنها: ما يبقي الاسم بعد زوال بعض الأجزاء وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب، وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء، فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك... ولفظ البحر والنهر يقال عليه وإن نقصت أجزاؤه، وكذلك المدينة والدار والقرية والمسجد ونحو ذلك، يقال على الجملة المجتمعة، ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم باق، وكذلك أسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقال على جملتها، فيدخل فيها الأغصان وغيرها، ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق، وكذلك لفظ الإنسان والفرس والحمار، يقال على الحيوان المجتمع الخلق، ثم يذهب كثير من أعضائه والاسم باق، وكذلك أسماء بعض الأعلام كزيد وعمرو يتناول الجملة المجتمعة ثم يزول بعض أجزائها والاسم باق، وإذا كانت المركبات على نوعين، بل غالبها من هذا النوع، لم يصح قولهم: إنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم، إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي، ومعلوم أن اسم الإيمان من هذا الباب، فإن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان...

الأصل الثاني: أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله،

أوجب بغض أعداء اللَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[١] وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٢] وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي وأنزل اللَّه فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[٣]. . . ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك، صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك. . . وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»[٤]، ومنه قوله: «**من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا**»[٥]، فإن صيغة أنا و نحن ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي والمؤمنين معه الإيمان المطلق الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب، ومن هنا قيل: إن الفاسق الملي يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمنا باعتبار، وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلما لا مؤمنا، ولا منافقا مطلقا، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة، ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ﷺ: «**ليس منا**» ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال هذا تفسير المرجئة، وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون

---

(١) المائدة: الآية (٨١). (٢) المجادلة: الآية (٢٢).

(٣) الممتحنة: الآية (١).

(٤) الحديث أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٦)، والبخاري (١٢/ ١٣٦/ ٦٨١٠)، ومسلم (١/ ٧٦/ ٥٧)، وأبو داود (٥/ ٦٤-٦٥/ ٤٦٨٩)، والترمذي (٥/ ١٦-١٧/ ٢٦٢٥)، والنسائي (٨/ ٤٣٥-٤٣٦/ ٤٨٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨-١٢٩٩/ ٣٩٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧)، ومسلم (١/ ٩٩/ ١٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مثل النبي ﷺ وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية، ويستحق الخلود في النار تأويل منكر كما تقدم فلا هذا ولا هذا»[١].

ومن شبههم أيضًا قولهم: إن الزيادة والنقصان لا يدخلان إلا في شيء مخلوق، فمن قال: إن الإيمان يزيد وينقص، فالإيمان إذا عنده مخلوق[٢].

قال الذهبي: «قال المروذي: ورد علي كتاب من ناحية شيراز أن فضلك قال بناحيتهم: إن الإيمان مخلوق. فبلغني أنهم أخرجوه من البلد بأعوان. **قلت**: -أي الذهبي- هذه من مسائل الفضول، والسكوت أولى، والذي صح عن السلف وعلماء الأثر أن الإيمان قول وعمل، وبلا ريب أن أعمالنا مخلوقة، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] فصح أن بعض الإيمان مخلوق، وقولنا لا إله إلا اللَّه فمن إيماننا، فتلفظنا بها أيضًا من أعمالنا، وأما ماهية الكلمة الملفوظة، فهي غير مخلوقة؛ لأنها من القرآن، أعاذنا اللَّه من الفتن والهوى»[٤].

وقال أيضًا: «لا يجوز أن يقال: الإيمان والإقرار والقراءة والتلفظ بالقرآن غير مخلوق، فإن اللَّه خلق العباد وأعمالهم، والإيمان: فقول وعمل، والقراءة والتلفظ من كسب القارئ، والمقروء الملفوظ هو كلام اللَّه ووحيه وتنزيله، وهو غير مخلوق، وكذلك كلمة الإيمان، وهي قول: (لا إله إلا اللَّه محمد رسول الله) داخلة في القرآن، وما كان من القرآن فليس بمخلوق، والتكلم بها من فعلنا وأفعالنا مخلوقة»[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد بالإيمان؟ أتريد به شيئًا من صفات اللَّه وكلامه؟ كقوله لا إله إلا اللَّه، و إيمانه الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق، أو تريد شيئًا من أفعال العباد وصفاتهم، فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٢-٥٢٥).

(٢) زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق البدر (ص: ٣٧٨).

(٣) الصافات: الآية (٩٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣٠).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٩-٤٠).

يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدي وبان السبيل»[١].

ومن شبههم قولهم: إن الإيمان إنما يزيد بغلبته على ضده، وينقص بغلبة ضده عليه، قالوا: والإيمان لا يحصل إلا بعد الغلبة على الكفر فلا يضامه حتى يقال: إنه يغلب عليه[٢].

قال شيخ الإسلام: «ومن العجب أن الأصل الذي أوقعهم في هذا، اعتقادهم أنه لا يجتمع في الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر، أو ما هو إيمان وما هو كفر، واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين، كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره، فلأجل اعتقادهم هذا الإجماع وقعوا فيما هو مخالف للإجماع الحقيقي، إجماع السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة، بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم في الإيمان، ولهذا نظائر متعددة، يقول الإنسان قولا مخالفا للنص والإجماع القديم حقيقة، ويكون معتقدا أنه متمسك بالنص والإجماع»[٣].

وقال أيضًا: وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق، وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[٤]»[٥].

قلت: روى الإمام ابن بطة بسنده عن سلام بن أبي مطيع قال: شهدت أيوب وعنده رجل من المرجئة فجعل يقول: إنما هو الكفر والإيمان، قال: وأيوب ساكت، قال: فأقبل عليه أيوب، فقال: أرأيت قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٦] أمؤمنون أم كفار؟ فسكت الرجل، فقال له أيوب: اذهب فاقرأ القرآن فكل آية فيها ذكر النفاق فإني أخافها على نفسي»[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤).
(٢) زيادة: الإيمان ونقصانه (ص: ٣٨٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٤-٤٠٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩)، والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٢٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٠).
(٦) التوبة: الآية (١٠٦).
(٧) الإبانة [كتاب: الإيمان] (٢/ ٧٥٤).

ومن شبههم ما يعتمدون عليه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي توافق أهواءهم ومذهبهم ومنها على سبيل المثال:

حديث أبي هريرة: أن وفد ثقيف جاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن الإيمان هل يزيد أو ينقص؟ قال: «**لا، زيادته كفر، ونقصانه شرك**»[١].

قال ابن الجوزي: «هذا حديث موضوع بلا شك، وهو من وضع أبي مطيع واسمه الحكم بن عبد اللَّه، قال أحمد بن حنبل: لا ينبغي أن يروى عنه شيء، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال أبوحاتم الرازي: كان أبو مطيع كذابا»[٢].

قال ابن حبان: «كان من رؤساء المرجئة، ممن يبغض السنن ومنتحليها»[٣].

قال ابن الجوزي: «قلت: في هذا الحديث أبو المهزم وقد سبق أنه كذاب وقد سرق هذا الحديث من أبي مطيع»[٤].

حديث سالم عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**الإيمان لا يزيد ولا ينقص**»[٥].

قال ابن الجوزي: «هذا حديث موضوع من موضوعات أحمد بن عبد اللَّه الجويباري وهو الشيباني، وهو الهروي، قال أبو أحمد ابن عدي: كان يضع الحديث لابن كرام على ما يريده، وكان ابن كرام يضعها في كتبه عنه»[٦].

قال الجوزقاني: «هذا حديث موضوع باطل، وليس له أصل، وهو من موضوعات أحمد بن عبد اللَّه الجويباري، وأحمد بن عبد اللَّه هذا كان خبيثا دجالا من الدجاجلة، كذابا، يروي عن ابن عيينة ووكيع وأبي ضمرة وغيرهم من ثقات أصحاب الحديث، ويضع عليهم ما لم يحدثوا، وقد روى عن هؤلاء الأئمة ألوف حديث ما حدثوا بشيء منها، كان يضعها عليهم، لا يحل ذكره في الكتب

---

(١) رواه: الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (ص: ٢٦-٢٧)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٣٠-١٣١)، وأورده السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٨)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٠٤)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ١٤٩).

(٢) الموضوعات (١/ ١٣١).

(٣) المجروحين (١/ ٢٥٠).

(٤) الموضوعات (١/ ١٣١).

(٥) رواه: الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (ص: ٢٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٣١-١٣٢)، وأورده السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٩)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ١٤٩).

(٦) الموضوعات (١/ ١٣٢).

إلا على سبيل الجرح فيه»[١].

وقال ابن حبان: «دجال من الدجاجلة كذاب»[٢].

قال ابن القيم: «وكل حديث فيه أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فكذب مختلق، وقابل من وضعها طائفة أخرى فوضعوا أحاديث على رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**الإيمان يزيد وينقص**»، وهذا كلام صحيح وهو إجماع السلف، حكاه الشافعي وغيره، ولكن هذا اللفظ كذب على رسول اللَّه ﷺ وهذا مثل إجماع الصحابة والتابعين، وجميع أهل السنة وأئمة الفقه على أن القرآن كلام اللَّه منزل غير مخلوق، وليست هذه الألفاظ حديثًا عن رسول اللَّه ﷺ ومن روى ذلك عنه فقد غلط»[٣].

* * *

---

(١) الأباطيل والمناكير (ص: ٢٦).

(٢) المجروحين (١/ ١٤٢).

(٣) المنار المنيف (ص: ٩٥-٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: التوكل على الله: تفويض الأمر إليه في جميع الأمور»[١].

قال السعدي: «التوكل: هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد، ولا تكمل إلا به»[٢].

قال ابن عطية: «قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة، إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، وينتظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره، وهذه أوصاف جميلة، وصف اللّه بها فضلاء المؤمنين فجعلها غاية للأمة يستبق إليها الأفاضل»[٣].

قال ابن كثير: «أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على اللّه جماع الإيمان»[٤].

قال الرازي: «هذا الكلام يفيد الحصر، ومعناه أنهم لا يتوكلون إلا على ربهم، وهذه الحالة مرتبة عالية ودرجة شريفة، وهي أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في أمر من الأمور إلا على الله»[٥].

قال محمد رشيد رضا: «أي يتوكلون على ربهم وحده، لا يتوكلون على غيره

(١) فتح القدير (٢/ ٤٠١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٣).
(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٥٠١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢).
(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٢٤).

ولا يفوضون أمورهم إلى سواه ﷻ كما أفاده تركيب الجملة. وعن ابن عباس قال: لا يرجون غيره. والتوكل أعلى مقامات التوحيد، فإن من كان موقنا بأن ربه هو المدبر لأموره وأمور العالم كلها لا يمكن أن يكل شيئًا منها إلى غيره، ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للإنسان كسبا اختياريا كلفه اللَّه العمل به، وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن اللَّه تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقدا أن الأسباب ما يعقل منها الإنسان، وما لا يعقل لم تكن أسبابا إلا بتسخير اللَّه تعالى، وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسبابا، وعلمه ذلك. وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على اللَّه وحده، وإليه يتوجه، وإياه يدعو فيما يطلبه منه، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن اللَّه تعالى في الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل باللَّه وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول. ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجه[1] عليه ولا يطلب من غيره شيئًا، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع عن الاختلاف إلى المائدة مع أمثاله زاعما أن هذا عصيان لأمر الملك في التعويل عليه، وانتظر أن يرسل إليه طعاما خاصا -أي أنه يطلب من ربه أن يبطل سننه في خلقه لأجله- فما أعظم جهله وغروره به؟»[2].

قال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أشياء... منها وجوب التوكل عليه، والتوكل على ضربين، منها في الدنيا، ومنها في الدين، أما في الدنيا فلا بد من خصال:

منها: أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذي أتيح له، ولا يطلب محرما.

ومنها: إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرم.

ومنها: أن لا يظهر الجزع عند الضيق، بل يسلك فيه طريق الصبر، واعتقاد أن ما هو فيه مصلحة له.

---

(١) حاجِّه: جمع حاجة.

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٩٢-٥٩٣).

ومنها: أن لا يحبسه عن حقوقه خشية الفقر.

ومنها: ألا يسرف في النفقة ولا يقتر، فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلا، فأما الذي يزعم بعضهم؛ أن التوكل إهمال النفس، وترك العمل فليس بشيء، وقد أمر اللَّه تعالى بالإنفاق، وبالعمل، وثبت عن الصحابة -وهم سادات الإسلام- التجارة والزراعة والأعمال، كذلك التابعين وبهذا أجرى اللَّه العادة، وقد أمر النبي ﷺ الأعرابي «**أن يعقل ناقته ويتوكل**»[١].

فأما التوكل في الدين فخصال:

منها: أن يقوم بالواجبات، ويجتنب المحارم؛ لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة.

ومنها: أن يسأله التوفيق والعصمة.

ومنها: أن يرى جميع نعمه منه، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه.

ومنها: أن لا يثق بطاعته جملة، بل يطيع، ويجتنب المعاصي، ويرجو رحمة ربه، ويخاف عذابه. فعند ذلك يكون متوكلا»[٢].

قال ابن عاشور: «جعلت فعلًا مضارعًا للدلالة على تكرر ذلك منهم، ووصفهم بالتوكل على اللَّه وهو الاعتماد على اللَّه في الأحوال والمساعي ليقدر للمتوكل تيسيرًا مرة ويعوضه عن الكسب المنهي عنه بأحسن منه من الحلال المأذون فيه. وتقدم تفسير التوكل عند قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

ومناسبة هذا الوصف للغرض: أنهم أمروا بالتخلي عن الأنفال، والرضى بقسمة الرسول ﷺ فيها، فمن كان قد حرم من نفل قتيله يتوكلُ على اللَّه في تعويضه بأحسن منه.

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إما للرعاية على الفاصلة فهو من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم اللَّه، وإما للتعريض بالمشركين؛ لأنهم يتوكلون على إعانة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٢) محاسن التأويل (٨/ ١٢-١٣).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٩).

ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[(١)] فيكون الكلام مدحًا للمؤمنين، وتعريضًا بذم المشركين، ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به، لتوهمهم أنهم إذا فوّتوه فقد أضاعوا خيرًا من الدنيا»[(٢)].

قال أبو حيان: «وترتيب هذه المقامات أحسن ترتيب، فبدأ بمقام الخوف إما خوف الإجلال والهيبة، وإما خوف العقاب، ثم ثانيا بالإيمان بالتكاليف الواردة، ثم ثالثا بالتفويض إلى اللَّه والانقطاع إليه، ورخص ما سواه»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقيقة التوكل

* عن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[(٤)].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «وذلك لأن عقلها لا ينافي التوكل الذي هو الاعتماد على اللَّه وقطع النظر عن الأسباب مع تهيئتها، وفيه بيان فضل الاحتياط والأخذ بالحزم»[(٥)].

قال ابن الجوزي: قال ابن عقيل يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب وإطراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر اللَّه بالتوكل

---

(١) مريم: الآية (٨١). (٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٩).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٥٥).

(٤) أخرجه: البيهقي في شعب: الإيمان (٢/ ٨٠/ ١٢١٠)، وابن حبان (٢/ ٥١٠/ ٧٣١ الإحسان)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، وقال الذهبي: «سنده جيد». وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٣) وقال: «رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح، غير يعقوب بن عبداللَّه بن أمية وهو ثقة». وكذا قال الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث مشكلة الفقر (ص: ٢٣). وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٨): «قال الزركشي: .. إسناده صحيح. وقال الزين العراقي: رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد».
وأخرجه من حديث أنس ﷺ: الترمذي (٤/ ٥٧٦/ ٢٥١٧)، وقال: قال عمرو بن علي، قال يحيى: (وهذا عندي حديث منكر). قال أبو عيسى: «وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا». وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٤) وفي تخريج أحاديث مشكلة الفقر رقم (٢٢) وقال: «وحديث الضمري خير من هذا إسنادا».

(٥) فيض القدير (٢/ ٨).

إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] فلو كان التعلق بالاحتياط قادحا في التوكل لما خص الله به نبيه حين قال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو، ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم واجتهادهم حتى نص عليه، وجعله عملا في نفس الصلاة، وهي أخص العبادات، فقال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾[2] وبين علة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[3] ومن علم أن الاحتياط هكذا لا يقال: أن التوكل عليه ترك ما علم، لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة، قال عليه الصلاة والسلام: «**اعقلها وتوكل**». ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال وهي حالة الصلاة، وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإن موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[4] خرج، ونبينا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبوبكر رضي الله عنه بسد أثقاب الغار، وأعطى القوم التحرز حقه ثم توكلوا، وقال عز وجل في باب الاحتياط: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾[5] وقال: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾[6] وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾[7] وهذا لأن الحركة للذب عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى، وكما أن الله تعالى يريد إظهار نعمة المبدأة يريد إظهار وداعه، فلا وجه لتعطيل ما أودع اعتمادا على ما جاد به، لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده، وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عدة وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب، وخلق للآدمي عقلا يقوده إلى حمل الأسلحة، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع، ومن عطل نعمة الله بترك الاحتراز فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعا أو مرضا. ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء، إنما ينبغي أن تكون

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) النساء: الآية (١٠٢).

(٣) النساء: الآية (١٠٢).

(٤) القصص: الآية (٢٠).

(٥) يوسف: الآية (٥).

(٦) يوسف: الآية (٦٧).

(٧) الملك: الآية (١٥).

أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق منع أو أعطى؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق ﷻ لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة فمنعه عطاء في المعنى، وكم زين للعجزة عجزهم، وسولت لهم أنفسهم أن التفريط توكل، فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة والخور حزما، ومتى وضعت أسباب فأهملت كان ذلك جهلا بحكمة الواضع. مثل وضع الطعام سببا للشبع، والماء للري، والدواء للمرض، فإذا ترك الإنسان ذلك إهوانا بالسبب ثم دعا وسأل فربما قيل له: قد جعلنا لعافيتك سببا، فإذا لم تتناوله كان إهوانا لعطائنا، فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك للسبب، وما هذا إلا بمثابة من بين قراحه[1] وماء الساقية رفسه بمسحاة فأخذ يصلي صلاة الاستسقاء طلبا للمطر فإنه لا يستحسن منه ذلك شرعا ولا عقلا»[2].

قال ابن قيم الجوزية: «اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله اللَّه سببا في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه اللَّه سببا. ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء. فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع. وإن لم يقدر لم يحصل. توكل أيضًا أو ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة. لا فائدة لهما إلا ذلك. ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له. ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة. إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء -في كتاب له- لا يجوز الدعاء بهذا. وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء. قال: لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء. والشك في وقوع ذلك: شك في خبر اللَّه. فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم، وتحريم الدعاء بما أثنى اللَّه على عباده وأوليائه بالدعاء به، وبطلبه. ولم يزل المسلمون -من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن- يدعون به في مقامات الدعاء. وهو من أفضل الدعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل، أن يقال: بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين

(١) القراح من الأرض: التي ليس بها شجر ولم يختلط بها شيء.

(٢) تلبيس إبليس (ص: ٣٤٢-٣٤٤).

لم تذكروه. وهو الواقع. وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء. فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب. وقضى اللَّه بحصوله إذا فعل العبد سببه. فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب. وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يجامع لم يخلق الولد.

وقضى بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات: لم يدخلها أبدا.

وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها، فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوزان ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد، والشبع، والري، والحج ونحوها فلا بد أن يصل إلي، تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضًا، فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه باللَّه لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة اللَّه وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية، واللَّه ﷻ أعلم»[١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٨-١٢٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن المراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن، ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال الظاهر، ورأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة وبذل المال في مرضاة الله»[١].

قال ابن كثير: «ينبه بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق اللَّه تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم اللَّه يشمل خراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال اللَّه، فأحبهم إلى اللَّه أنفعهم لخلقه»[٢].

قال الشوكاني: «وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة، من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر، وفي معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور في مناجاة الرحمن، وتدبر واتعاظ بتلاوة القرآن، وتقدم أن هذه الإقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ما جعله اللَّه تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر..

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ١٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢).

(٣) فتح القدير (٢/ ٤٠١-٤٠٢).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾أي وينفقون بعض ما رزقهم اللّه في وجوه البر، من زكاة مفروضة لإقامة دولة الإسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الأمة»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٩٣-٥٩٤).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها المؤمنون إيمانا حقا أو حق الإيمان الذي لا نقص فيه، أو حق ذلك حقا أو حققته حقا، ذلك بأن الإيمان حق الإيمان، هو ما أعقب التصديق الإذعاني فيه أثره من أعمال القلوب والجوارح، وبذل المال في سبيل اللَّه ﷻ. وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تتبعها سائر شعب الإيمان»[(٢)].

قال ابن عاشور: «هذه الجملة قصر آخر يشبه القصر الذي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[(٣)]، حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور وهو أنهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان.

والحق أصله مصدر حَق بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شك فيه قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[(٤)]. ويطلق كثيرًا على الكامل في نوعه، الذي لا سترة في تحقق ماهية نوعه فيه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حَقًا، وليس يريد أن غيره من أبنائه ليسوا رشدة، ولكنه يريد أنت بنوتك واضحة آثارها، ويطلق الحق على الصواب والحكمة، فاسم الحق يجمع معنى كمال النوع.

ولكل صيغة قصر منطوق ومفهوم، فمنطوقها هنا أن الذين جَمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقًا، ومفهومها أن من انتفى عنه أحدُ مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنًا كاملًا، وليس المقصود أن من ثبتت له إحداها كان مؤمنًا كاملًا، إذا لم يتصف ببقية خصال المؤمنين الكاملين، فمعنى أولئك هم المؤمنون

---

(١) الأنفال: الآية (٤).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٩٤).

(٣) الأنفال: الآية (٢).

(٤) النساء: الآية (١٢٢).

حقا: أن من كان على خلاف ذلك ليس بمؤمن حقا أي كاملًا.

وهذا تأويل للكلام دعا إليه الجمع بين عديد الأدلة الواردة في الكتاب والسنة القولية والفعلية من ثبوت وصف الإيمان لكل من أيقن بأن اللّٰه منفرد بالإلهية وأن محمدًا رسول اللّٰه إلى الناس كافة، فتلك الأدلة بلغت مبلغ التواتر المعنوي المحصّل للعلم الضروري.. فليس حمل القصر على الادعائي هنا مجردَ صنع باليد، أو ذهاب مع الهوى على أن شأن الاتصاف ببعض صفات الفضائل أن يتناسق مع نظائِرها، فمن كان بحيث إذا ذكر اللّٰه وجل قلبه لا بد أن يكون بحيث إذا تُليت عليه آيات اللّٰه زادته إيمانًا، فهذا تحقيق معنى القصرين»[١].

قال السعدي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق اللّٰه وحقوق عباده، وقدم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح، وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب اللّٰه تعالى والتأمل لمعانيه»[٢].

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا سئل هل هو مؤمن أم لا؟ فعليه أن يقول: أنا مؤمن إن شاء اللّٰه، ولا يقول: أنا مؤمن حقا، وهذا هو الذي اصطلح عليه العلماء بالاستثناء في الإيمان، وهذا اختلف الناس فيه على أقوال.

قال أبو المظفر السمعاني: «وفيه دليل لأهل السنة على أنه لا يجوز لأحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنا حقا؛ لأن اللّٰه تعالى إنما وصف بذلك قوما مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق في نفسه وجود تلك الأوصاف»[٣].

قال شيخ الإسلام: «الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال:

قول: أنه يجب الاستثناء، ومن لم يستثن كان مبتدعا.

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٦١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٣-١٤٤).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ٢٤٨).

وقول: إن الاستثناء محظور، فإنه يقتضي الشك في الإيمان.

والقول الثالث أوسطها وأعدلها: أنه يجوز الاستثناء باعتبار، وتركه باعتبار، فإذا كان مقصوده: إني لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب اللَّه علي، وأنه يقبل أعمالي، ليس مقصوده الشك فيما في قلبه، فهذا استثناؤه حسن، وقصده أن لا يزكي نفسه، وأن لا يقطع بأنه عمل عملا كما أمر فقبل منه، والذنوب كثيرة، والنفاق مخوف على عامة الناس، قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه، لا يقول واحد منهم: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل. والبخاري في أول صحيحه بوب أبوابا في الإيمان والرد على المرجئة، وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة، قال: وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، قال محمد: لأنهم أفضل يقينا، أو إيماني كإيمان جبريل، أو إيماني كإيمان أبي بكر، أو كإيمان هذا، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر. وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه، ويذمون المرجئة، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحارم، بل يكتفون بالإيمان، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط؛ لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده، كما قالوا في قوله: أنت طالق إن شاء الله؛ فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط، قالوا وشرط المشيئة الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد، فلا معنى للاستثناء، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام، فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمنا، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق، وذلك يزيله، قلت فتعليلهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة، كالذي يريد الدخول في الإسلام، فيقال له آمن، فيقول أنا أومن إن شاء اللَّه، أو آمنت إن شاء اللَّه، أو أسلمت إن شاء اللَّه، أو أشهد إن شاء اللَّه أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد إن شاء اللَّه أن محمدًا رسول اللَّه، والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء، وإنما كان استثناؤهم في إخباره عما قد حصل له من الإيمان، فاستثنوا إما أن الإيمان المطلق يقتضي دخول الجنة، وهم

لا يعلمون الخاتمة، كأنه إذا قيل للرجل: أنت مؤمن قيل له: أنت عند اللَّه مؤمن من أهل الجنة، فيقول: أنا كذلك إن شاء اللَّه، أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب. ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له أنت مؤمن، آمنت باللَّه وملائكته وكتبه، فيجزم بهذا ولا يعلقه، أو يقول: إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن، وإن كنت تريد قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝﴾[2] فأنا مؤمن إن شاء اللَّه، وأما الإنشاء فلم يستثن فيه أحد، ولا شرع الاستثناء فيه، بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزما بلا تعليق، فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظيا، فإن الذي حرمه هؤلاء غير الذي استحسنه وأمر به أولئك، ومن جزم جزم بما في قلبه من الحال، وهذا حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة، ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الإيمان، فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك. . . وما أعرف أحدا أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء اللَّه، أنا أومن بعد ذلك، فهذا لم يصر مؤمنا، مثل الذي يقال له: هل تصير من أهل دين الإسلام؟ فقال: أصير إن شاء اللَّه، فهذا لم يسلم بل هو باق على الكفر، وإن كان قصده أني قد آمنت وإيماني بمشيئة اللَّه صار مؤمنا، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنشاء، وأيضًا: فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم، كيف وقد أمروا أن يقولوا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[4] فأخبر أنهم آمنوا فوقع الإيمان منهم قطعا بلا استثناء.

وعلى كل أحد أن يقول: آمنا باللَّه وما أنزل إلينا، كما أمر اللَّه بلا استثناء، وهذا

---

(١) الأنفال: الآيات (٢-٤).

(٢) الحجرات: الآية (١٥).

(٣) البقرة: الآية (١٣٦).

(٤) البقرة: الآية (٢٨٥).

متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن، كما يخبر عن نفسه بأنه بر تقي، فقول القائل له: أنت مؤمن، هو عندهم كقوله: هل أنت بر تقي؟ فإذا قال: أنا بر تقي، فقد زكى نفسه، فيقول: إن شاء اللَّه، وأرجو أن أكون كذلك، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول اللَّه له، وجزاؤه عليه، وكتابة الملك له، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة، بل يقال: هذا حاصل بمشيئة اللَّه وفضله وإحسانه، وقوله فيه: إن شاء اللَّه بمعنى إذ شاء اللَّه، وذلك تحقيق لا تعليق والرجل قد يقول: واللَّه ليكونن كذا إن شاء اللَّه، وهو جازم بأنه يكون، فالمعلق هو الفعل، كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] واللَّه عالم بأنهم سيدخلونه، وقد يقول الآدمي لأفعلن كذا إن شاء اللَّه، وهو لا يجزم بأنه يقع، لكن يرجوه، فيقول: يكون إن شاء اللَّه، ثم عزمه عليه قد يكون جازما، ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه، وقد يكون العزم مترددا معلقا بالمشيئة أيضًا، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقا، لزم تعليق بقاء العزم، فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواما في مثل ذلك، ولهذا لم يحنث المطلق المعلق، وحرف «إن» لا يبقي العزم، فلابد إذا دخل على الماضي صار مستقبلا، تقول إن جاء زيد كان كذلك، ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾[2] وإذا أريد الماضي دخل حرف «إن» كقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾[3] فيفرق بين قوله: أنا مؤمن إن شاء اللَّه، وبين قوله: إن كان اللَّه شاء إيماني، وكذلك إذا كان مقصوده أني لا أعلم بماذا يختم لي، كما قيل لابن مسعود: إن فلانا يشهد أنه مؤمن، قال: فليشهد أنه من أهل الجنة. فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند اللَّه يموت على الإيمان، وكذلك إن كان مقصوده أن إيماني حاصل بمشيئة اللَّه، ومن لم يستثن قال: أنا لا أشك في إيمان قلبي فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه، ويقطع بأنه عامل كما أمر، وقد تقبل اللَّه عمله، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل، وأبي بكر وعمر، ونحو ذلك من أقوال المرجئة، كما كان مسعر بن كدام يقول: أنا لا أشك في إيماني، قال أحمد: ولم يكن من المرجئة، فإن المرجئة الذين يقولون:

---

(١) الفتح: الآية (٢٧). (٢) البقرة: الآية (١٣٧).
(٣) آل عمران: الآية (٣١).

الأعمال ليست من الإيمان، وهو كان يقول: هي من الإيمان لكن أنا لا أشك في إيماني»[١].

فتحرير هذه المسألة -يقول المعلمي- أن هناك ثلاث قضايا:

الأولى: اعتقادك ثبوت كل أمر من الأمور التي ترى أن اعتقاد ثبوت جميعها هو الإيمان الذي لا بد منه.

الثانية: اعتقادك أنك جازم بكل واحد من تلك الأمور الجزم الكافي عند اللَّه ﷻ.

الثالثة: اعتقادك أنك واف بجميع الأمور الضرورية للإيمان في نفس الأمر، من اعتقاد وقول وفعل وترك. فمن قيل له أمؤمن أنت؟ فقال أرجو، أو: إن شاء اللَّه، فهذا يتعلق بالقضية الثالثة كما لا يخفى، ولا يجب تعلقه بالقضية الثانية، فأما الأولى فبعيد عنها»[٢].

قلت: ما عند الإنسان وما هو في مقدوره وقد أنجزه فهو جازم به، ولا يحتاج في ذلك إلى مشيئة. وأما ما عند اللَّه من كمال في الفعل أو القول فهذا إن استثنى فيه فلا بأس، فمن صلى صلاته وأكملها بشروطها وفرائضها فلا يحتاج فيه إلى مشيئة، وأما من حيث القبول عند اللَّه فيحتاج إلى مشيئة. وكذلك الموت على الإيمان ودخول الجنة والنظر إلى وجه اللَّه يحتاج إلى مشيئة. وهكذا كل عمل يكون في المستقبل واللَّه تعالى هو الذي يتولاه فهذا فيه المشيئة، والأمر واضح جدًّا فالاستثناء إن وقع في محله لا يدل على الشك، وإن وقع في غير محله فهو على الشك، وما أطلقه اللَّه نطلقه، وما قيده نقيده، فالدخول إلى الإسلام لا يجوز فيه الشك، ولا يقال: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه إن شاء الله»؛ فلا بد من الجزم. وهكذا كل عمل مثله، فلا يُلجأ فيه إلى الاستثناء. فالغلو في الاستثناء ضلال، وتحريمه في محله جهل، وكثير من الخلافات الكلامية إنما هي نتيجة للبعد عن النصوص من الكتاب والسنة.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠-٤٧).

(٢) التنكيل (٢/ ٣٩٧-٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ لهؤلاء المؤمنين الذين وصف -جل ثناؤه- صفتهم، درجات وهي مراتب رفيعة.

ثم اختلف أهل التأويل في هذه الدرجات التي ذكر اللّه أنها لهم عنده ماهي؟ فقال بعضهم: هي أعمال رفيعة، وفضائل قدموها في أيام حياتهم..

وقال آخرون: بل ذلك مراتب في الجنة..

وقوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ يقول: وعفو عن ذنوبهم، وتغطية عليها(﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ قيل: الجنة، وهو عندي ما أعد اللّه في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش»[١].

قال ابن عطية: «ظاهره قول الجمهور: أن المراد مراتب الجنة ومنازلها، ودرجتها على قدر أعمالهم»[٢].

قال السعدي: «ذكر ثواب المؤمنين حقا فقال: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وهو ما أعد اللّه لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان -وإن دخل الجنة- فلن ينال ما نالوا من كرامة اللّه التامة»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «بين تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكملة فقال: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الدرجات: منازل الرفعة، ومراقي الكرامة، وكونها عند الرب تعالى، وذكره مضافا إلى ضميرهم تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٨٠-١٨١).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٥٠١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٤).

لأهلها، فإن اللّه تعالى فضل بعض الناس، ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة، وعند الرب ﷻ، وهذا الأخير وإن كان يكون في الآخرة فإن وصفه بكونه عند الرب وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص.

وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات في التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوي الرجال والنساء في الحقوق ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1] وهي درجة الولاية العامة والخاصة. وقوله تعالى في فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]..

وقال في درجات الدنيا وحدها وهي آخر آية من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[3]، وقال في درجات الدار الآخرة بعد بيان التفاضل في الرزق بين الكفار مريدي الدنيا وحدها والمؤمنين مريدي الآخرة ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[4]. وجملة القول: أن اللّه خلق البشر متفاوتين في الاستعداد والعقول والأعمال، واقتضى ذلك بنظام سننه في خلقه، تفضيل بعضهم على بعض درجات في الدنيا وفي الآخرة، وفي المكانة عند ربهم، وهذه الأخيرة عليا الدرجات وأفضلها»[5].

قال الرازي: «فإن قيل: أليس المفضول إذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل، وحرمانه عنها، فإنه يتألم قلبه، ويتنغص عيشه، وذلك مخل بكون الثواب رزقا كريما؟ والجواب: أن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به تمنعه من حصول الحقد والحسد، وبالجملة فأحوال الآخرة لا تناسب أحوال الدنيا إلا بالاسم.. فإن قال قائل: ظاهر الآية يدل على أن الموصوف بالأمور الخمسة محكوم عليه بالنجاة من العقاب وبالفوز بالثواب، وذلك يقتضي أن لا تكليف على

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٨).
(٢) النساء: الآيتان (٩٥-٩٦).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٤) الإسراء: الآية (٢١).
(٥) تفسير المنار (٩/ ٥٩٤-٥٩٦).

العبد فيما سوى هذه الخمسة، وذلك باطل بإجماع المسلمين؛ لأنه لا بد من الصوم والحج وأداء سائر الواجبات.

قلنا: إنه تعالى بدأ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] وجميع التكاليف داخل تحت هذين الكلامين، إلا أنه تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة على التعيين، تنبيهًا على أن أشرف الأحوال الباطنة التوكل، وأشرف الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات أهل الجنة

* عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول اللّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا باللّه وصدقوا المرسلين**»[3].

★ غريب الحديث:

يتراءون: المعنى: أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى إن أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم. وقد بين ذلك في الحديث بقوله: «**لتفاضل ما بينهم**»[4].

الدري: هو النجم الشديد الإضاءة. وقيل: شبّه بالدر لشدة صفائه وكونه أرفع من باقي النجوم.

الغابر: ورد في رواية البخاري ومسلم: «**الغابر**»، وعند غير مسلم: «**الغارب**»، وروي: «**العازب**»، وكلها راجعة إلى معنى واحد وهو البعد في الأفق.

★ فوائد الحديث:

قال الملا علي القاري: «قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها

---

(١) الأنفال: الآية (٢).
(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٢٨-١٢٩).
(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٩٤/ ٣٢٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣١).
(٤) الفتح (٦/ ٤٠٣).

غيرهم. قال: «بلى»: أي يبلغها غيرهم من الأولياء، ويشاركها معهم بعض الأصفياء «والذي نفسي بيده رجال»: أي وهم رجال، أو يبلغها رجال أي كاملون في الرجولية لقوله تعالى: (﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] الآية. «آمنوا بالله»: أي حق الإيمان، وغاية الإيقان، ونهاية الإحسان، «وصدقوا المرسلين»: في إجابة ما أمروا به ونهوا عنه، وقاموا بوصف الصابرين والشاكرين، وترفعوا إلى مقام الراضين. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2]، إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[3] الآية. وفي جمع المرسلين إشعار بأن هذه المرتبة العلية عامة للسابقين على حسب تفاوتهم في الرتب السنية، وليست خاصة لهذه الأمة، مع أن تصديق المرسلين على وجه التحقيق إنما هو لهذه الجماعة، نعم قد يراد به مقابلة الجمع للجمع، فالمراد رسوله خاصة بالأصالة، وسائر الرسل بالتبعية، فإنه يلزم من التصديق بالواحد التصديق بالكل، وكذا في جانب التكذيب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4]»[5].

قال ابن القيم في نونيته في ذكر صفة الجنة ومنازلها:

درجاتها مائة وما بين اثنتيـ ... ـن فذاك في التحقيق للحسبان
مثل الذي بين السماء وبين هذي ... الأرض قول الصادق والبرهان
لكن عاليها هو الفردوس مسـ ... ـقوف بعرش الخالق الرحمن
وسط الجنان وعلوها فلذاك كا ... نت قبة من أحسن البنيان
منه تفجر سائر الأنهار فالـ ... ـينبوع منه نازل بجنان[6]

قال الشيخ محمد خليل هراس شارحًا هذا المقطع: «هذا بيان لدرجات الجنة ومنازلها، وهي من الكثرة والتفاوت بحيث لا يعلم عظمها وتباهيها إلا الله ﷻ قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[7] وقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

(١) النور: الآية (٣٧).
(٢) الفرقان: الآية (٦٣).
(٣) الفرقان: الآية (٧٥).
(٤) الشعراء: الآية (١٠٥).
(٥) مرقاة المفاتيح (٩/ ٥٩٢).
(٦) شرح نونية ابن القيم للهراس (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).
(٧) آل عمران: الآية (١٦٣).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول اللَّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**» ولهما أيضًا من حديث سهل بن سعد: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرفة في الجنة كما ترون الكوكب في أفق السماء**»[٢]. . وفي المسند عن أبي سعيد مرفوعًا: «**يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: (اقرأ واصعد)، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه**»[٣].

وهذا صريح في أن درجات الجنة أزيد من مائة، وأما تحديدها بمائة كما في الحديث الذي قبله وفي غيره فلعل المراد به كما قال المؤلف في كتابه 'حادي الأرواح' أن هذه المائة هي نهاية الدرجات، وفي ضمن كل درجة درجة دونها، أو المراد بها الدرجات الكبار التي تتخللها درج صغار.

وورد أن بين كل درجتين مسيرة مائة عام، وورد خمسمائة عام، ولا تناقض بينهما، فإن ذلك محمول على اختلاف السير في السرعة والبطء قاله المؤلف وأعلى درجات الجنة هو الفردوس، فهو وسط الجنة وأعلاها، وسقفه عرش الرحمن، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[٤][٥].

---

(١) النساء: الآيتان (٩٥و٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٠)، والبخاري (١١/ ٥٠٧/ ٦٥٥٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود (٢/ ١٥٣/ ١٤٦٤)، والترمذي (٥/ ١٦٣/ ٢٩١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٥٥٢-٥٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠).

(٥) شرح نونية ابن القيم (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

يجادلونك: المجادلة المنازعة والمخاصمة في أمرها على سبيل المغالبة، وأصله من: جدلت الحبل أي أحكمت فتله، ومنه الجدال فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قدم تعالى -أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة- الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأن من قام بها، استقامت أحواله، وصلحت أعماله التي من أكبرها الجهاد في سبيله. فكما أن إيمانهم، هو الإيمان الحقيقي، وجزاؤهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه. وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج، أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال. فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين، يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه. فهذه الحال ليس للجدال فيها محل؛ لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق، والتباس الأمر. فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم. وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله

وقيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم»[١].

قال محمد رشيد رضا: «ههنا بدئت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعد اللَّه تعالى بنصر رسوله والمؤمنين، والإدالة لهم من أكابر مجرمي المشركين، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم -ويا لها من براعة مطلع- مقرونا ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدهم النصر كما وعد النبيين، وهم الذين يقبلون حكم اللَّه وقسمة رسوله في الغنائم -ويا لها من مقدمات للفوز في الحرب وغيرها- ثم قفى على ذلك بذكر أول القصة، وهو خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه، خلافا لما يقتضيه الإيمان من الإذعان لطاعته، والرضاء بما يفعله بأمر ربه، وما يحكم أو يأمر به، كما علم من الشرط في الآية الأولى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ولعل بيان هذا الشرط وما وليه من بيان صفات المؤمنين حق الإيمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها، وحكمها، وفوائدها الروحية، والاجتماعية، والسياسية، والحربية، والمالية»[٢].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾، وما الذي شبه بإخراج اللَّه نبيه ﷺ من بيته بالحق، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم اللَّه ورسوله، وقالوا: معنى ذلك: يقول الله: وأصلحوا ذات بينكم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج اللَّه محمدا ﷺ من بيته بالحق كان خيرا له. . .

وقال آخرون: معنى ذلك: كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. . . واختلف أهل العربية في ذلك، فقال بعض نحويي الكوفيين: ذلك أمر من اللَّه لرسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم، على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له. وقال بعض نحويي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٤-١٤٥).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٩٧).

البصرة: يجوز أن يكون هذا الكاف في: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. وقيل: الكاف بمعنى على.

وقال آخرون منهم: هي بمعنى القسم. قال: ومعنى الكلام: والذي أخرجك ربك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال في ذلك بقول مجاهد، وقال معناه: كما أخرجك ربك بالحق، على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبين؛ لأن كلا الأمرين قد كان، أعني خروج بعض من خرج من المدينة كارها، وجدالهم في لقاء العدو عند دنو القوم بعضهم من بعض، فتشبيه بعض ذلك ببعض، مع قرب أحدهما من الآخر، أولى من تشبيهه بما بعد عنه، وقال مجاهد في الحق الذي ذكر أنهم يجادلون فيه النبي ﷺ بعدما تبينوه: هو القتال»[(١)].

وقال أيضًا: «وأما قوله: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾فإن بعضهم قال: معناه من المدينة»[(٢)].

قال القاسمي: «لأنها مثواه؛ أي: إخراجه إلى بدر، وزعم بعض: أن المراد إخراجه ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة وهو ساقط، يرده سياق القصة البدرية في الآيات بعد»[(٣)].

قال ابن جرير: «ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾، فقال بعضهم: عنى بذلك: أهل الإيمان من أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين كانوا معه حين توجه إلى بدر للقاء المشركين...

وقال آخرون: عنى بذلك المشركون...

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق: من أن ذلك خبر من اللَّه عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبي اللَّه ﷺ أن قالوا: لم يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، ومما يدل على صحة قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٨١-١٨٢).
(٢) جامع البيان (٩/ ١٨٢).
(٣) محاسن التأويل (٨/ ١٤).

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[١] ففي ذلك: الدليل الواضح لمن فهم عن اللَّه أن القوم قد كانوا للشوكة كارهين، وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد كراهية منهم له، وأن لا معنى لما قال ابن زيد[٢]؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، فأن يكون خبرا عنهم أولى منه بأن يكون خبرا عمن لم يجر له ذكر»[٣].

قال الرازي: «كانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم لا لكلهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾»[٤].

قال محمد رشيد رضا: وفي الآية «كراهة مجادلته ﷺ فيما يأمر به ويحاوله، ويرغب فيه من أمور الدين أو مصالح المسلمين، ولكن يشترط في هذه أن تكون المجادلة بعد تبين الحق للمسلمين في المسألة. وذلك قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾وهي في أمر الخروج إلى بدر، ووعد اللَّه تعالى للمؤمنين على لسانه ﷺ بإحدى الطائفتين من المشركين -طائفة العير، وطائفة النفير أي: الحرب- على الإبهام ثم زوال الإبهام بتعين لقاء الثانية، وأما المجادلة والمراجعة في المصالح الحربية والسياسية، قبل أن يتبين الحق فيها فهو محمود مع الأدب اللائق، إذ هي مقتضى المشاورة التي عمل بها النبي ﷺ في غزوة بدر وفي غيرها.. وفي الآية الدالة على هذا الأصل آية -حجة- على حسن تربيته ﷺ للمؤمنين، وصبره على ضعفاء الإيمان منهم حتى يكمل»[٥].

قال ابن عاشور: «والمقصود من هذا الأسلوب، الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر، وما ظهر فيه من دلائل عناية اللَّه تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين»[٦].

* * *

---

(١) الأنفال: الآية (٧).

(٢) يعني قوله: «هؤلاء المشركون جادلوك في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام، وهم ينظرون، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر».

(٣) جامع البيان (٩/ ١٨٣-١٨٤).

(٤) التفسير الكبير (١٥/ ١٣١).

(٥) تفسير المنار (١٠/ ١٤٨).

(٦) التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الشوكة: الشوكة هنا السلاح، والشوكة أيضًا القوة والسلطان، وأصل ذلك من الشوك، واحده: شوكة، وهو ما دق وصلب رأسه من النبات، ثم عبر به عن القوة والسلطان، والسلاح يقال فيه شوكة وشكة.

دابر الكافرين: الدابر: الآخر. ودابر القوم: ما يخلفهم من نسلهم. والمعنى: يستأصلهم ويهلكهم عن آخرهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكروا أيها القوم ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنع عيرهم.

وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ يقول: إن ما معهم غنيمة لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، يقول: وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال أن تكون لكم. يقول: تودُّون أن تكون لكم العيرُ التي ليس فيها قتال لكم، دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع عيرهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ..

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويريد اللّه أن يحق الإسلام ويعليه بكلماته، يقول: بأمره إياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة والمال.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: يريد أن يجُبَّ أصل الجاحدين توحيد اللّه..

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويريد اللّه أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق، كيما يعبد اللّه وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو تحقيق الحق، ويبطل الباطل، يقول: ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا، فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ تولى اللّه تعالى إقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله ﷺ بالباطل ووجه الخطاب إليهم بعد أن كان الخطاب له ﷺ فقال: واذكروا إذ يعدكم اللّه إحدى الطائفتين - العير أو النفير- أنها لكم، وهذا التعبير آكد في الوعد، من مثل: وإذ يعدكم اللّه أن إحدى الطائفتين لكم؛ لأن هذا إثبات بعد إثبات، إثبات للشيء في نفسه، وإثبات له في بدله. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: وتحبون وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة، وهي العير تكون لكم؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا... وإنما عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال، وطمعهم في المال.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ويريد اللّه بوعده غير ما أردتم، يريد أن يحق الحق الذي أراده بكلماته المنزلة على رسوله، أي وعده لكم إحدى الطائفتين مبهمة وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم، فإن دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم، ويكون من ورائهم، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله من الجيش، وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع اللّه دابر المشركين بفتح مكة، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحنين، فإنما كان تربية على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[2] إلى أن قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ

(١) جامع البيان (٩/ ١٨٤-١٨٩).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٥).

اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[١] وقال في الثانية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] الخ.

قال في الكشاف: يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، واللَّه ﷻ يريد لكم معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها[٣].

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي: وعد بما وعد، وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق، أي يقره ويثبته لأنه الحق -وهو الإسلام- ويبطل الباطل أي يزيله ويمحقه -وهو الشرك- ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾أولوا الاعتداء والطغيان من المشركين. وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير؛ بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم. وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين أنه لا تكرار فيه، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين، ومحق الكافرين، والثاني هو الإسلام، وهو المقصد، والأول وسيلة له»[٤].

قال ابن كثير: «ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال؛ ليظفركم بهم، ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]»[٦].

---

(١) آل عمران: الآية (١٤١).
(٢) التوبة: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٣) الكشاف (٢/ ١٤٥).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٠٠-٦٠١).
(٥) البقرة: الآية (٢١٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦-١٧).

قال الرازي: «فإن قيل: أليس أن قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ثم قوله بعد ذلك: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تكرير محض؟. والجواب: ليس هاهنا تكرير؛ لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، والمراد بالثاني: تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة؛ لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببا لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الذي هو الشرك، وذلك في مقابلة الحق الذي هو الدين والإيمان.. والمراد من تحقيق الحق، وإبطال الباطل، بإظهار كون ذلك الحق حقًّا، وإظهار كون ذلك الباطل باطلا، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبينات، وتارة بتقوية رؤساء الحق، وقهر رؤساء الباطل»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صدق وعد اللّه تعالى للمؤمنين

* عن ابن عباس قال: «لما فرغ رسول اللّه ﷺ من بدر قيل له: عليك العير ليس دونها شيء، قال: فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح. و قال: لأن اللّه وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك. قال: **صدقت**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

العير: الإبل بأحمالها، فعل من عار يعير: إذا سار.

وثاقه: الوثاق: وهو في الأصل حبل أو قيد يشد به الأسير والدابة.

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «**عليك العير**» أي: عير أبي سفيان التي كان رسول اللّه ﷺ خرج بالمسلمين من المدينة يريدها، فبلغ ذلك أهل مكة فأسرعوا إليها وسبقت العير المسلمين، فلما فاتهم العير نزل النبي ﷺ بالمسلمين بدرًا فوقع القتال، وهذه العير يقال كانت ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكان

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ١٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٩ و٣١٤ و٣٢٦)، والترمذي (٥/ ٢٥١/ ٣٠٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٣٢٧) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦): «إسناده جيد».

فيها ثلاثون رجلًا من قريش، وقيل أربعون، وقيل ستون «**ليس دونها شيء**» أي: ليس دون العير شيء يزاحمك «**فناداه العباس**» أي: ابن عبد المطلب «**وهو في وثاقه**» وفي رواية أحمد وهو أسير في وثاقه... «**لا يصلح**» أي: لا ينبغي لك «**لأن اللَّه وعدك إحدى الطائفتين**» المراد بالطائفتين العير والنفير، فكان في العير أبو سفيان ومن معه كعمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل وما معه من الأموال. وكان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما من رؤساء قريش «**قال**» أي النبي ﷺ «**صدقت**» أي: فيما قلت»[1].

قال الجصاص: «في هذه القصة ضروب من دلائل النبوة: أحدها: إخباره إياهم بأن إحدى الطائفتين لهم وهي عير قريش، التي كانت فيها أموالهم وجيشهم الذين خرجوا لحمايتها، فكان وعده على ما وعده»[2].

* * *

(١) تحفة الأحوذي (٨/ ٣٧٤).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ٤٦).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مردفين: الردف التابع، والترادف التتابع، والرادف المتأخر والمردف المتقدم الذي أردف غيره، ومعنى مردفين: أي: جائين بعد، فجعل ردف وأردف بمعنى واحد، وقيل: معناه مردفين ملائكة أخرى فعلى هذا يكونون ممدين بألفين من الملائكة، وقيل: عنى بالمردفين المتقدمين للعسكر يلقون في قلوب العدا الرعب وقرئ مردفين: أي: أردف كل إنسان ملكا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ حين تستغيثون ربكم، فـ"إذْ» من صلة «يبطل». ومعنى قوله: ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب دعاءكم، بأني ممدكم بألف من الملائكة يُرْدِف بعضهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا..

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لم يجعل اللَّه إردافَ الملائكة بعضها بعضًا وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون، مددًا لكم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم؛ أي: بشارة لكم، تبشركم بنصر اللَّه إياكم على أعدائكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يقول: ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة اللَّه لكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يقول: وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون، إلا أن ينصركم اللَّه عليهم، لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر اللَّه لكم؛ لأن ذلك بيده وإليه، ينصر من يشاء من خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقول: إن اللَّه الذي ينصركم، وبيده نصرُ من يشاء من خلقه

﴿عَزِيزٌ﴾ لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب؛ بل يقهر كل شيء ويغلبه؛ لأنه خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل»[١].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية أي: وما جعل اللّه بعث الملائكة، وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣] فهذه حكم شرع اللّه جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث اللّه تعالى موسى ﷺ، وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[٤]وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾[٥]ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة

(١) جامع البيان (٩/ ١٨٩-١٩٣).
(٢) محمد: الآيات (٤-٦).
(٣) آل عمران: الآيتان (١٤٠-١٤١).
(٤) القصص: الآية (٤٣).
(٥) التوبة: الآيتان (١٤-١٥).

أو صاعقة أو نحو ذلك.. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[١].

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ﷻ»[٢].

قال السعدي: «واختلف الناس هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من اللَّه لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين»[٣].

قال الألوسي: «وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالا، وهو مذهب لبعضهم»[٤].

قال ابن عطية: «وهذا عندي ضعيف ترده الأحاديث الواردة بقتال الملائكة وما رأى من ذلك من أصحاب النبي ﷺ كابن مسعود وغيره»[٥].

قال القرطبي: «وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت»[٦]. ثم ذكر أحاديث تفيد ذلك منها حديث أبي زميل ثم قال[٧]: «فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور». وقال أيضًا: «وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين؛ ولأن اللَّه تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكل عسكر صَبَر واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم. وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عددًا أو مددًا. وقال بعضهم: إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدعون ويسبّحون، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت، والأول أكثر»[٨].

وقال القرطبي أيضًا: «نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه

---

(١) غافر: الآيتان (٥١-٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١-٢٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤١٦).
(٤) روح المعاني (٩/ ١٧٤).
(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٥٠٥).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٩٢).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٩٣).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٩٤).

الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق فلْيَعلق القلب بالله ولْيَثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب؛ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، ولا يقدح ذلك في التوكل»[3].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا قد نزلوا في موافقة المؤمنين، إلا أن الواجب على المؤمن أن لا يعتمد على ذلك؛ بل يجب أن يكون اعتماده على إغاثة الله ونصره وهدايته وكفايته لأجل أن الله هو العزيز الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والحكيم فيما ينزل من النصرة فيضعها في موضعها»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر وما حصل فيها من الآيات والردّ على العقلانيين القائلين بعدم قتال الملائكة

* عن أبي زميل، حدثني عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة. ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبدْ في الأرض**»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كذاك[5] مناشدتك ربك. فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في

---

(١) يس: الآية (٨٢).
(٢) الأحزاب: الآية (٦٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٥).
(٤) التفسير الكبير (١٥/ ١٣٥).
(٥) قال محمد فؤاد عبد الباقي في تحقيقه لصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣): «هكذا وقع لجماهير رواة مسلم «كذاك» ولبعضهم «كفاك» وكل بمعنى».

أثر رجل من المشركين أمامه. إذ سمع ضربة بالسوط فوقه. وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا. فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط. فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول اللّه ﷺ. فقال: «**صدقت. ذلك من مدد السماء الثالثة**». فقتلوا يومئذ سبعين. وأسروا سبعين[1].

* عن ابن عباس قال: «قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك. اللهم إن شئت لم تعبد**»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك. فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[2]»[3].

* عن ابن مسعود يقول: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[4] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله»[5].

★ غريب الأحاديث:

يهتف: هَتَفَ يَهْتِفُ هَتْفًا وهتف به هتافًا: إذا صاح به ودعاه.

العصابة: الجماعة من الناس.

منكبيه: المناكب جمع منكب، وهو ما بين الكتف والعنق.

خطم: هو الوسم على الأنف من خَطمتُ البعير: إذا كويته خطا من الأنف إلى أحد خدّيه وتسمى تلك السمة الخطام.

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٥/ ١٧٦٣) واللفظ له، وأخرجه: أبو داود (٣/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٦٩٠) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد أيضا، وأخرجه: أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٥/ ٢٥١-٢٥٢/ ٣٠٨١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) القمر: الآية (٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٩)، والبخاري (٧/ ٣٦٤/ ٣٩٥٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٧/ ١١٥٥٧).

(٤) المائدة: الآية (٢٤).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٠)، والبخاري (٧/ ٣٦٤/ ٣٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٣/ ١١١٤٠).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القرطبي: «قوله: «فما زال يهتف بربه، مادًا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه» هذا منه ﷺ قيام بوظيفة ذلك الوقت من الدعاء، والالتجاء إلى اللَّه تعالى، وتعليم لأمته ما يلجؤون إليه عند الشدائد والكرب الواقعة بهم، فإن ذلك الوقت كان وقت اضطرار وشدة، وقد وعد اللَّه المضطر بالإجابة، حيث قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1] يعني: عن المضطر عند الدعاء، فقام بعبادة ذلك الوقت، ولا يلزم من اجتهاده في الدعاء في ذلك الوقت أن يكون ارتاب في أن اللَّه سينجز له ما وعده به، كما ظهر مما وقع لأبي بكر ﷺ حيث قال له: كفاك مناشدتك ربك! فإنه سينجز لك ما وعدك! كما لا يلزم من دعائه في أن يدخله اللَّه الجنة، وينجيه من النار، ويغفر له ذنوبه أن يكون في شك من شيء من ذلك، فإن اللَّه قد أعلمه قطعا أنه يدخله الجنة، وينجيه من النار، ويغفر له لكنه قام بحق العبودية من إظهار الفاقة، وامتثال العبادة، فإن الدعاء مخ العبادة، فقلبه ﷺ مستغرق بمعرفة الواعد، وإنجاز الموعود، ولسانه وجوارحه مستغرقة بالقيام بحق عبادة المعبود، فقام في كل جارحة بوظيفتها، ولكل عبادة بحقيقتها..

ولا يظن أحد أن أبا بكر ﷺ -كان في تلك الحالة أقوى من النبي ﷺ، وأوثق بما وعده اللَّه به من النصر، فإن ذلك ظن من لا يعرف محمدا ﷺ حق معرفته، ولا قدره حق قدره. وكيف يصير إلى غير هذا المعنى مَن سمع قوله في الغار ويوم سراقة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2]؟ وكيف يظن ذلك من يعلم أن رسول اللَّه ﷺ سيد ولد آدم، وأكملهم، وأقواهم، ولو وزن بجميع أمته لرجحهم؟ وبلا شك أن الأنبياء أفضل الناس، وأعلمهم باللَّه وبحدوده. ولا شك في أنه ﷺ أفضل الأنبياء وأكملهم. وإذا كانت هذه حاله مع الأنبياء، فحاله مع من ليس بنبي أعلى، وأكمل، وهو فيها أقوى. وكيف لا يكون حاله في هذه القصة أتم، وأقوى من حال أبي بكر، وقبل ذلك الوقت بيسير كان قد أخبر أصحابه: بأن اللَّه ينصره على عدوه ذلك، حتى أراهم مصارعهم واحدا واحدا باسمه وعينه، فكان الأمر كما ذكر،

---

(١) النمل: الآية (٦٢).

(٢) التوبة: الآية (٤٠).

فثبت ما قلناه»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا يدل على كمال يقين الصديق، وثقته بوعد اللَّه، وثباته، وشجاعته، شجاعة إيمانية زائدة على الشجاعة الطبيعية، وكان حال رسول اللَّه أكمل من حاله، ومقامه أعلى من مقامه، ولم يكن الأمر كما ظنه بعض الجهال أن حال أبي بكر أكمل نعوذ باللَّه من ذلك، ولا نقص في استغاثة النبي ﷺ ربه في هذا المقام كما توهمه بعض الناس، وتكلم ابن عقيل وغيره في هذا الموضع بخطل من القول مردود على من قاله؛ بل كان رسول اللَّه ﷺ جامعا كاملا، له من كل مقام ذروة سنامه ووسيلته، فيعلم أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ويعلم أن عليه أن يجاهد المشركين، ويقيم الدين بكل ما يقدر عليه من جهاده بنفسه وماله، وتحريضه للمؤمنين، ويعلم أن الاستنصار باللَّه والاستغاثة به والدعاء له فيه أعظم الجهاد وأعظم الأسباب في تحصيل المأمور ودفع المحذور..

ثم مع علمه أن ذلك سيكون، يعلم أن اللَّه إذا قضى شيئًا يكون فلا يمنع ذلك أن يقضيه بأسباب تكون، وأن من الأسباب ما يكون العباد مأمورين به، ومن أعظم ما يؤمر به الاستغاثة باللَّه، فقام بما يؤمر به مع علمه بأنه سيكون ما وعد به، كما أنه يعبد اللَّه ويطيعه مع علمه بأن له السعادة في الآخرة. والقلب إذا غشيته الهيبة والمخافة والتضرع قد يغيب عنه شهود ما يعلمه، ولا يمنعه ذلك أن يكون عالما به مصدقا له، ولا أن يكون في اجتهاد وجهاد بمباشرة الأسباب. ومن علم أنه إذا مات يدخل الجنة لم يمنع أن يجد بعض ألم الموت، والمريض الذي إذا أخبر أن في دوائه العافية لا يمنعه ذلك أن يجد مرارة الدواء، فقام مجتهدا في الدعاء المأمور به، وكان هو رأس الأمر، وقطب رحى الدين فعليه أن يقوم بأفضل مما يقوم به غيره. وذلك الدعاء والاستغاثة كان أعظم الأسباب التي نزل بها النصر، ومقام أبي بكر دون هذا، وهو معاونة الرسول، والذب عنه، وإخباره بأنا واثقون بنصر اللَّه تعالى، والنظر إلى جهة العدو، وهل قاتلوا المسلمين أم لا؟ والنظر إلى صفوف

---

(١) المفهم (٣/ ٥٧٤-٥٧٦).

المسلمين لئلا تختل، وتبليغ المسلمين ما يأمر به النبي ﷺ في هذه الحال»[١].

قال الخطابي: «قد بينا أن ابتهال النبي ﷺ في الدعاء يوم بدر، ومناشدته ربه إنما كان من أصحابه لتسكن إلى ذاك نفوسهم وتطمئن قلوبهم، إذ كان بدر أول يوم لقوا فيه العدو وكان المسلمون في قلة من العدد ورثاثة من الحال وأعداؤهم في وفور من العدد والعدة وكانوا يثقون بأنه إذا دعا اللّه وابتهل أجيب، فكان مناشدته ربه وإلحاحه في الدعاء لذاك، فلما رأى ﷺ أبا بكر قد سكن إلى ذلك وقد قال له: حسبك، اقصر عن الدعاء وأقبل يبشرهم بالنصر، وتلا قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[٢] ولولا أن الأمر على ما تأولناه لكان أبو بكر أصحّ يقينًا منه وأقوى عزيمة وهذا ما لا يجوز لمسلم أن يتوهمه بوجه»[٣].

قال الحافظ: «قال السهيلي: سبب شدة اجتهاد النبي ﷺ ونصبه في الدعاء لأنه رأى الملائكة تنصب في القتال، والأنصار يخوضون غمار الموت، والجهاد تارة يكون بالسلاح وتارة بالدعاء، ومن السنة أن يكون الإمام وراء الجيش لأنه لا يقاتل معهم فلم يكن ليريح نفسه، فتشاغل بأحد الأمرين وهو الدعاء»[٤].

قال ابن بطال: «فيه دليل على أن نفوس البشر لا يرتفع عنها الخوف والإشفاق جملة واحدة؛ لأن الرسول قد كان وعده اللّه بالنصر وهو الوعد الذي نشده، وكذلك قال اللّه عن موسى حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فأخبر بعد أن أعلمه أنه ناصره، وأنه معهما يسمع ويرى فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[٥] وإنما هي طوارق من الشياطين يخوف بها النفوس، و﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٦].

وقوله: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك»: اللهم إني أسألك إنجاز وعدك وإتمامه بإظهار دينك، وإعلاء كلمة الإسلام الذي رضيت بظهوره على جميع الأديان، وشئت أن يعبدك أهله، ولم تشأ ألا تعبد، فتمم ما شئت كونه؛ فإن الأمور كلها بيدك.

---

(١) منهاج السنة (٨/ ٧٩-٨٢).
(٢) القمر: الآية (٤٥).
(٣) أعلام الحديث (٣/ ١٧٠٢-١٧٠٣).
(٤) فتح الباري (٧/ ٣٦٦).
(٥) طه: الآية (٦٧).
(٦) إبراهيم: الآية (٢٧).

وقوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[١] فيه تأنيس من استبطأ كريم ما وعد الله به من النصر بالبشرى لهم بهزم حزب الشيطان وتذكيرهم بما يثبتهم به من كتابه»[٢].

وقال الحافظ: «قال الخطابي: وإنما قال ذلك -أي: «**إن شئت لم تعبد**»- لأنه علم أنه خاتم النبيين فلو هلك هو ومن معه حينئذ لم يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله، فالمعنى لا يعبد في الأرض بهذه الشريعة»[٣].

قال ابن هبيرة: «فيه منة على الملائكة بتشريفهم بالجهاد يوم بدر»[٤].

وقال أيضًا: «في هذا الحديث نزول الملائكة، وأنهم قاتلوا مع المسلمين، وأن ضربة أحدهم أثرت في وجه المضروب حتى اخضر، وإنما أراد الله سبحانه ببقاء أثر ضربة هذا الملك أن يعلم أن الباقين وإن لم تكن قد ظهرت آثار ضرباتهم، فإنهم ضربوا فوق الأعناق، وضربوا كل بنان.

وقوله: «**إنه من مدد السماء الثالثة**» إنما كان ذلك لأن القوم أمدوا بالملائكة من جميع السماوات، وكأن الملائكة تشاحوا في النصرة لهم، فأنزل الله من كل سماء ملائكة، فكان ذلك الملك من السماء الثالثة»[٥].

قال القرطبي: «قوله: «**ذلك من مدد السماء الثالثة**» أي: من ملائكة السماء الثالثة، التي أمدوا به. وهذا يدل على أنه كانوا أمدوا بملائكة من كل سماء. ويدل هذا الخبر على أن الملائكة قاتلت يومئذ. وهو قول أكثر أهل العلم»[٦].

* عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟**» قال: «**من أفضل المسلمين**» أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»[٧].

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «في هذا من الفقه أن شرف المخلوقات ليس بالذوات، وإنما

---

(١) القمر: الآية (٤٥).
(٢) شرح البخاري (٥/ ١٠٣-١٠٤).
(٣) الفتح (٧/ ٣٦٦-٣٦٧).
(٤) الإفصاح (١/ ٢٠٥).
(٥) الإفصاح (١/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٦) المفهم (٣/ ٥٧٧).
(٧) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٩٥/ ٣٩٩٢).

هو بالأفعال، وللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم، ولنا نحن أفعالنا بالإخلاص في الطاعة، وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لها، وأفضلها الجهاد، وأفضل الجهاد يوم بدر، فأنجز اللَّه لرسوله وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وصرع صناديد المشركين، وانتقم منهم للمؤمنين، وشفى صدر رسوله وصدورهم من غيظهم»[1].

قال الحافظ: «قال الشيخ تقي الدين السبكي: «سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة[2] من جناحه فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها اللَّه تعالى في عباده، واللَّه تعالى هو فاعل الجميع واللَّه أعلم»[3].

* عن علي رضي الله عنه يقول: بعثني رسول اللَّه ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها**». فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول اللَّه ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللَّه ﷺ. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: يا رسول اللَّه لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**قد صدقكم**». فقال عمر: يا رسول اللَّه، دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل اللَّه أن يكون قد**

---

(١) عارضة الأحوذي (١١/ ٢١٠).

(٢) لم يصح نص في الكتاب والسنة - فيما أعلم - فيه أن لأجنحة الملائكة ريشا، وهذا من علم الغيب الذي لا يجوز لنا أن نثبت شيئا منه إلا بدليل، فالواجب على المسلم التوقف حتى يرد ذلك.

(٣) الفتح (٧/ ٣٩٧).

اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

★ **غريب الحديث:**

تعادى بنا خيلنا: أي تجري، والعدية الخيل تعدوا عدوا.

الظعينة: الظُّعُنُ: النساء، واحدتها: ظعينة. وأصل الظعينة: الراحلة التي يرحل ويظعن عليها؛ أي: يسار، وقيل للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن.

عقاصها: أي: ضفائرها، وأصل العقص: اللي وإدخال أطراف الشعر في أصوله.

ملصقًا: الملصق: هو الرجل المقيم في الحي وليس منهم بنسب.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: **«وما يدريك لعل اللَّه قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»:**

قال الحافظ ابن حجر: «وقد استشكل **«اعملوا ما شئتم»** فإن ظاهره أنه للإباحة وهو خلاف عقد الشرع، وأجيب بأنه إخبار عن الماضي. أي: كل عمل كان لكم فهو مغفور، ويؤيده أنه لو كان لما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضي، ولقال: فسأغفره لكم، وتعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب؛ لأنه ﷺ خاطب به عمر منكرًا عليه ما قال في أمر حاطب، وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين، فدل على أن المراد ما سيأتي، وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه. وقيل: إن صيغة الأمر في قوله: **«اعملوا»** للتشريف والتكريم، والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك، وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة، وتأهلوا لأن يغفر اللَّه لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت؛ أي: كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧٩-٨٠)، والبخاري (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢/ ٢٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ١٠٨-١١٠/ ٢٦٥٠)، والترمذي (٥/ ٣٨١-٣٨٣/ ٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٧/ ١١٥٨٥).

فهو مغفور. وقيل: إن المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة. وقيل: هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم، وفيه نظر ظاهر.. واتفقوا على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة، لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها والله أعلم»[١].

قال السندي: «لعل المراد به أنه تعالى علم منهم أنه لا يجيء منهم ما ينافي المغفرة، فقال لهم ذلك إظهارًا لكمال الرضى عنهم، وأنه لا يُتوقَّع منهم بحسب الأعمّ الأغلب إلا الخير، وأن المعصية إن وقعت من أحدهم فهي نادرة مغفورة بكثرة الحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢]، فهذا كناية عن كمال الرضى عنهم، وعن كمال صلاح حالهم وتوفيقهم غالبًا للخير، وليس المقصود به الإذن في المعاصي كيف شاءوا، وهذا كما يقول أحد لخادمه أو امرأته إذا رأى الخير منهما: افعَلْ ما شئت في المال والبيت، والله تعالى أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «فالذي نظن في ذلك -والله أعلم-: أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها، بل يوفقهم لتوبة نصوح، واستغفار وحسنات تمحو ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم.

ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج! ولا زكاة ولا جهاد، وهذا محال.

ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب، فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة.

ونظير هذا قوله في الحديث الآخر: «أذنب عبد ذنبًا فقال: أي ربِّ! أذنبتُ ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: أي

---

(١) الفتح (٧/ ٣٨٨).

(٢) هود: الآية (١١٤).

(٣) حاشية المسند (٢/ ٣٩) تعليق.

ربِّ! أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء اللَّه أن يمكث، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: ربِّ! أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فقال الله: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي فليعمل ما شاء»[١]، فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك: إذا أذنب تاب.

واختصاص هذا العبد بهذا -لأنه قد علم أنه لا يصرّ على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب- حكم يعمّ كل من كانت حالُه حالَه، لكنّ ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر.

وكذلك كل من بشّره رسول اللَّه ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها؛ كالعشرة المشهود لهم بالجنة.

وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر؛ فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها، والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق الإذن فيما شاءوا من الأعمال»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٢)، والبخاري (١٣/ ٥٧٠-٥٧١/ ٧٥٠٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٢/ ٢٧٥٠).
(٢) الفوائد (٢/ ٢٧-٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ألقى النعاس على المؤمنين، ليجعل قلوبهم آمنة غير خائفة من عدوها؛ لأن الخائف الفزع لا يغشاه النعاس، وظاهر سياق هذه الآية أن هذا النعاس ألقي عليهم يوم بدر؛ لأن الكلام هنا في وقعة بدر، كما لا يخفى. وذكر في سورة آل عمران، أن النعاس غشيهم أيضًا يوم أحد، وذلك في قوله تعالى في وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[2]»[3].

قال ابن كثير: «يذكرهم اللَّه بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[4]، . .

وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا، وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر اللَّه. وهذا من فضل اللَّه ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[5]؛ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ﷺ، وهما يدعوان، أخذت رسول اللَّه سنة من النوم، ثم استيقظ متبسما فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع**» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

---

(١) الأنفال: الآية (١١).
(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٥٠-٥١).
(٤) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٥) الشرح: الآيتان (٥و٦).

ٱلدُّبُرَ﴾(١)(٢)»(٣).

قال عبد الكريم الخطيب: «الظرف «إذ» هنا متعلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾أي من مظاهر عزة اللَّه وحكمته في هذا اليوم أن أرسل عليكم النعاس، فغشيكم، وطرق عيونكم، ولبس أجسادكم، فكان ذلك من بواعث الأمن والطمأنينة لكم. إذ لا يطوف النوم إلا حيث تكون السكينة، ويكون الاطمئنان.

والأَمَنَة: بمعنى الأمن، ولكنها قطعة من الأمن، وليست كل الأمن، والضمير في (منه) يعود إلى اللَّه ﷻ.

وفي الحديث عن النعاس الذي غشى المؤمنين يومئذ بأنه كان نعاسا، ولم يكن نوما، أو استغراقا في النوم -إشارة إلى واقع الحال الذي كان يشتمل جو المعركة، من اضطراب النفوس، وجزع القلوب، وحيرة العقول، وأن من نعم اللَّه الجليلة في هذه الحال أن يطوف بالإنسان طائف من الأمن، بحيث يطرقه النعاس الذي يذهب بكثير من خواطر الجزع والقلق، ويسكب على كيان الإنسان الجسدي والنفسي راحة وروْحا، يستقبل بهما العدو، وهو أكثر نشاطا، وأثبت قدما، مما لو كان قد بات ليلة الحرب يعالج الهموم، ويحارب في غير حرب، حتى يبدد قواه، ويستهلك نشاطه، فيلقى العدو مهدما محطما..

وهذا النعاس -الذي غشى المسلمين- إنما كان ليلة الحرب، لا في ميدان القتال، كما يرى ذلك بعض المفسرين. فإن النعاس مطلوب قبل الالتحام في القتال، لا ساعة الالتحام؛ لأنه إعداد للمعركة وزاد من الاستجمام والنشاط يتزود به المقاتل. أما وقوعه والمعركة دائرة والقتال محتدم، فهو عامل من عوامل الخذلان، لا عدة من عدد النصر.

والذي يؤيد أن هذا النعاس كان ليلة الحرب، وأنه كان نعمة من النعم التي ساقها اللَّه للمؤمنين فيما ساق إليهم من نعم -الذي يؤيد هذا، أنه وصل بنعمة أخرى، صحبته، أو جاءت بعده، وهو نزول المطر في تلك الليلة، كما يقول اللَّه

---

(١) القمر: الآية (٤٥).

(٢) تقدم تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في: الآية السابقة دون ذكر النوم.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٢-٢٣).

تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾»[١].

قال الفخر الرازي: «اعلم أن كل نوم ونعاس فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى، فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لا بد فيه من مزيد فائدة، وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن.

وثانيها: أنهم خافوا من جهات كثيرة: أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار. وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين. وثالثها: العطش الشديد فلولا حصول هذا النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمة في حقهم، أنهم ما ناموا نومًا غرقًا يتمكن العدو من معافصتهم، بل كان ذلك نعاسًا يحصل لهم زوال الإعياء والكلال، مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة. فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر

* عن علي ﷺ قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»[٣].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٥-٥٧٦).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٥و١٣٨)، والنسائي في الكبرى (١/ ٢٧٠/ ٨٢٣) دون المقطع الأول، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ٣٢/ ٢٢٥٧)، وابن خزيمة (٢/ ٥٢-٥٣/ ٨٩٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «والنعاس في الحرب والخوف دليل الأمن وهو من اللَّه، وفي الصلاة، ومجالس الذكر والعلم من الشيطان»[١].

قال أحمد عبد الرحمن البنا: «فيه دلالة على تيقظه ﷺ، وشدة اهتمامه بهذه الغزوة، والتجائه إلى ربه، فإن في الالتجاء إليه النصر، وقد حصل ولله الحمد»[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٠٣).

(٢) الفتح الرباني (٢١/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «وهذه منة ثالثة منه ﷻ على المؤمنين كان لها شأن عظيم في انتصارهم على المشركين.. ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال؛ لأنهم كانوا رجلة ليس فيهم إلا فارس واحد، هو المقداد كما تقدم، وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام، أو لا تثبت عليها.. ذكر تعالى لذلك المطر أربع منافع:

الأولى: تطهيرهم به أي: تطهيرا حسيا بالنظافة التي تشرح الصدر، وتنشط الأعضاء في كل عمل، وشرعيا: بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

الثانية: إذهاب رجز الشيطان عنهم، والرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشيء المستقذر حسا أو معنى، والمراد هنا: وسوسته..

الثالثة: الربط على القلوب، ويعبر به عن تثبيتها، وتوطينها على الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[1] وتأثير المطر في القلوب تفسره المنفعة.

الرابعة: وهو تثبيت الأقدام به، فإن كان يعلم أنه يقاتل في أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك، وهو قد يقاتل فارسا لا راجلا لا يكون إلا وجلا مضطرب القلب»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «هو بيان لما ساق الله إلى المسلمين يوم بدر من

(١) القصص: الآية (١٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٦١٠-٦١٢)

أمداد نصره وتأييده. فإلى جانب الملائكة المرسلة إليهم، كان النعاس الذي غشاهم اللَّه به، فطرقهم جميعًا. ثم كان هذا المطر الذي نزل عليهم، فتطهروا به من الحَدَث الأكبر والأصغر، فكانوا على طهارة ظاهرة، تلتقي مع طهارة نفوسهم، وصفاء نياتهم لله، والموت في سبيل اللَّه. وبهذا ذهب عنهم رجز الشيطان ووسواسه، الذي كان يلقى في روعهم أنهم لو قتلوا لماتوا على غير طهارة، وهذا الشعور من شأنه أن يبعث فيهم شيئًا من التخاذل والفتور عند لقاء العدو.

ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ فيكشف عن أثر هذا الماء الذي أنزل اللَّه عليهم فطهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان وثبت به أقدامهم، حيث اطمأنت قلوبهم بعد أن طهروا، فثبتت أقدامهم في موطن القتال، وسعوا إلى لقاء اللَّه طاهرين!

ومن جهة أخرى، فإن هذا الماء الذي أنزله اللَّه عليهم ليلة القتال قد كان له أثره في تماسك الأرض من تحت أقدامهم، حيث اختلط الرمل بذرات التراب، فلما أمسك المطر، وجفت الأرض صار وجهها طبقة صلبة أشبه بالطين اللازب، فثبتت عليه أقدامهم، بعد أن طهرت أجسامهم، واطمأنت قلوبهم»[1].

قال الرازي: «فقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ يدل دلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك»[2].

قال السعدي: «وفي هذه القصة.. الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه، والوساوس الشيطانية. ومنها: أن من لطف اللَّه بعبده، أن يسهل عليه طاعته، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية»[3].

وفي هذا كله «توطئة من اللَّه ﷻ لنبيه ﷺ وأوليائه أسباب التمكن من عدوهم، والظفر بهم»[4].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٣٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٠).

(٤) أفاده الطبري في جامع البيان (٩/ ١٩٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الله ومنته على المؤمنين يوم بدر

* عن علي ﷺ قال: «أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ﷻ ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد**» قال: فلما طلع الفجر، نادى «**الصلاة عباد الله**»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال»[١].

★ **غريب الحديث:**

طش: يقال: طشّت السماء طشًّا وطشيشًا: أمطرت مطرًا ضعيفًا.

الحَجف: جمع حجفة، وهي الترس من جلود بلا خشب ولا رباط من عصب. والترس: ما يتوقى به في الحرب.

* * *

(١) جزء من حديث رواه: أحمد (١/ ١١٧)، وأبو داود (٣/ ١١٩-١٢٠/ ٢٦٦٥) مختصرًا دون موضع الشاهد. وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٥-٧٦) وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة».

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الرعب: الانقطاع من امتلاء الخوف، يقال: رعبته أرعبه رعبًا: إذا أَخَفْتُهُ وأَفْزَعْتُهُ.

البنان: قيل: الأصابع، وهو اسم جنس، الواحدة بنانة، قال أبو الهيثم» المفاصل، وكل مفصل بنانة». وقيل: البنان: الأصابع من اليدين والرجلين، وجميع المفاصل من جميع الأعضاء، وسميت الأصابع بنانا لأن بها إصلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يبن بها، يقال: أبن بالمكان يبن أي: أقام، وخصها بالذكر لأنها أنفع الأعضاء في مزاولة الأشياء لاسيما في القتال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه نعمة خفية أظهرها اللَّه تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه -تعالى وتقدس وتبارك وتمجد- أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا»[١].

وفي معنى هذا التثبيت يقول ابن جرير: «قووا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين، وقد قيل إن تثبيت الملائكة المؤمنين، كان حضورهم حربهم معهم، وقيل: كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم»[٢].

قال ابن القيم: «والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥).

(٢) جامع البيان (٩/ ١٩٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٦).

قال عبد الكريم الخطيب: «قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾إشارة إلى أن الملائكة وإن كانوا على قوة لا حدود لها بالنسبة لقوة البشر، إلا أنهم مع ذلك يستمدون القوة والعون من اللَّه ﷻ، شأنهم في ذلك أضعف مخلوقات اللَّه، وأقلها حولا وحيلة»[١].

قال الرازي: «ومن النعم المذكورة في الآية قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وهذا من النعم الجليلة، وذلك لأن أمير النفس هو القلب، فلما بين اللَّه تعالى أنه ربط قلوب المؤمنين، بمعنى أنه قواها، وأزال الخوف عنها، ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم اللَّه تعالى على المؤمنين»[٢].

قال عبد الكريم الخطيب: «قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ إشارة إلى ما وقع في قلوب المشركين يومئذ من رعب اضطربت له صفوفهم، وزاغت به أبصارهم.. وبهذا وذاك تمكن المسلمون من رقابهم، وأوقعوا الهزيمة بهم.

وقوله سبحانه: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾هو دعوة للمسلمين أن يحصدوا هذا الزرع الذي أصبحت قطوفه دانية لأيديهم، وبهذا يضاف هذا المحصول كله لهم، ويحسب من عمل أيديهم.. وهذا فضل من اللَّه عليهم، ورحمة واسعة من رحمته بهم.

ولو شاء اللَّه سبحانه أن يهلك المشركين من غير أن يبتلي بهم المؤمنين لفعل.. ولكن أين بلاء المؤمنين؟ وأين العمل الذي يضاف إليهم، ويؤجرون عليه؟

إنه من تدبير اللَّه تعالى وحكمته أن يبتلي الناس بعضهم ببعض، وذلك ليظهر في كل إنسان ما عنده من خير أو شر، وبهذا تنكشف للناس وجوههم، وتتحدد مواقفهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾إشارة إلى ما ينبغي أن يتجه إليه ضرب المؤمنين في جبهة المشركين، وهو أن يكون في المواطن

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٨).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٣٩-١٤٠)

التي تخمد بها أنفاسهم، أو تشل حركاتهم، وذلك بضرب الرؤوس التي عشش فيها الشرك، وأفرخ فيها الضلال، وضرب تلك الأيدي التي كانت تمتد بالأذى إلى المسلمين، وهاهي ذي تريد القضاء عليهم»[١].

قال القاسمي: «ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾أمر للمؤمنين، أو للملائكة، وعليه ففيه دليل على أنهم قاتلوا﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالي الأعناق التي هي المذابح تطييرا للرؤوس، أو أراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أصابع، جمع (بنانة) قيل: المراد بالبنان، مطلق الأطراف مجازا، تسمية للكل باسم الجزء، لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل، والمعنى اضربوهم كيفما اتفق في المقاتل وغيرها»[٢].

قال الطبري: «قوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ محتمل أن يكون مرادًا به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مرادًا به فوق جلدة الأعناق، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صح قول من قال: معناه: الأعناق. وإذا كان الأمر محتملا ما ذكرنا من التأويل، لم يكن لنا أن نوجِّهه إلى بعض معانيه دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة تدلّ على خصوصه، فالواجب أن يقال: إن اللّه أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدرًا.

وأما قوله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، فإن معناه: واضربوا أيها المؤمنون، من عدوكم كل طَرَف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم»[٣].

واختلف العلماء فيمن وجه إليه الخطاب بقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ هل هو للمؤمنين أم للملائكة؟ فذهب جماعة من المفسرين إلى أنه للمؤمنين وهو اختيار الإمام ابن جرير حيث قال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه أمر المؤمنين معلمهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف»[٤]. وهو ترجيح الرازي، وابن عادل، ورشيد رضا.

وذهب آخرون إلى أن الكل محتمل، وهو الأشبه بصنيع السعدي حيث قال:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٩).
(٢) محاسن التأويل (٨/ ٢١).
(٣) جامع البيان (٩/ ١٩٨-١٩٩).
(٤) جامع البيان (٩/ ١٩٨).

«هذا خطاب إما للملائكة الذين أوحى اللَّه إليهم أَنَ يثبتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم اللَّه، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم»[1].

وذهب آخرون إلى أن الخطاب موجه للملائكة وهو الأظهر؛ لأن سياق الكلام في الملائكة، وكأن الحامل لمن قال بأن الخطاب للمؤمنين، ذهابهم إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، فتعين عليهم حمل الآية على ما ذكر، وإذ قد مر بك أن الملائكة قاتلت يومها ذلك من خلال الأحاديث الصحيحة الصريحة، فأي مانع من أن يكون الخطاب موجه للملائكة، في بيان كيفية قتلهم للمشركين بعد أمر اللَّه إياهم بأن يثبتوا المؤمنين، فيكون من تثبيتهم، قتالهم معهم، ولهذا قال الألوسي: «وجوز بعضهم أن يكون التثبيت بما يلقون إليهم من وعد النصر وما يتقوى به قلوبهم في الجملة، وقوله ﷻ: ﴿سَأُلْقِى﴾الخ جملة استئنافية جارية مجرى التعليل، لإفادة التثبيت؛ لأنه مصدقه ومبينه لإعانته إياهم على التثبيت، وقوله ﷻ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ الخ جملة مستعقبة للتثبيت، بمعنى لا تقتصروا على تثبيتهم وأمدوهم بالقتال عقيبه من غير تراخ، وكأن المعنى: أني معكم فيما آمركم به فثبتوا واضربوا، وجيء بالفاء للنكتة المذكورة، ووسط ﴿سَأُلْقِى﴾ تصديقا للتثبيت، وتمهيدا للأمر بعده، وعلى الاحتمالين تكون الآية دليلا لمن قال: إن الملائكة قاتلت يوم بدر، وقال آخرون: التثبيت بغير المقاتلة، وقوله ﷻ: ﴿سَأُلْقِى﴾ تلقين منه تعالى للملائكة، على إضمار القول، على أنه تفسير للتثبيت، أو استئناف بياني، والخطاب في: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾للمؤمنين صادرا من الملائكة حكاه اللَّه تعالى لنا، وجوز أن يكون ذلك الكلام من جملة الملقن داخلا تحت القول، كأنه قيل: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِى﴾الخ، أو كأنه قيل كيف نثبتهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِى﴾ولا يخفى أن هذا القول أضعف الأقوال معنى ولفظا، وأما القول بأن: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾الخ خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال، وأنى ذلك؟ والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة، وبالجملة الآية ظاهرة فيما يدعيه الجماعة من وقوع القتال من الملائكة»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤٩).

(٢) روح المعاني (٩/ ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الشقاق: أصله العداوة والمخاصمة؛ لأن كل واحد يكون في شِقٍّ أي ناحية غير شِقِّ الآخر. وقيل: هو مأخوذ من شق العصا بينك وبينه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ هذا الفعل من ضرب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق، وضرب كل بنان منهم، جزاء لهم بشقاقهم اللّه ورسوله، وعقاب لهم عليه، ومعنى قوله: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: فارقوا أمر اللّه ورسوله وعصوهما، وأطاعوا أمر الشيطان، ومعنى قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ومن يخالف أمر اللّه وأمر رسوله وفارق طاعتهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له، وشدة عقابه له في الدنيا: إحلاله به ما كان يحل بأعدائه من النقم، وفي الآخرة الخلود في نار جهنم، وحذف له من الكلام لدلالة الكلام عليه»(١).

قال محمد رشيد رضا: «إن عقاب اللّه شديد، وأحق الناس به المشاقون له، بإيثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده وعبادته، وبالاعتداء على أوليائه أولا بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر، وإخراجهم من ديارهم، واتباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه»(٢).

قلت: وقد استنبط شيخ الإسلام من الآية حكما، وهو قتل المشاق لله ورسوله، وقتل مؤذي النبي ﷺ، باعتباره بفعلته تلك قد شاق اللّه ورسوله، فقال رحمه الله: «فجعل إلقاء الرعب في قلوبهم، والأمر بقتلهم لأجل مشاقتهم لله ورسوله، فكل

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٠).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٦١٥).

من شاق اللَّه ورسوله يستوجب ذلك، والمؤذي للنبي ﷺ مشاق لله ورسوله كما تقدم فيستحق ذلك»[١].

ومثله قول تلميذه ابن القيم فقد قال: «والمشاق لله ولرسوله مستحق ضرب العنق، وقال: وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه»[٢].

ومما يستفاد من الآية أيضًا الزجر عن الكفر والتهديد عليه[٣].

* * *

(١) الصارم المسلول (٢/ ٦١).

(٢) أحكام أهل الذمة (٣/ ١٣٩٤).

(٣) أفاده الرازي في التفسير الكبير (١٥/ ١٤٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إنه تعالى لما بين أن من يشاقق اللَّه ورسوله فإن اللَّه شديد العقاب، بين من بعد ذلك صفة عقابه، وأنه قد يكون معجلا في الدنيا، وقد يكون مؤجلا في الآخرة، ونبه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ وهو المعجل من القتل والأسر، على أن ذلك يسير، بالإضافة إلى المؤجل لهم في الآخرة، فلذلك سماه ذوقا؛ لأن الذوق لا يكون إلا تعرف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير، فعاجل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا، كذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعد لهم في الآخرة. وقوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾يدل على أن الذوق يحصل بطريق آخر سوى إدراك الطعوم المخصوصة، وهي كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[(١)]»[(٢)].

قال النيسابوري: «وفي ذكر الذوق إشارة إلى أن عذاب الدنيا شيء قليل بالنسبة إلى عذاب الآخرة»[(٣)].

قال محمد رشيد رضا: «الخطاب للمشركين المنكسرين في غزوة بدر، أي لمن بقي منهم من الأسرى والمهزومين على طريق الالتفات عن الغيبة في قوله تعالى قبله ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمعنى الأمر ذلكم -أي أن الأمر المبين آنفا وهو أن اللَّه تعالى شديد العقاب لمن يشاقه هو ورسوله- فذوقوا هذا العقاب الشديد، وهو الانكسار والانهزام مع الخزي والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾هذا عطف على ما قبله، أي والأمر المقرر مع هذا العقاب الدنيوي أن للكافرين عذاب النار في الآخرة، فمن أصر منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومهما»[(٤)].

---

(١) الدخان: الآية (٤٩).
(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٤١).
(٣) غرائب القرآن (٣/ ٣٨٣).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦١٥).

قال صديق حسن خان: «﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معطوفة على ما قبلها، فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به، ويكون ذلك إشارة إلى العقاب الآجل الذي أعده الله لهم في الآخرة، ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الآجل أو الجمع بينهما»[1].

* * *

(١) فتح البيان (٥/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

زحفًا: الزحف: الدنو قليلا قليلا. وأصله: الاندفاع على الألية. ثم سمي كل ماش في الحرب إلى الآخر زاحفا، والتزاحف التداني والتقارب، والزحف الدبيب أيضًا، من زحف الصبي.

تولوهم: التولية المراد هنا: النكوص إلى الوراء هربًا. من ولاه دُبُرَهُ في الحرب: إذا فَرَّ مُنْهَزِمًا.

متحرفًا لقتال: أي مائلا إليه وقيل مستطردا يريد الكرة.

متحيزًا إلى فئة: أي مُنْضَمًّا إلى جماعة أخرى. من حَازَهُ يَحُوزُهُ حَوْزًا، إذا ضَمَّهُ واستولى عليه. والحيز: الناحية، وقيل: الحيز كل جمع منضم بعضه إلى بعض، وقيل معناه صار إلى حيز فئة.

فئة: الفئة الجماعة من الناس وقيدها بعضهم بالمتظاهرة، وبعضهم بالمتعاضدة، وهما متقاربان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في القتال ﴿زَحْفًا﴾، يقول: متزاحفًا بعضكم إلى بعض و«التزاحف»، التداني والتقارب ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، يقول: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن اللَّه معكم عليهم ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، يقول: ومن يولهم منكم ظهره ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾، يقول: إلا مستطردًا

لقتال عدوه، بطلب عورة له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو إلَّا أن يوليهم ظهره متحيزًا إلى فئة، يقول: صائرًا إلى حَيِّز المؤمنين الذين يفيئون به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعون به معهم إليهم. .

واختلف أهل العلم في حكم قول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، هل هو خاص في أهل بدر، أم هو في المؤمنين جميعًا؟

فقال قوم: هو لأهل بدر خاصة؛ لأنه لم يكن لهم أن يتركوا رسول اللَّه ﷺ مع عدوه وينهزموا عنه، فاليومَ أفلهم الانهزام؟. .

وقال آخرون: بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزمًا. .

وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قولُ من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن اللَّه حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرفٍ لقتال، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح اللَّه التولية بهما، فقد استوجب من اللَّه وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه.

وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ، وله في غير النسخ وجه، إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر يقطع العذر، أو حجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

وأما قوله: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يقول: فقد رجع بغضب من اللَّه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، يقول: وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير»[1].

قال السعدي: «يأمر اللَّه تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٠-٢٠٣).

أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين اللّه، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهابا للكافرين.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة[١]، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يول دبره فارا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم. أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد -في هذه الحال- أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه -على هذا- لا يتصور الفرار المنهي عنه»[٢].

قال ابن عطية: «أمر اللَّه ﷻ في هذه الآية أن لا يولي المؤمنون أمام الكفار، وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف المؤمنة من المشركين فالفرض أن لا يفروا أمامهم، فالفرار هناك

(١) سيأتي بعضها في ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٠-١٥١).

كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث وإجماع الأكثر من الأمة، والذي يراعى العدد، حسب ما في كتاب اللَّه ﷻ، وهذا قول جمهور الأمة، وقالت فرقة منهم: ابن الماجشون في الواضحة: يراعى أيضًا الضعف والقوة والعدة، فيجوز على قولهم أن تفر مائة فارس إذا علموا أن عند المشركين من العدة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم، وأمام أقل أو أكثر بحسب ذلك، وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا أمام ما زاد على مائتين، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشعة على الفار ذامة له»[١].

قال القاسمي: «تنبيهات: الأول: دلت الآية على وجوب مصابرة العدو؛ أي: الثبات عند القتال، وتحريم الفرار منه يوم الزحف، وعلى أنه من الكبائر؛ لأنه توعد عليه وعيدا شديدا.

الثاني: ظاهر الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرف أو التحيز، وهو مروي عن ابن عباس، واختاره أبو مسلم. قال الحاكم: وعليه أكثر الفقهاء.

وروى عن جماعة من السلف أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر)، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وأجيب بأن الإشارة في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم لقاء الزحف كما يفيده السياق، لا إلى يوم بدر. الثالث: ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: جماعة أخرى من المسلمين سِوى التي هو فيها، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت، وقد روي أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر ﷺ: «لو تحيز إلي لكنت له فئة»[٢]. وفي رواية عنه: «أيها الناس! أنا فئتكم». وقال الضحاك: المتحيز إلى فئة الفار إلى النبي وأصحابه. وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه. وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال: من فر من سرية إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة...

قال الحاكم في (مسألة الفرار): إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده. فإن

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٠).

(٢) أخرجه: البيهقي (٩/ ٧٧)، وقال الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ٢٨): «هذا سند صحيح على شرط مسلم».

ظن المقاومة لم يحل الفرار. وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت، إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات. .

وعن الكرخي: أن الثبات والمصابرة واجب، إذا لم يخش الاستئصال، وعرف عدم نكايته للكفار، والتجأ إلى مصر للمسلمين، أو جيش، وهكذا أطلق في (شرح الإبانة) فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه.

الرابع: روي عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[١] قال الحاكم: إذا أمكن الجمع فلا نسخ. وأقول: كنا أسلفنا أن السلف كثيرًا ما يعنون بـ (النسخ) تقييد المطلق، أو تخصيص العام، فلا ينافي كونها محكمة إطلاقهم النسخ عليها.

قال بعض الأئمة: هذه الآية عامة تقضي بوجوب المصابرة، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافا كثيرة. لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى في السورة هذه: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾[٢] فأوجب اللَّه المصابرة على الواحد للعشرة؛ لأنه خبر معناه الأمر. فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم اللَّه تعالى أوجب على الواحد مصابرة الاثنين، فقال تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾.

وعن ابن عباس: من فر من اثنين فقد فر، ومن فر من ثلاثة فلم يفر[٣].

وبالجملة، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضِّعف، فإن هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه اللَّه في آية الضِّعف.

وفي (المهذب): إن زاد عددهم على مثلي عدد المسلمين، جاز الفرار. لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون فالأفضل الثبات. وإن ظنوا الهلاك، فوجهان: يلزم

---

(١) الأنفال: الآية (٦٦).

(٢) الأنفال: الآية (٦٥).

(٣) أخرجه: البيهقي (٩/ ٧٦)، وقال الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ٢٨-٢٩): «إسناده صحيح، وهو وإن كان موقوفا، فله حكم المرفوع، بدليل القرآن وسبب النزول الذي حفظه لنا ابن عباس أيضا ﷺ، وله عنه طريقان.» وذكرهما.

الانصراف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]. والثاني: يستحب ولا يجب؛ لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة. وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين، فإن لم يظنوا الهلاك لم يجز الفرار. وإن ظنوه فوجهان: يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ولا يجوز، وصححوه لظاهر الآية»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ هو درس للمؤمنين يتلقونه في هذا الموقف الذي شهدوا فيه آيات اللّٰه، ورأوا بأعينهم أمداد نصره وتأييده، فليكن ذلك درسا لهم يتلقون منه العظة والعبرة، وليصحبهم هذا الدرس في كل موقف بعد هذا يكون فيه بينهم وبين المشركين والكافرين قتال. فهو نداء عام للمؤمنين المجاهدين في سبيل اللّٰه، بأن يثبتوا للعدو، وأن يلقوه لقاء جادا مصمما على النصر أو الاستشهاد في المعركة، دون أن يدخل على أحد منهم شعور بالفرار من وجه العدو، أيّا كان الموقف، وأيّا كانت قوة المشركين وشوكتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هو وعيد شديد لمن يدخل على نفسه من المؤمنين شعور بالهزيمة، فينكص على عقبه، ويعطي العدو دبره في أي موقف من مواقف القتال بين المؤمنين والمشركين. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو أي كان، لا يراد به يوم بعينه، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين بجعل هذا اليوم خاصا بيوم بدر. وهذا فوق أنه غير متفق مع الدعوة العامة التي حملها القرآن الكريم إلى المؤمنين في آيات كثيرة بالثبات في الجهاد، غير متفق كذلك مع ترتيب الأحداث، إذ أن سورة الأنفال نزلت بعد بدر وأحداثها، وذلك باتفاق.

وحال واحدة هي التي يحق للمؤمن فيها أن يعطي العدو ظهره، وهو أن يتحرف لقتال، أي يرى تغيير موقفه الذي هو فيه، ويتخير موقفا آخر أمكن له، وأصلح لموقفه في القتال، أو أن يتحيز إلى فئة من المؤمنين، فينتقل من جماعة إلى جماعة، حيث يرى في ذلك مصلحة في النكاية بالعدو. فهذا التولي بالوجه عن مواجهة العدو هنا

(١) البقرة: الآية (١٩٥).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٢٣-٢٦).

هو لحساب المعركة، لا لحسابه، ولا للضن بنفسه عن أن يواجه العدو، ولو كان فيه الموت.

وفي التعبير عن الصد عن العدو، والفرار منه بتولية الدبر، تشنيع على من يأتي هذا الفعل، وفضح له، إذ كان كأنما يكشف سوأته لعدوه أو يعطيه دبره!»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التولّي يوم الزحف

* عن أبي سعيد ﷺ قال: «**نزلت في يوم بدر** ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال نقلا عن الإمام الطبري: «الفرار المكروه الذي وعد اللّه عليه الانتقام: الانهزام على نية ترك العود لقتالهم إذا وجدوا قوة.

وأما الاستطراد للكرة أو التحيز إلى فئة عند قهر العدو المسلمين لمكيدة أو كثرة عدد فليس ذلك من الفرار الذي توعد اللّه المؤمنين عليه، ولو كان ذلك فرارًا لكان القوم يوم حنين قد استحقوا من اللّه الوعيد، وذلك أنه تعالى أخبر عنهم أنهم ولوا مدبرين بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(٣) فولوا عن رسول اللّه وهم أكثر ما كانوا عددًا وأتم سلاحًا، لم يوجب لهم غضبه؛ بل قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾(٤) ولو كان إدبارهم يومئذ على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة؛ لكانوا قد استحقوا وعيده تعالى.

وبمثل ما قلناه قال السلف، روى داود، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾. قال: كان ذلك يوم بدر»(٥).

قال الشافعي: «إذا غزا المسلمون أو غزوا فتهيئوا للقتال فلقوا ضعفهم من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٨٠-٥٨١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٠٧/ ٢٦٤٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٠-٣٥١/ ١١٢٠٣-١١٢٠٤)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٧) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) التوبة: الآية (٢٥). (٤) التوبة: الآية (٢٦).

(٥) شرح البخاري (٥/ ١١٠).

العدو حرم عليهم أن يولوا عنهم إلا متحرفين إلى فئة، فإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا عنهم، ولا يستوجب السخط عندي من اللَّه عز وعلا لو ولوا عنهم إلى غير التحرف للقتال والتحيز إلى فئة؛ لأن بيَّنَّا أن اللَّه ﷻ إنما يوجب سخطه على من ترك فرضه، وأن فرض اللَّه ﷻ في الجهاد إنما هو على أن يجاهد المسلمون ضعفهم من العدو، ويأثم المسلمون لو أطل عدو على أحد من المسلمين وهم يقدرون على الخروج إليه بلا تضييع لما خلفهم من ثغرهم إذا كان العدو ضعفهم وأقل.

قال: وإذا لقي المسلمون العدو فكثرهم العدو، أو قووا عليهم وإن لم يكثروهم بمكيدة أو غيرها فولى المسلمون غير متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة رجوت أن لا يأثموا، ولا يخرجون واللَّه تعالى أعلم من المأثم إلا بأن لا يولوا العدو دبرا إلا وهم ينوون أحد الأمرين من التحرف إلى القتال أو التحيز إلى فئة، فإن ولوا على غير نية واحدة من الأمرين خشيت أن يأثموا، وأن يحدثوا بعد نية خير لهم، ومن فعل هذا منهم تقرب إلى اللَّه ﷻ بما استطاع من خير بلا كفارة معلومة فيه»[1].

قال ابن قدامة: «وجملته أنه إذا التقى المسلمون والكفار، وجب الثبات، وحرم الفرار بدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، وذكر النبي ﷺ الفرار يوم الزحف، فعده من الكبائر.

وحكي عن الحسن والضحاك أن هذا كان يوم بدر خاصة ولا يجب في غيرها، والأمر مطلق وخبر النبي ﷺ عام، فلا يجوز التقييد والتخصيص إلا بدليل، وإنما يجب الثبات بشرطين: أحدهما: أن يكون الكفار لا يزيدون على ضعف المسلمين، فإن زادوا عليه جاز الفرار لقول اللَّه تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾[3].

وهذا إن كان لفظه لفظ الخبر، فهو أمر، بدليل قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ

---

(١) الأم (٩/ ٤٢).
(٢) الأنفال: الآية (٤٥).
(٣) الأنفال: الآية (٦٦).

عَنكُمْ﴾ولو كان خبرا على حقيقته، لم يكن ردنا من غلبة الواحد للعشرة إلى غلبة الاثنين تخفيفا، ولأن خبر اللَّه تعالى صدق لا يقع بخلاف مخبره، وقد علم أن الظفر والغلبة لا يحصل للمسلمين في كل موطن يكون العدو فيه ضعف المسلمين فما دون، فعلم أنه أمر وفرض، ولم يأت شيء ينسخ هذه الآية، لا في كتاب ولا سنة، فوجب الحكم بها . .

الثاني: أن لا يقصد بفراره التحيز إلى فئة، ولا التحرف لقتال، فإن قصد أحد هذين فهو مباح له، لقول اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾. ومعنى التحرف للقتال، أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن، مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس، أو الريح إلى استدبارهما أو من نزلة إلى علو، أو من معطشة إلى موضع ماء، أو يفر بين أيديهم لتنتقض صفوفهم، أو تنفرد خيلهم من رجالتهم، أو ليجد فيهم فرصة، أو ليستند إلى جبل، ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب»[1].

وقال: «وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة، والنجاة في الانصراف، فالأولى لهم الانصراف، وإن ثبتوا جاز؛ لأن لهم غرضا في الشهادة، ويجوز أن يغلبوا أيضًا. وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة والانصراف، فالأولى لهم الثبات؛ لينالوا درجة الشهداء المقبلين على القتال محتسبين، فيكون أفضل من المولين، ولأنه يجوز أن يغلبوا أيضًا؛ فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. ولذلك صبر عاصم وأصحابه، فقاتلوا حتى أكرمهم اللَّه بالشهادة[3]»[4].

وقال أيضًا: «وإذا خشي الأسر، فالأولى له أن يقاتل حتى يُقتل، ولا يسلّم نفسه للأسر؛ لأنه يفوز بالثواب والدرجة الرفيعة، ويسلم من تحكّم الكفار عليه بالتعذيب والاستخدام والفتنة. وإن استأسر جاز؛ لما روى أبوهريرة: «أن النبي ﷺ بعث عشرةً عينًا، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، فنفرت إليهم هذيل بقريب من مائة رجل

---

(١) المغني (١٣/ ١٨٦-١٨٨).

(٢) البقرة: الآية (٢٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٤-٢٩٥)، والبخاري (٦/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٣٠٤٥)، وأبو داود (٣/ ١١٥-١١٦/ ٢٦٦٠).

(٤) المغني (١٣/ ١٨٩).

رام، فلما أحس عاصم وأصحابه، لجؤوا إلى فدفد، فقالوا لهم: انزلوا فأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر. فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصمًا في سبعة معه، ونزل إليهم ثلاثة على العهد والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدثنة، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتار قسيهم، فربطوهم بها»[1]. متفق عليه. فعاصم أخذ بالعزيمة، وخبيب وزيد أخذا بالرخصة، وكلهم محمود غير مذموم ولا ملوم»[2].

* عن أبي اليسر أن رسول الله ﷺ كان يدعو: **«اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغم والغرق، والحرق، والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديغًا»**[3].

* عن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف»**[4].

★ غريب الحديثين:

الهدم: البناء المهدوم، وهو أن ينهار عليه بناء.

التردّي: تردّى: أي سقط.

الهرم: الكبر.

لديغًا: لدغته العقرب والحية، فهو ملدوغ ولديغ.

---

(١) أخرج: أحمد (٢/ ٢٩٤-٢٩٥)، والبخاري (٧/ ٣٩٢-٣٩٣/ ٣٩٨٩)، وأبو داود (٣/ ١١٥-١١٦/ ٢٦٦٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦١-٢٦٣/ ٨٨٣٩). (٢) المغني (١٣/ ١٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢٧)، وأبو داود (٢/ ١٩٤/ ١٥٥٢-١٥٥٣)، والنسائي (٨/ ٦٧٧-٦٧٨/ ٥٥٤٦-٥٥٤٧)، وصححه الحاكم (١/ ٥٣١).

(٤) أخرجه: البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٧٩-٣٨٠/ ١٢٧٦)، وأبو داود (٢/ ١٧٨/ ١٥١٧)، والترمذي (٥/ ٥٣١/ ٣٥٧٧) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وللحديث شاهد يتقوى به من رواية عبد الله بن مسعود، أخرجه الحاكم (١/ ٥١١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «أبو سنان هو ضرار بن مرة لم يخرج له البخاري». وأبو سنان هذا قال فيه الحافظ في التقريب: «ثقة ثبت»، أخرج له البخاري في الأدب المفرد ومسلم وغيرهما.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الطيبي: «قوله: «**أن أموت في سبيلك مدبرا**» عبارة عن الفرار عن الزحف حيث لا يجوز الزحف، هذا وما أشبه ذلك تعليم للأمة، وإلا فرسول اللَّه ﷺ لا يجوز له الفرار»(١).

قوله: «وإن كان قد فر من الزحف»:

قال المناوي: ««**وإن كان قد فر من الزحف**» حيث لا يجوز الفرار لكون عددنا لا يبلغ عدد نصف الكفار. قال الطيبي: في تخصيص ذكر الفرار من الزحف إدماج معنى أن نصف هذا الذنب من أعظم الكبائر؛ لأن السياق وارد في الاستغفار، وعبارة «**في**» المبالغة عن حط الذنوب عنه. فيلزم بإشارته أن هذا الذنب أعظم الذنوب»(٢).

قال المباركفوري: «قال المظهر: هو اجتماع الجيش في وجه العدو، أي من حرب الكفار حيث لا يجوز الفرار، بأن لا يزيد الكفار على المسلمين مثلي عدد المسلمين، ولا نوى التحرف والتحيز»(٣).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن** يا رسول الله؟ قال: **الإشراك باللَّه، والسحر، وقتل النفس التي حرّم اللَّه إلا بالحقّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الشوكاني: «يدل على أن الفرار من الكبائر المحرّمة وقد ذهب جماعة من أهل العلم أن الفرار من موجبات الفسق قال في البحر: ومهما حرمت الهزيمة فسق المنهزم»(٥).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/ ١٩٢٠).

(٢) فيض القدير (٦/ ٥٧).

(٣) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٣).

(٤) أخرجه: البخاري (٥/ ٤٩٤/ ٢٧٦٦)، ومسلم (١/ ٩٢/ ٩٠)، وأبو داود (٣/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٢٨٧٤)، والنسائي (٦/ ٥٦٨/ ٣٦٧٣).

(٥) نيل الأوطار (٧/ ٢٥٢-٢٥٣).

وقال أيضًا : «ثبت في الصحيحين وغيرهما : أن الفرار من الزحف هو من السبع الموبقات. ولا خلاف في ذلك في الجملة وإن اختلفوا في مسوغات الفرار. وقد جوز اللَّه تعالى الفرار إلى الفئة. وأما التحرف للقتال فهو وإن كان فيه تولية الدبر لكنه ليس بفرار على الحقيقة.

قال في المسوى : قوله : ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ هو أن ينصرف من ضيق إلى سعة، أو من سفل إلى علو، أو من مكان منكشف إلى مستتر ونحو ذلك مما هو أمكن له في القتال. قوله : ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ أي يصير إلى حيز فئة من المسلمين يستنجدهم ويقاتل معهم، وبالجملة يجب ثبات المسلمين يوم الزحف في مقابلة زحفهم من الكفار، والفرار حينئذ كبيرة»[١].

قال المناوي : ««التولي» أي : الإدبار من وجوه الكفار. «يوم الزحف» أي وقت ازدحام الطائفتين، إلا إن علم أنه إن ثبت قتل بغير نكاية في العدو فليس بكبيرة؛ بل ولا صغيرة؛ بل يباح؛ بل يجب.

قال ابن عبد السلام : وأشد منه ما لو دل الكفار على عورة المسلمين عالما بأنهم يستأصلونهم ويسبون حريمهم»[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين : «التولي يوم الزحف من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل اللَّه، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء اللَّه، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية وهي قوله تعالى : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣].

فاللَّه سبحانه استثنى حالتين :

الأولى : أن يكون متحرفا لقتال؛ أي : متهيئا له كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متوليا إنما يعد متهيئا.

---

(١) الروضة الندية (٢/ ٧٢٩-٧٣٠).

(٢) فيض القدير (١/ ١٥٣).

(٣) الأنفال : الآية (١٦).

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر، وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش، وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز؛ لأن المقصود إظهار دين اللَّه، وفي هذا إذلال لدين اللَّه، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾[1] أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها. فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم»[2].

قلت: ويستفاد من الآيات ومن الأحاديث مما تقدم، أن الجهاد في سبيل اللَّه شرع في أصله لإعلاء كلمة اللَّه، ونصرة دينه، والنصوص الواردة في التولي عند القيام أمام العدو واضحة في الوعيد، وهكذا الدعوة إلى اللَّه في كل زمان ومكان، جهاد متواصل، يقصد به نصرة الإسلام، وإعلاء كلمته، وما ورد من الوعيد في المتولين عن الزحف، يصدق كله في المتولين عن الدعوة إلى اللَّه، ولاسيما الذين تأهلوا بعلمهم ومالهم، وجاههم، وكل ما أوتوا، فمن شغله من الدعاة منصبه، أو شغله جمع المال، ووضعه في الحسابات البنكية، أو التوسع في العقارات، إلى غير ذلك، مما هو من أساليب أهل الدنيا، الوعيد الشديد فيه كالوعيد في الفار يوم الزحف. فيا دعاة الإسلام! ويا علماء الإسلام! اللَّه اللَّه أن يؤتى الإسلام من قبلكم، وتكونوا سوطًا يضرب به أهل الإسلام، وأداة مسخرة لعدو المسلمين، يفعل بها ما شاء من شاء وكيف شاء، وبأي لقب شاء، فما أكثر هذا في زماننا، فإن معظم الناس خذلوا هذا الدين، واللَّه المستعان وحسبي اللَّه ونعم الوكيل.

* * *

(١) الأنفال: الآية (٦٦).

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٠-٢١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به وبرسوله ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش: فلم تقتلوا المشركين، أيها المؤمنون، أنتم، ولكن الله قتلهم.

وأضاف -جل ثناؤه- قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان -جل ثناؤه- هو مسبِّب قتلهم، وعن أمره كان قتالُ المؤمنين إياهم. ففي ذلك أدل دليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صنع به وصلوا إليها»[1].

قال ابن كثير: «يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم؛ أي: بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[3] يعلم -تبارك وتعالى- أن النصر ليس على كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٤). (٢) آل عمران: الآية (١٢٣).
(٣) التوبة: الآية (٢٥).

ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(١)»(٢).

قال محمد رشيد رضا: «أما قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فهو وصل للنهي عن التولي بما هو حجة على جدارتهم بالانتهاء، فإن كانت الآية التي قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال في غزوة بدر كسائر السورة، كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلي، كأنه يقول يا أيها المؤمنون لا تولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر اللّه تعالى، فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم، وإنما ذلك بتأييد اللّه تعالى لكم، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن اللّه قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم، وبإلقائه الرعب في قلوبهم، فهو بمعنى قوله ﷻ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، والمؤمن أجدر بالصبر الذي هو الركن الأعظم للنصر من الكافر؛ لأنه أقل حرصا على متاع الدنيا، وأعظم رجاء باللّه والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾(٣) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء، على الخائفين من كثرة الأعداء ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾:

قال القرطبي: «اختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال:

الأول: إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول اللّه ﷺ يوم حنين، رواه ابن وهب عن مالك، قال مالك: ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك، وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضًا.

الثاني: أن هذا كان يوم أحد حين رمى أبي ابن خلف بالحربة في عنقه... وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر.

---

(١) البقرة: الآية (٢٤٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٠).
(٣) النساء: الآية (١٠٤).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٢٠).

الثالث: أن المراد السهم الذي رمى به رسول اللَّه ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه. وهذا أيضًا فاسد، وخيبر وفتحها أبعد من أحد بكثير. والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا.

الرابع: أنها كانت يوم بدر، قاله ابن إسحاق: وهو أصح؛ لأن السورة بدرية، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «خذ قبضة من التراب». فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة»[(١)].

واستغرب الحافظ ابن كثير القولين الثاني والثالث. فقال بخصوص الثاني: «وهذا القول عن هذين الإمامين -يقصد سعيد بن المسيب والزهري اللذين رويا هذا القول- غريب أيضًا جدا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة».

وقال بخصوص القول الثالث: «وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، واللَّه أعلم»[(٢)].

وضعفهما ابن عطية -أي: القولين الثاني والثالث- بقوله: «وهذان القولان ضعيفان»[(٣)].

والقول الرابع قول عامة المفسرين، وهو الأصح، وإلا لدخل في أثناء القصة كلام أجنبي عنها، وذلك لا يليق بنظم الكلام[(٤)].

قال الطبري: «أضاف الرميَّ إلى نبي اللَّه، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي إذ كان -جل ثناؤه- هو الموصل المرميَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبِّب الرمية لرسوله.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا قد علمتم إضافة اللَّه رَمْيِ نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١-٣٢).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٥١١).

(٤) أفاده الرازي في التفسير الكبير (١٥/ ١٤٥).

بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فعلٌ واحد، كان من اللَّه تسبيبه وتسديده، ومن رسول اللَّه ﷺ الحذفُ والإرسال، فما تنكرون أن يكون كذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة: من اللَّه الإنشاء والإنجاز بالتسبيب، ومن الخلق الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولا إلا ألزموا في الآخر مثله»(١).

قال ابن القيم: «ظن طائفة أن الآية دلت على نفي الفعل عن العبد، وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع، ومعنى الآية: أن اللَّه سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال»(٢).

وقال أيضًا: «وكذلك القتل الذي نفاه عنهم، هو قتل لم تباشره أيديهم، وإنما باشرته أيدي الملائكة، فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك، ولو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص، لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل، وكل فعل من شرب، أو زنا، أو سرقة، أو ظلم، فإن اللَّه خالق الجميع، وكلام اللَّه ينزه عن هذا»(٣).

قال محمد رشيد رضا: «وأما الفرق بين فعله تعالى في القتل وفعله في الرمي. فالأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التي تقدم بيانها، كما هو الشأن في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها إلا بفعل اللَّه وتسخيره لهم، وللأسباب التي لا يصل إليها كسبهم عادة، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾(٤) الخ، فالإنسان يحرث الأرض ويلقي فيها البزر، ولكنه لا يملك إنزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر، ولا دفع الجوائح عنه. ولا يستقل إيجاد الزرع وبلوغ ثمرته صلاحها بكسبه وجده. وأما الثاني فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره. فالرمي منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله، فمثله في ذلك كمثل أخيه

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٤).
(٢) زاد المعاد (٣/ ١٨٢-١٨٣).
(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٩٨).
(٤) الواقعة: الآيات (٦٣ -٦٥).

موسى عليه السلام في إلقائه العصا ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[1] فخاف منها أولا كما ورد في سورتي طه والنمل.

هذا ما يدل عليه نظم الكلام بلا تكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها، فالجبري يحتج بها على سلب الاختيار وكون الإنسان كالريشة في الهواء، والاتحادي يحتج بها على وحدة الوجود، وكون العبد هو الرب المعبود، والأشعري يحتج بها على الجمع بين كسب العبد وخلق الرب بإسناد الرمي إلى النبي ﷺ وإلى الخالق ﷻ. وهو يغني عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالأولى، والقرآن فوق المذاهب وقبلها، غني بفصاحته وبلاغته عن هذه التأويلات كلها ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2] وكلام الله فوق ما يظنون»[3].

قلت: فلله دره ما أجمله من كلام لو وجد آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، ولكنه الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، وترسخ الباطل وترسيخه في أذهان أناس اختاروا طريقه. وإلا كما قال الشيخ رحمه الله فإن آيات القرآن واضحة، وكلام سيد الخلق كله نور وبرهان، اتصف بالوضوح والبلاغة وجوامع الكلم التي لا يتصف بها إلا نبي مرسل. فيا ليت أمته التي تنتسب إليه ترجع إلى سنته، وإلى ما جاء به من كتاب فتعض عليهما بالنواجذ، وتجعلهما القدوة والهدى التي يتنافس فيهما وبهما. اللهم اجعلنا ممن اهتدى بهديه وتنافس في كتابه وسنة نبيه.

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ فإن معناه: ولينعم على المؤمنين بالله ورسوله بالظفر بأعدائهم، ويغنمهم ما معهم، ويثبت لهم أجور أعمالهم، وجهادهم مع رسول ﷺ وذلك البلاء الحسن، رمي الله هؤلاء المشركين، ويعني بالبلاء الحسن النعمة الحسنة الجميلة، وهي ما وصفت، وما في معناه»[4].

قال الرازي: «قال القاضي: ولولا أن المفسرين اتفقوا على حمل الابتلاء هاهنا على النعمة، وإلا لكان يحتمل المحنة بالتكليف فيما بعده من الجهاد، حتى يقال: إن الذي فعله تعالى يوم بدر، كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما

---

(١) طه: الآية (٢٠).
(٢) المؤمنون: الآية (٥٣).
(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٢٢).
(٤) جامع البيان (٩/ ٢٠٦).

بعد ذلك من الغزوات»[١].

قال محمد رشيد رضا: «وأما قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله، أي أنه فعل ما ذكر لإقامة حجته وتأييد رسوله ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ بالنصر والغنيمة وحسن السمعة. والبلاء: الاختبار بالحسن أو بالسيء، كما قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢] وتقدم بيانه بالتفصيل. وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن. والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم إياه وحده، عليم بصدقهم وإخلاصهم، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك، كما أنه سميع لكل نداء وكلام، عليم بالنيات الباعثة عليه، والعواقب التي تنشأ عنه، وبكل شيء»[٣].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: إن اللَّه سميع أيها المؤمنون لدعاء النبي ﷺ، ومناشدته ربه، ومسألته إياه إهلاك عدوه وعدوكم، ولقيلكم وقيل جميع خلقه، عليم بذلك كله وبما فيه صلاحكم وصلاح عباده، وغير ذلك من الأشياء محيط به، فاتقوه وأطيعوا أمره وأمر رسوله»[٤].

قال الرازي: «وهذا يجري مجرى التهديد، والترهيب، لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور، ويعلم أن الخالق تعالى مطلع على كل ما في الضمائر والقلوب»[٥].

قال محمد رشيد رضا: «وفيها أي الآية بيان لخذلانه تعالى لهم أي للمشركين، وتمكين المؤمنين من قتلهم ببدر بتأييده ونصره»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الدالّ على الخير كفاعله وفضيلة الرّمي في سبيل الله

* عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه يدخل الثلاثة**

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ١٤٥).
(٢) الأعراف: الآية (١٦٨).
(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٢٣)،
(٤) جامع البيان (٩/ ٢٠٦).
(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٤٥).
(٦) تفسير المنار (١٠/ ١٥٧).

بالسهم الواحد الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والممد به، والرامي به، وقال: ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إلي من أن تركبوا، وكل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسه، وملاعبَته امرأته، فإنهن من الحق، ومن نسي الرمي بعد ما عَلِمه فقد كَفَر الذي علمه»[١].

★ غريب الحديث:

نفر: هم رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجال خاصة، ما بين الثلاثة إلى العشرة، ولا واحد له من لفظه.

منبله: يقال: نَبَّلْتُ الرجل، بالتشديد: إذا ناولته النبل ليرمي. وكذلك أنبلته. ويجوز أن يكون المنبل الذي يرد النبل على الرامي من الهدف.

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «فيه دليل على أن العمل في آلات الجهاد وإصلاحها وإعدادها كالجهاد في استحقاق فاعله الجنة، ولكن بشرط أن يكون ذلك لمحض التقرب إلى اللَّه بإعانة المجاهدين، ولهذا قال: «**الذي يحتسب في صنعته الخير**». وأما من يصنع ذلك لما يعطاه من الأجرة فهو من المشغولين بعمل الدنيا لا بعمل الآخرة. نعم، يثاب مع صلاح النية كمن يعمل بالأجرة التي يستغني بها عن الناس أو يعول بها قرابته. ولهذا ثبت في الصحيح «**أن الرجل يؤجر حتى على اللقمة يضعها في فم امرأته**»[٢]»[٣].

وقال أيضًا: «فيه تصريح بأن الرمي أفضل من الركوب، ولعل ذلك لشدة نكايته في العدو في كل موطن يقوم فيه القتال وفي جميع الأوقات، بخلاف الخيل فإنها لا تقابل إلا في المواطن التي يمكن فيها الجولان دون المواضع التي فيها صعوبة

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٤)، وأبو داود (٣/ ٢٨-٢٩/ ٢٥١٣)، والترمذي (٤/ ١٤٩/ ١٦٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٣٢/ ٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠/ ٢٨١١)، والحاكم (٢/ ٩٥) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٩)، والبخاري (١/ ١٨١/ ٥٦)، ومسلم (٣/ ١٢٥٠-١٢٥١/ ١٦٢٨)، وأبو داود (٣/ ٢٨٤-٢٨٦/ ٢٨٦٤)، والترمذي (٤/ ٣٧٤/ ٢١١٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٣/ ٩٢٠٦) كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٣) نيل الأوطار (٨/ ٨٦).

لا تتمكن الخيل من الجريان فيها، وكذلك المعاقل والحصون. قوله: «**كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل**» الخ: فيه أن ما صدق عليه مسمى اللهو داخل في حيز البطلان إلا تلك الثلاثة الأمور، فإنها وإن كانت في صورة اللهو، فهي طاعات مقربة إلى اللَّه ﷺ، مع الالتفات إلى ما يترتب على ذلك الفعل من النفع الديني»[١].

قال الخطابي: «في هذا بيان أن جميع أنواع اللهو محظورة، وإنما استثنى رسول اللَّه ﷺ هذه الخلال من جملة ما حرم منها؛ لأن كل واحدة منها إذا تأملتها وجدتها معينة على حق أو ذريعة إليه، ويدخل في معناها ما كان من المثاقفة بالسلاح، والشد على الأقدام ونحوهما مما يرتاض به الإنسان، فيتوقح بذلك بدنه، ويتقوى به على مجالدة العدو.

فأما سائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو كالنرد والشطرنج والمزاجلة بالحمام وسائر ضروب اللعب مما لا يستعان به في حق ولا يستجم به لدرك واجب فمحظور كله»[٢].

قال القرطبي: «معنى هذا، واللَّه أعلم أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده في العاجل ولا في الآجل فائدة فهو باطل، والإعراض عنه أولى. وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهّى بها ويَنْشَط، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد، فإن الرمي بالقوس وتأديب الفرس جميعًا من مَعاوِن القتال. وملاعبة الأهل قد تؤدي إلى ما يكون عنه ولد يوحد اللَّه ويعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق. وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ: «**إن اللَّه يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي، ومُنْبله**». وفضل الرمي عظيم، ومنفعته عظيمة للمسلمين، ونكايته شديدة على الكافرين. قال ﷺ: «**يا بني إسماعيل ارموا فإن أباكم كان راميا**»[٣]. وتعلم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية. وقد يتعين»[٤].

---

(١) نيل الأوطار (٨/ ٨٦). (٢) معالم السنن (٢/ ٢٠٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٠)، والبخاري (٦/ ١١٣/ ٢٨٩٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٤-٢٥).

قلت: هؤلاء هم الذين فهموا عن اللَّه وعن رسوله، فلم يجاوزوا ذلك ولم يتوسعوا في الأمور توسعا يضيع به الدين. فإعداد الإنسان نفسه أو غيره لإقامة دين اللَّه لمواجهة أهل الشرك والكفر بأي نوع من أنواع الإعداد، وتعلم الأسلحة وآخر ما جدَّ منها والجهاد في سبيل اللَّه تحتَ قيادة أئمة الإسلام أمر عظيم. وكذلك تعليمه العلم النافع الذي يعده لدحض شبهات المنصرين والمستشرقين والشيوعيين والعلمانيين والحداثيين وكل من يواجه الإسلام بأسلحته الهدامة لمعالمه وسننه، فكل هذا نوع من أنواع الإعداد. وهكذا جمع كلمة الأمة، وتأليف قلوبها، وعدم إحداث الزلازل والقلاقل في ديارها، بالقول أو الفعل فإن هذا من الجهاد في سبيل اللَّه. فلا يقتصر فقط على الرمي والفروسية، وإن كان هذا من أهم الأمور. فينظر إلى الأمر بنظرة واسعة لإعداد الدعاة، لرد ما يكيد الأعداء من مؤامرة مستمرة تحاك لهم بالليل والنهار.

وبكل أسف فقد ضاعت الجهود والأموال، وأضحى إعداد الأمم فيما يضرهم ولا ينفعهم، كالبنايات الضخمة التي تقام للعب كرة القدم، وكالإسراف الذي يقع في الإنفاق على اللاعبين، كل هذا لا يقدم للأمة شيئًا؛ بل يشغلها عن واجبها. فيا حسرة على واقع مليء بالعبث والضياع والإسراف وتوجيه الأمة الإسلامية إلى ما يضرها ولا ينفعها. اللهم رد الأمة ردًّا جميلًا كي تفهم واقعها ولتحمي ذاتها وأبنائها؛ فإنهم قد ضاعوا وفتكت بهم الأمراض.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ **فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، أو قال: يده، قال: الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع، ولا مكافئ، ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة، وبصر من العماية، وفضل على كثير ممن خلق تفضيلا، الحمد لله رب العالمين**»[1].

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٨٢/ ١٠١٣٣)، وابن السني في عمل اليوم (٤٨٥)، والحاكم (١/ ٥٤٦)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه أيضا ابن حبان الإحسان(١٢/ ٢٢-٢٣/ ٥٢١٩).

★ غريب الحديث:

مودع: أي: غير متروك الطلب إليه، والرغبة فيما عنده.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل لمن قال بأن المعنى الصحيح للبلاء في الآية هو النعمة والمنحة لا المحنة، وذلك لأن النبي ﷺ سمى النعم التي أنعم الله بها على الناس بلاء حسنا فقال: «**وكل بلاء حسن أبلانا**».

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

★غريب الآية:

موهن: الوهن ضعف من حيث الخلْق والخلُق قال الفراء يقال: وهنه اللَّه وأوهنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير الطبري: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، هذا الفعل من قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم، وإمكانهم من قتلهم وأسرهم فعلنا الذي فعلنا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول: واعلموا أن اللَّه مع ذلك مُضْعِف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يعنى: مكرهم، حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحق، أو يُهْلَكوا»[١].

قال الرازي: «توهين اللَّه تعالى كيدهم يكون بأشياء، بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «لما كان من سنة القرآن المقابلة بين الإيمان والكفر، وبين أهل كل منهما، وجزائهما عليهما قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الأمر في المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذي سمعتم، ويضاف إليه تعليل آخر وهو أن اللَّه تعالى موهن كيد الكافرين، أي مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن تقوى وتشتد. . .

وقد صرح التنزيل بجزاء الفريقين في تعليل آخر في عاقبة الحرب، قال في سياق

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٦).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٤٦).

غزوة أحد من سورة آل عمران ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[1].

قال ابن كثير: «هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغرا أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار»[2].

قال القاسمي: «وقد وجد المخبر على وفق الخبر، فصار معجزة للنبي ﷺ ولله الحمد والمنة»[3].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٣٩).

قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾

★ غريب الآية:

الاستفتاح: طلب الفتح، وهو النصر الذي يفتح بلاد العدو.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «المراد بالفتح هنا في هذه الآية عند جمهور العلماء: الحكم، وذلك أن قريشًا لما أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنهم قطان بيت اللّه الحرام، وأنهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأن محمدًا ﷺ فرق الجماعة، وقطع الرحم، وسفه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا اللّه أن يحكم بينهم وبين النّبي ﷺ، بأن يهلك الظالم منهم، وينصر المحق. فحكم اللّه بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية، ويدل على أن المراد بالفتح هنا الحكم، أنه تعالى أتبعه مما يدل على أن الخطاب لكفار مكة، وهو قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، وبين ذلك إطلاق الفتح بمعنى الحكم في القرآن في قوله عن شعيب وقومه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1] أي: احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين، ويدل لذلك قوله تعالى: عن شعيب في نفس القصة ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[2]، وهذه لغة حمير؛ لأنهم يسمون القاضي فتاحًا والحكومة فتاحة، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ بني عمرو رسولا ... بأني عن فتاحتكم غني

---

(١) الأعراف: الآية (٨٩).

(٢) الأعراف: الآية (٨٧).

. . . أي عن حكومتكم وقضائكم، أما ما ذكره بعض أهل العلم من أن الخطاب في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ للمؤمنين. أي تطلبوا الفتح والنصر من اللّه، وأن الخطاب في قوله بعده: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ للكافرين. فهو غير ظاهر كما ترى»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا اللّه، وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم. . . وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر باللّه، والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[٢] معناه: وإن عدتم إلى ماكنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة، وقال السدي: ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي: إلى الاستفتاح، ﴿نَعُدْ﴾: إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى، ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان اللّه معه فلا غالب له، فإن اللّه مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي»[٣].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإنه يقول: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾، يا معشر قريش، وجماعة الكفار، عن الكفر باللّه ورسوله، وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، يقول: وإن تعودوا لحربه وقتاله وقتال أتباعه المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾؛ أي: بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر.

وقوله: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ يقول: وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم، ولن تغني عنكم عند عودي لقتلكم بأيديهم وسَبْيكم وهزمكم ﴿فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾؛ يعني: جندهم وجماعتهم من المشركين، كما لم يغنوا عنهم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول جل ذكره: وأن اللّه مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم،

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٥١).

(٢) الإسراء: الآية (٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢-٣٣).

ينصرهم عليهم، أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وإن تنتهوا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم؛ لأنكم لا تكونون إلا مغلوبين مخذولين كقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ والخيرية في هذه الحالة بالإضافة إلى الاستمرار على العدوان والقتال، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن المشركين، فتكون الخيرية على حقيقتها وكمالها. ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي: وإن تعودوا إلى مقاتلته نعد لما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم الذي يذل فيه شرككم، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيئًا من بأس اللَّه وبطشه ولو كثرت عددا، فالكثرة لا تكون سببًا للنصر، إلا إذا تساوت مع القلة في الثبات والصبر، والثقة باللَّه ﷻ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق، فلا تضرهم قلتهم»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «هو تهديد ووعيد للكافرين الذين يدلون بقوتهم، ويعتزون بكثرتهم.. فهاهم أولاء يشهدون بأعينهم كيف كان فعل اللَّه بهم، وكيف أخذهم اللَّه بيد أوليائه، ورماهم بالبلاء والذلة والهوان. والاستفتاح: طلب الفتح، وهو النصر والغلب.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ هو للمشركين، وهو بلاء فوق البلاء الذي أصيبوا به في يوم بدر، فقد جاءوا مستفتحين، أي طالبين النصر والغلب، فهذا هو النصر الذي طلبوه، وذلك هو شأنهم أبدا مع المؤمنين. إنهم لن يرجعوا إلا بنصر هكذا النصر الذي انقلبوا به، يحملون الخزي والعار، ويتركون في ميدان المعركة سادتهم وأشرافهم، أشلاء ممرغة في التراب!

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في هذا ما يكشف عن المستقبل المظلم الذي ينتظر المشركين، إذا هم

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٩).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٦٢٤).

أصروا على موقفهم من المسلمين، ولم ينتهوا عما هم عليه من بغي وعدوان، فإن كثرة عددهم، وشوكة قوتهم، لن تغني عنهم شيئًا. ولن تدفع قضاء اللَّه فيهم..

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تيئيس للمشركين من أنهم لن ينالوا من المسلمين منالا، وأن العاقبة للمؤمنين؛ لأن اللَّه معهم، فلينظروا هل ينتصرون على جبهة يكون اللَّه معها؟ فليجربوا!! وقد جربوا فعلا، فكان هذا الذي سجله التاريخ للدعوة الإسلامية، وما كتب اللَّه لأهلها من النصر والفتح المبين.. وكان هذا الوعد من القرآن الكريم في مطلع الدعوة الإسلامية معجزة من معجزاته، فيما كشف به عن حجب الغيب، وأنباء المستقبل»[(١)].

قال السعدي: «وهذه المعية التي أخبر اللَّه أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان، فإذا أديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين، وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر اللَّه به من كل وجه، لما انهزمت لهم راية انهزاما مستقرا، ولا أديل عليهم عدوهم أبدا»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة الاستفتاح، وذكر المستفتح

* عن عبد اللَّه بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال حين التقى القوم: «اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتى بما لا نعرف فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير: «يعني: إن تستحكموا اللَّه على أقطع الحزبين للرحم، وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم اللَّه، ونصره المظلوم على الظالم،

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٠/ ١١٢٠١)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٨) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

والمحق على المبطل»[1].

قال محمد رشيد رضا: «الفتح هو نصر النبي ودينه وأتباعه. وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغرورا بشركه واثقا بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك؛ بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي ﷺ»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٧).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٦٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾، يقول: ولا تدبروا عن رسول اللَّه ﷺ مخالفين أمره ونهيه ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾أمرَه إياكم ونهيه، وأنتم به مؤمنون. .

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين باللَّه ورسوله من أصحاب نبي اللَّه ﷺ: لا تكونوا أيها المؤمنون، في مخالفة رسول اللَّه ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب اللَّه يتلى عليهم قالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾، بآذاننا ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم، ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم اللَّه إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم، بمنزلة من لم يسمعها. يقول -جل ثناؤه- لأصحاب رسول اللَّه ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراض عن أمر رسول اللَّه، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب اللَّه بآذانهم، ويقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾، وهم عن الاستماع لها والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمَعُها»[١].

قال القرطبي: «الخطاب للمؤمنين المصدقين، أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم، جدد اللَّه عليهم الأمر بطاعة اللَّه والرسول، ونهاهم عن التولي عنه، هذا قول الجمهور»[٢].

قال ابن عطية: «وقالت فرقة: الخطاب في الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى يا

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢١٠-٢١١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨٧).

أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط، وهذا وإن كان محتملا على بعد، فهو ضعيف جدا، لأجل أن اللَّه وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان التصديق بشيء، وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجنبي من الآية»[1].

قال محمد رشيد رضا: «قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ، والحال أنكم تسمعون منه كلام اللَّه المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والإذعان، الذي هو شأن المؤمنين، الذين دأبهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[2] والموصوفين بقوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3] ثم قرر هذا المعنى، وبين مقابله بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وهم فريقان: الأول: الكفار المعاندون ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] وأمثالهم من الكفار والمعاندين والمقلدين... الثاني: المنافقون الذين قال اللَّه تعالى في بعضهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[5] وتقدم في سورة الأعراف من صفات أهل النار في الدنيا ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[6] مع آيات أخرى، والمراد في هذا أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل»[7].

قال أبو بكر بن العربي: «هذه الآية بيان شاف وإيضاح كاف في أن القول لا يكون إلا بالعمل، وأنه لا معنى لقول المؤمن: سمعت وأطعت، ما لم يظهر أثر قوله بامتثال فعله، فأما إذا قصر في الأوامر فلم يأتها واعتمد النواهي باقتحامها، فأي سمع عنده؟ وأي طاعة له؟ وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان ويسر الكفر، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٨٥).
(٣) الزمر: الآيتان (١٧-١٨).
(٤) النساء: الآية (٤٦).
(٥) محمد: الآية (١٦).
(٦) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٧) تفسير المنار (٩/ ٦٢٦).

يَسۡمَعُونَ﴾ الآية. يعني بذلك المنافقين، فالخبرة تكشف التلبيس، والفعل يظهر كمائن النفوس.»[١].

قال الألوسي: «وأعيد الضمير إليه عليه الصلاة والسلام؛ لأن المقصود طاعته ﷺ، وذكر طاعة اللَّه تعالى توطئة لطاعته، وهي مستلزمة لطاعة اللَّه تعالى؛ لأنه المبلغ عنه، فكان الراجع إليه كالراجع إلى اللَّه تعالى ورسوله»[٢].

* * *

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٤٥).

(٢) روح المعاني (٩/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

تولوا: أعرضوا. يقال: تَوَلَّى عن الأمر: إذا أعرض ونكص عنه رَغْبَةً عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله ﷻ فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1] الآية وقال في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2] وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش، روي عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه»[3].

---

(١) البقرة: الآية (١٧١).
(٢) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٣-٣٤).

قال ابن عطية: «المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله ﷻ، وأنها أخس المنازل لديه، عبر بـ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ ليتأكد ذمهم، وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع، والخمس الفواسق وغيرها، و﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ كل ما دب، فهو جميع الحيوان بجملته، وقوله: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصم والبكم وسلب العقل، وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم، وسبق من قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ والمراد لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى، ثم ابتدأ ﷻ الخبر عنهم بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي ولو أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: المعنيّ بهذه الآية المنافقون، وضعفه الطبري، وكذلك هو ضعيف»[1].

قال محمد رشيد رضا: «المعنى أن شر ما يدب على الأرض في حكم الله الحق هم الأشرار من البشر ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة، فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل. ويفرق بين الخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا، وتذكروا وذكروا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2] فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى، بأن خلقوا خداجا أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة؛ بل هم شر من هؤلاء؛ لأن هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف. فهم كما قال الشاعر:

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٣-٥١٤).

(٢) ق: الآية (٣٧).

خلقوا، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وإذا أردت فهم الآية فهما تفصيليا فارجع إلى تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1] ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الأعراف وآيتي البقرة؛ لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: ولو علم اللّه فيهم استعدادا للإيمان والهدى ببقية من نور الفطرة، لم تطفئها مفاسد التربية وسوء القدوة، لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر، ولكنه علم أنه لا خير فيهم؛ لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم، وختم على قلوبهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به -كما هو مدلول الجملة الحالية- كراهة وعنادا للداعي إليه ولأهله، لا توليا عارضا مؤقتا، وفرق عظيم بين التولي العارض لصارف موقت وتولي الإعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقدا تاما. ومن اضطرب في فهم الجمع بين التولي والإعراض فقد جهل معنى الجملة الحالية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز، والآية نص في أنه تعالى لم يسمعهم أي لم يوفقهم للسماع النافع؛ لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق المحبب للنفس في الخير، وقد فقدوا ذلك بإفسادهم لفطرتهم، وإطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين المكية بقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] وقوله في سورة البقرة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] ووصفهم فيها بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[4] وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٢) المطففين: الآية (١٤).
(٣) البقرة: الآية (٨١).
(٤) البقرة: الآية (١٨).

الأخرى منها ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1] يعني أنهم كسارحة النعم تسمع الصراخ الناعق فترفع رءوسها، ولكنها لا تفهم له معنى فإذا سكت عادت إلى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته:

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى

إذا أحس نبأة ريع وإن تطامنت عنه تمادى ولها

وفي الآيتين (٤٢) و(٤٣) من سورة يونس[2] إيئاس النبي ﷺ من إسماع هؤلاء الصم، وهداية هؤلاء العمي. وقفى على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾فأمثال هذه الآيات تحثو التراب في فِيِّ من يزعم أن الآية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره وإيمانه، كما أنها تسجل الجهل باللغة على من يزعم أن فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير: ولو أسمعهم لعلمه بأن فيهم خيرا لتولوا وهم معرضون عن الإيمان والهدى، ونقول: إن تقديره هذا هو الباطل؛ لأنه نقيض ما أفادته (لو) من أنه علم أنه لا خير فيهم، فهو لا ينتج إلا باطلا، وعفا اللّٰه عمن صوروا هذا الإشكال الوهمي بالاصطلاح المنطقي الفلسفي، وأطالوا في الرد عليه من تلك الطرق الاصطلاحية الشاغلة عن كتاب اللّٰه تعالى.

ألم يك خيرًا لهم من هذه الحذلقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه لمحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حظه منه؟ فإن للسماع درجات باعتبار ما يطالبه اللّٰه تعالى به من الاهتداء بكتابه: أسفلها أن يتعمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها، كالذين قال اللّٰه فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[3] ويليها من يستمع وهو لا ينوي أن يفهم ويعلم، كالمنافقين المشار إليهم في آية سورة القتال ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[4]، وذكرت في هذا السياق،

---

(١) البقرة: الآية (١٧١).

(٢) يشير إلى الآيتين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(٣) فصلت: الآية (٢٦).

(٤) محمد: الآية (١٦).

ويليها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب، وكما يفعل في كل وقت مرتزقة دعاة النصرانية وغيرهم إذا استمعوا للقرآن أو نظروا فيه، ويليها أن يسمع ليفهم ويعلم، ثم يحكم للكلام أو عليه.

وهذه الدرجات كلها لغير المؤمنين به، والمنصف منهم الفريق الأخير وكم آمن منهم من تأمل وفهم..

وأما المسلمون في هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارئ يتلو القرآن فلا يستمعون له، ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات، ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالي رمضان؛ لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء، وإنما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم، وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول: اللّٰه اللّٰه، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لا معنى له، فإنما ينطق به إعجابا بنغمة التالي، حتى إنهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء.

دعيت مرة إلى حفلة عرس فإذا أنا بقارئ يتلو بالنغم والتطريب، وبعض الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف المعتادة في مجالس الغناء، ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغنى على سواء، وكان القارئ يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الإسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[1] فلما سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع والمواعظ الصوادع لم أملك نفسي أن صحت فيهم صيحة

---

(١) الإسراء: الآيات (٤١-٤٧).

مزعجة، ووقفت على الكرسي الذي كنت جالسا عليه ووبختهم توبيخا شديدا مبينا لهم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن، ولا سيما أمثال هذه الآيات، وتلوت عليهم قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] فسكنوا وسكتوا إلا واحدا منهم أخذته العزة بالإثم، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعا، ويهمهم معتبرا متدبرا.

وليعلم القارئ أن لفهم الكلام نفسه درجات، فمن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الألفاظ على ما فيها من إجمال وإبهام بحسب ما تفسر به المفردات في معاجم اللغة، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان، ككون لفظي الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلا، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب، ومنهم من يكون فهمه تفصيليا ينتقل من الكليات إلى الجزئيات، ويعدو المفهومات الذهنية إلى المصدقات، ولكنه يجعلها بمعزل عن نفسه، ويتصور أن الكلام كله لغيره وفي غيره، بأن يقول هذه الآية نزلت في الكافرين أو المنافقين، لا في أمثالي من المؤمنين، وإن كان متصفا بما تنهى عنه وتتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما أنه من الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وإنما الدرجة العليا للسماع أن تسمع فتفقه، وتعقل، وتتدبر فتعتبر، وتعمل حتى لا تقول يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢]»[٣].

قلت: ما أصدق هذا الكلام، فإنه يعبر عن واقع مؤلم مرير، يوجد في كثير من البلاد التي تنتسب إلى الإسلام، وفيها علماء وفقهاء، فالقرآن ليست له مكانة عندهم إلا إذا مات لهم ميت، أو كانت لهم مناسبة، فيقوموا بإدراجه في البرنامج للتبرك والافتتاح، أو كتابته على الحروز والأواني، وقراءته على الزيوت والمياه، وغيرها من المحدثات التي لا علاقة للقرآن بهذه الأفعال المشينة، أو قراءته جماعة يفسدون حروفه وكلماته، ولعل المغنين في أغانيهم أحسن منهم بكثير. وتجد بعض

(١) الحشر: الآية (٢١).

(٢) الملك: الآية (١٠).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٢٦-٦٣١).

مرضى القلوب يبررون لهذه الأنواع من المفاسد، ويجلبون الشبه لها حتى تكون لها مشروعية، وهي لعمر اللّه كما قال الشيخ محمد رشيد رضا في هذا التوجيه بعدٌ عن اللّه وانفصام عنه. والمفروض أن يكون القرآن هو المقدم في مناهج التعليم، ويكون هو الحكم في القضاء. وهذا هو الذي نزل القرآن من أجله، وقال اللّه فيه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] فالقرآن كتاب الأمة وشرعها ومنهاجها وحكمها ودليلها، فمن ابتغى الحكم في غيره أضله اللّه، ومن ابتغى الحكم في الناس بغيره قصمه اللّه. فما تحاكمت أمة إلى كتاب ربها إلا ونزلت البركة في بلدها، وما أعرضت أمة عنه إلا ابتلاها اللّه بالمصائب والزلازل والقلاقل. واللّه المستعان.

قال ابن تيمية: «أصل السماع الذي أمر اللّه به هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ سماع فقه وقبول، ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف: صنف معرض ممتنع عن سماعه، وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى، وصنف فقهه ولكنه لم يقبله، والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول.

الأول: كالذين قال فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2].

والصنف الثاني: من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى.. وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3] قال ذلك بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4] فقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين:

أحدهما: أن هذا السماع لابد منه، ولا تقوم الحجة على المدعوين إلا به كما قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[5]،

---

(١) المائدة: الآية (٥٠).

(٢) فصلت: الآية (٢٦).

(٣) الأنفال: الآيتان (٢٢و٢٣).

(٤) الأنفال: الآيتان (٢٠ و٢١).

(٥) التوبة: الآية (٦).

وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[(١)] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[(٢)].

والثاني: أنه وحده لا ينفع، فإنه قد حصل لجميع الكفار الذين استمعوا القرآن وكفروا به كما تقدم، بخلاف إسماع الفقه، فإن ذلك هو الذي يعطيه اللّٰه لمن فيه خير، وهذا نظير ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يرد اللّٰه به خيرا يفقهه في الدين**»[(٣)]، وهذه الآية والحديث يدلان على أن من لم يحصل له السماع الذي يفقه معه القول فإن اللّٰه لم يعلم فيه خيرا، ولم يرد به خيرا، وأن من علم اللّٰه فيه خيرا أو أراد به خيرا فلا بد أن يسمعه و يفقهه، إذ الحديث قد بين أن كل من يرد اللّٰه به خيرا يفقهه، فالأول مستلزم للثاني، والصيغة عامة، فمن لم يفقهه لم يكن داخلا في العموم فلا يكون اللّٰه أراد به خيرا وقد انتفى في حقه اللازم فينتفي الملزوم. وكذلك قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾بين أن الأول شرط للثاني شرطا نحويا، وهو ملزوم وسبب، فيقتضي أن كل من علم اللّٰه فيه خيرا أسمعه هذا الإسماع، فمن لم يسمعه إياه لم يكن قد علم فيه خيرا. فتدبر كيف وجب هذا السماع وهذا الفقه، وهذا حال المؤمنين بخلاف الذين يقولون بسماع لا فقه معه أو فقه لا سماع معه أعني هذا السماع.

وأما قوله: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾فقد يشكل على كثير من الناس لظنهم أن هذا السماع المشروط هو السماع المنفي في الجملة الأولى الذي كان يكون لو علم فيهم خيرا، وليس في الآية ما يقتضي ذلك؛ بل ظاهرها وباطنها ينافي ذلك، فإن الضمير في قوله: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾عائد إلى الضميرين في قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ وهؤلاء قد دل الكلام على أن اللّٰه لم يعلم فيهم خيرا فلم يسمعهم، إذ ﴿لَوۡ﴾ يدل على عدم الشرط دائما، وإذا كان اللّٰه ما علم فيهم خيرا فلو أسمعهم لتولوا وهم معرضون بمنزلة اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا وهم الصنف الثالث.

ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير؛ بل قد يفقه ولا يعمل

---

(١) الأنعام: الآية (١٩).

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٢)، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١)، ومسلم (٢/ ٧١٩/ ١٠٣٧[١٠٠])، وابن ماجه (١/ ٨٠/ ٢٢١) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

بعلمه، فلا ينتفع به، فلا يكون فيه خيرا، ودلت أيضًا على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير، فإنه هو الذي ينتفع به، فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه.

والصنف الثالث: من سمع الكلام وفقهه لكنه لم يقبله، ولم يطع أمره، كاليهود الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[3] أي: تلاوة. فهؤلاء من الصنف الأول الذين يسمعون ويقرءون ولا يفقهون..

و الصنف الرابع: الذين سمعوا سماع فقه وقبول، فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[5]..

وهنا لطيفة تزيل إشكالا يفهم هنا وهو أنه ليس من شرط هذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن، فإن هذا أولا ممتنع إذ لا يكون مؤمنا متقيا من لم يسمع شيئًا من القرآن. وثانيا: أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدما زمانيا كاستقبال القبلة في الصلاة. وثالثا: أن المقصود أن يبين شيئًان:

أحدهما: أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ والرحمة هو وإن كان موجبا له لكن لابد مع الفاعل من القابل، إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلا له وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام.

الثاني: أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون، ويستدل بعدم الاهتداء به على عدم الإيمان والتقوى كما يقال: (المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء) وإن

---

(١) النساء: الآية (٤٦).
(٢) البقرة: الآية (٧٥).
(٣) البقرة: الآية (٧٨).
(٤) المائدة: الآية (٨٣).
(٥) الجن: الآيتان (١ و٢).

لم يكونوا أطباء قبل تعلمه؛ بل بتعلمه وكما يقال: (كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة)، وإن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلمه، وكما يقال: (هذا مكان موافق للرماة والركاب»)[١].

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له، ثم أكد اللَّه هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة»[٢].

قال السعدي: «وهذا دليل على أن اللَّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا عمن لا خير فيه، والذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «وبمثل هذا يدرك العاقل أن ما يذمه الكتاب العزيز من الكفار ليس هجاء شعريا، ولا تنقيصا ولا تعصبيا، بل هو بيان لما جنوه على أنفسهم من تعطيلهم لمداركهم العلمية، وإفسادهم بذلك لفطرتهم السليمة، ومنه يعلم أن المؤمنين يجب أن يكونوا منهم على طرفي نقيض، ويظهر له التفاوت العظيم بين هجاء أهل الجاهلية بعضهم لبعض، وبين هذا الذم للكفار، وما فيه من الإصلاح العلمي والأدبي»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨-١٥).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٧-٢٤٨):
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٦).
(٤) تفسير المنار (١٠/ ١٥٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرّادّين للحقّ: الكتاب والسنة، وهم أهل البدع والضلال

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال: «هم نفر من بني عبد الدار»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني: «هذا يعمّ جميع من أشرك بالله عز وجل من حيث الظاهر وإن كان سبب نزوله خاصًّا على ما روي عن مجاهد أن المراد بهؤلاء نفر من بني عبد الدار من قريش»[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٩١/ ٤٦٤٦).

(٢) عمدة القاري (١٢/ ٦٣٠).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ فقال بعضهم: معناه: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم للإيمان.. وقال آخرون: للحق.. وقال آخرون: معناه إذا دعاكم إلى ما في القرآن.. وقال آخرون: إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدو..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق، وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا، فيقال: الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها، وأما قول من قال: معناه: الإسلام، فقول لا معنى له؛ لأن اللّٰه قد وصفهم بالإيمان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ فلا وجه لأن يقال للمؤمن: استجب لله وللرسول إذا دعاك إلى الإسلام والإيمان»[٢].

قال ابن قيم الجوزية: «قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يعني: للحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير: واللفظ له ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ يعني للحرب التي أعزكم اللّٰه بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وكل هذه

---

(١) الأنفال: الآية (٢٤).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢١٣-٢١٤).

عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرا وباطنا. قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد. وهو قول ابن اسحق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم. يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم. قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة. أما في الدنيا: فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد، وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة. وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: الجنة، فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني. والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة»[2].

قال محمد رشيد رضا: «معناه: إذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة، وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن اللّه تعالى لما يحييكم، فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة، وعزيمة وقوة، فهو كقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[3] والمراد بالحياة هنا حياة العلم باللّه تعالى وسننه في خلقه، وأحكام شرعه والحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التي تكمل بها الفطرة الإنسانية في الدنيا، وتستعد للحياة الأبدية في الآخرة، وقيل: المراد بالحياة هنا الجهاد في سبيل اللّه؛ لأنه سبب القوة والعزة والسلطان -والصواب أن الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة؛ بل هو وسيلة لتحققها وسياج لها بعد حصولها، وقيل: هي الإيمان والإسلام، وإنما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الأحكام، وثمرته في القلوب والأعمال، وبما في الاستجابة من معنى المبالغة في الإجابة، وإلا فالخطاب للمؤمنين. وقيل: هي القرآن، ولا شك أنه ينبوعها الأعظم، الهادي

---

(١) آل عمران: الآية (١٦٩).
(٢) الفوائد (ص: ١١٥-١١٦).
(٣) البقرة: الآية (٦٣).

إلى سبيلها الأقوم، مع بيانه من سنة الرسول وهديه الذي أمرنا بأن يكون لنا فيه أسوة حسنة، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة اللَّه تعالى؛ بل قال بعض العلماء: إنه كان إذا دعا شخصا وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له، وأن الصلاة لا تبطل بإجابته؛ بل له أن يبني على ما كان صلى ويتم، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخاري عن سعيد[١] بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول اللَّه ﷺ فلم أجبه، أو قال: فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقلت: يا رسول اللَّه، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله:** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟» الحديث[٢]. .

وأحق من هذا بالبيان أن طاعته ﷺ واجبة في حياته، وبعد مماته، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه اللَّه تعالى به كبيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك، ولو بالفعل مع قوله: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٣] وقوله: «**خذوا عني مناسككم**»[٤] ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة، وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية، -وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد، فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به فيما دل عليه من الأحكام الخمسة بحسبها -الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة- لأن الأمور العملية الاجتهادية يكتفى فيها بالظن الراجح في الدليل وفي دلالته، ولكن لا يملك أحد المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعا عاما يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه، إلا الأئمة أولي الأمر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لإقامة الشرع وصيانة النظام العام- وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: أبي سعيد.

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٣) جزء من حديث مالك بن الحويرث ﷺ أخرجه: أحمد (٣/ ٥٣)، والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١)، وأخرجه: مسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤)، وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩)، والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥)، وابن ماجه (١/ ٣١٣/ ٩٧٩) دون محل الشاهد.

(٤) جزء من حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠١)، ومسلم (٢/ ٩٤٣/ ١٢٩٧)، وأبو داود (٢/ ٤٩٥-٤٩٦/ ١٩٧٠)، والنسائي (٥/ ٢٩٨/ ٣٠٦٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٦/ ٣٠٢٣)، وأخرجه: الترمذي (٣/ ٢٣٤/ ٨٨٦) دون محل الشاهد.

الأمصار، ومن كلامهم: أن المجتهد لا يقلد مجتهدا، وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحدا معينا دينه، ولكن من عرض له أمر يستفتي فيه من يطمئن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة ويأخذ بفتواه إذا اطمأن لها. وقد امتنع الإمام مالك من إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من إلزام الناس العمل بكتبه، حتى الموطأ الذي هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها.

أما من يقولون: إن النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام؛ بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها اللَّه تعالى، ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة؛ بل نقول: إننا نهتدي بخلفائه الراشدين، وأئمة أهل بيته الطاهرين وعلماء أصحابه العاملين، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الأمصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين، نهتدي بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة، ولا نسمي شيئًا منها دينا ندين اللَّه به إلا ما ثبت في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم»[1].

قال الرازي: «وفي سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه:

أحدها: هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الآخر، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار.

وثانيها: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة، وهي توجب الحياة الدائمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

وثالثها: أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة هي معدن الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[3] أي الحياة الدائمة»[4].

قال الشوكاني: «يستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٣١-٦٣٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٩)

(٣) العنكبوت: الآية (٦٤).

(٤) التفسير الكبير (١٥/ ١٥٢).

بلغه قول اللَّه أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال، وفي هذه الآية الشريفة، أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة، كائنًا ما كان»[١].

قال صديق حسن خان: «الأمر للوجوب، والاستجابة لهما هي قبول ما أمرا به ونهيا عنه في الكتاب والسنة، والعمل بمقتضاهما. ولا ريب أن اللَّه ورسوله دعيا الأمة جميعها، حاضرها وغائبها، إلى التمسك بالثقلين، والاعتصام بهذين الأصلين النيرين. وكذلك دعيا حملة علومهما ونقلة أحكامهما، سائر الأمة، من العصر الأول إلى هذا الزمان، في كل قطر وأفق، من العرب والعجم، إلى الاتباع، وصاحوا به في كل محل ومكان وأقاموا على ذلك ألوفًا من البرهان، وصنوفًا من التأليفات المشتملة على الأدلة الناطقة بالحق والصواب، في كل أمر وشأن.

ولكن لم يستجب أكثرهم لكونهم مأسورين في شرك التقليد، إلا من رحمه اللَّه تعالى من نزاع القبائل والأجيال، وأفراد العشائر والرجال. وهم كثيرون تارة، وقليلون أخرى، ولكن لا يخلو زمان منهم، وعدًا منه سبحانه للمؤمنين بالنصر والفتح المبين، ومن رسوله الأمين بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين منصورين**» الحديث[٢]. اللهم اجعلنا من هذه الجماعة»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب متابعة الرسول ﷺ

* عن أبي سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول اللَّه ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول اللَّه، إني كنت أصلي، فقال: **ألم يقل الله**: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾. ثم قال لي: **لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد**. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له:

(١) فتح القدير (٢/ ٤٢٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٨)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢٠)، وأبو داود (٤/ ٤٥٠-٤٥٢/ ٤٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٣٧-٤٣٨/ ٢٢٢٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥-٦/ ١٠) من حديث ثوبان ﷺ.

(٣) الدين الخالص (٣/ ٢٢٠).

ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال الرازي: «الاستدلال به أن النبي ﷺ لما دعاه فلم يجبه، لامه على ترك الإجابة، وتمسك في تقرير ذلك اللوم بهذه الآية، فلولا دلالة هذه الآية على الوجوب، وإلا لما صح ذلك الاستدلال»[2].

وقال ابن القيم: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا. فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ. فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. . . والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك. ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك. وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال فيختار الحق على ضده؛ فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم، والإرادات، والأعمال. وتفيد قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل. فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته ونصرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم، فهذا بحسب حياة البدن. وذلك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١١)، والبخاري (٨/ ١٩٨/ ٤٤٧٤) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١٥٠/ ١٤٥٨)، والنسائي (٢/ ٤٧٦-٤٧٧/ ٩١٢)، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٤٤/ ٣٧٨٥) مختصرًا.

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٥١).

بها النافع على الضار، كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه؛ فيصير حيًا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه. قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[1]. وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[3]. فأخبر أن وحيه روح ونور. فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي فمن أصابه نفخ الرسول الملكي، ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان.

ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى»[4].

قال الحافظ: «فيه أن الأمر يقتضي الفور لأنه عاتب الصحابي على تأخير إجابته»[5].

وقال أيضًا: «وفيه بحث لاحتمال أن تكون إجابته واجبة مطلقًا سواءً كان المخاطب مصليًا أو غير مصلٍّ. أما كونه يخرج بالإجابة من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه. فيحتمل أن تجب الإجابة ولو خرج المجيب من الصلاة. وإلى ذلك جنح بعض الشافعية، وهل يختص هذا الحكم بالنداء أو يشمل ما هو أعمّ حتى تجب إجابته إذا سأل؟ فيه بحث. وقد جزم ابن حبان بأن إجابة الصحابة في قصة ذي اليدين كان كذلك»[6].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٢).
(٢) غافر: الآية (١٥).
(٣) الشورى: الآية (٥٢).
(٤) الفوائد (ص: ١١٥-١١٧).
(٥) فتح الباري (٨/ ٢٠١).
(٦) فتح الباري (٨/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان، فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به فلا يكتسبه إذا لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر، وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر، فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها . . . وكان فعل اللَّه تعالى عدلًا فيمن أضله وخذله؛ إذ لم يمنعهم حقًا وجب عليه فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم»[1]. هذا هو القول الأول في تفسير الآية.

وقال ابن القيم: «وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه، ذكره الواحدي عن قتادة. وكان هذا أنسب بالسياق؛ لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن اللَّه سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

وعلى القول الأول فوجه المناسبة: إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها؛ فلا تأمنوا أن اللَّه يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2] وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3]. وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[4] ففي الآية تحذير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٠).
(٢) الأنعام: الآية (١١٠).
(٣) الصف: الآية (٥).
(٤) الأعراف: الآية (١٠١).

عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح»[١].

وفيها معنى آخر، وهو ما قاله القاسمي: «أنه حث على المبادرة إلى الطاعة قبل حلول المنية، فمعنى ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله وردّه سليمًا كما يريده اللَّه، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوها لطاعة اللَّه ورسوله، فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه الذي به يعقل في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه»[٢].

وقد جمع ابن جرير بين هذه الأقوال كلها، فقال بعد ذكره للأقوال السابقة وما في معناها: «وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من اللَّه ﷻ أنه أملك لقلوب عباده منهم، وإنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، وذلك أن الحول بين الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز - جل ثناؤه- بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع اللَّه قلبه إدراكه سبيل، وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان، وقول من قال: يحول بينه وبين عقله، وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه، حتى لا يستطيع أن يؤمن، ولا يكفر إلا بإذنه؛ لأن اللَّه ﷻ إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما منع إدراكه به على ما بينت، غير أنه ينبغي أن يقال: إن اللَّه عم بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم، حتى يخصه ما يجب التسليم له. وأما قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإن معناه: واعلموا أيها المؤمنون أيضًا مع العلم بأن اللَّه يحول بين المرء وقلبه، أن اللَّه الذي يقدر على قلوبكم، وهو أملك بها منكم، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفيكم جزاء أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هو ورسوله أن تضيعوه، وأن لا تستجيبوا لرسوله

(١) الفوائد (١١٨).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٣٥).

إذا دعاكم لما يحييكم، فيوجب ذلك سخطه، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه»[١].

وهو ما أعرب عنه الشوكاني بقوله: «ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «هذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا اللّٰه أن نعلمهما علما يقينا إذعانيا، لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الإنسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. الأول: أن من سنة اللّٰه في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه، الذي هو مركز الوجدان والإدراك، ذي السلطان على إرادته وعمله، وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه، إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه، كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح اللّٰه فيها، فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبلغها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية، وعلم الصفات الربانية، وعلم التربية الدينية التي تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء، فبينا زيد يسير على سبيل الهدى، ويتقي بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوي الردى، إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد، يميل به عن الصراط المستقيم، من شبهة تزعزع الاعتقاد، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد. فيطيع هواه، ويتخذه إلهه من دون اللّٰه، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[٣] على أنه فيه مختار، فلا جبر ولا اضطرار.

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه أنه كان منهمكا في شهواته ولهوه، تاركا لهداه وطاعة ربه، فنزل يوما في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتنزه ومعهم النبيذ والمعازف، فبينا هم يعزفون ويشربون، إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[٤] فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة، فاستمع له وأنصت، حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[٥] امتلأ قلبه خشية من اللّٰه، وتدبرا لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه، فأخذ العود من

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢١٧).
(٢) فتح القدير (٢/ ٤٢٠).
(٣) الفرقان: الآية (٤٣).
(٤) التكوير: الآية (١).
(٥) التكوير: الآية (١٠).

العازف فكسره وألقاه في دجلة، وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها، وصار يردد الآية، وعاد إلى منزله تائبا من كل معصية، مجتهدا في كل ما يستطيع من طاعة.

فتذكير اللّه تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان، وهذه السنة القلبية من سنن اللّه تعالى في الإرادات والأعمال، وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان وإذعان، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان، وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر اللّه فيغير بطاعته ويعجب بنفسه، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح اللّه، فيسترسل في اتباع هواه، حتى تحيط به خطاياه. ومن لم يأمن عقاب اللّه، ولم ييأس من رحمة اللّه، يكون جديرا بأن يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خواطره، ويعاقب نفسه على هفواته، لتظل على صراط العدل المستقيم، متجنبة الإفراط والتفريط، ويتحرى أن يكون دائما بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات، ويساعدنا على ذلك. الأمر الثاني: وهو أن تذكر حشرنا إليه ﷻ ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الأليم، وإما بالنعيم المقيم، وهذا منه مقتضى الفضل، وذلك أثر العدل.

ومما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام؛ مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى، والحيلولة بين المرء وقلبه أن يعصي الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبورا عليه، وأن اللّه لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره ويفضله، أو بإكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له، فإنه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه، وقد قال تعالى لنبيه داود ﷺ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2] الآية. فهذا نص في أن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل اللّه، فقوله في آية الجاثية: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[3] ليس معناه: أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالا كما يدعي بعض المتكلمين؛ بل هو داخل في سنته تعالى في الأسباب والمسببات، ويؤيده إثبات كون ضلاله على علم، وهو أنه متعمد لاتباع الهوى، مؤثرا له على الهدى، واللّه

(١) الجاثية: الآية (٢٣). (٢) ص: الآية (٢٦).
(٣) الجاثية: الآية (٢٣).

تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة وإليه تعالى تارة، من حيث إنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات. ومن الأسباب ما جعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم، وما جعله بأسباب لا يعلم للخلق اختيار فيها ولا علم، وكل من القسمين يسند إلى سببه تارة وإلى رب الأسباب تارة، والجهة مختلفة معروفة، ويختار هذا أو ذاك في البيان بحسب سياق الكلام، كقوله تعالى في الحرث ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1] فهل يقول عاقل: إن الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه، وأن اللّٰه يخلقه له بدون إرادته ولا فعله، أو أن فعله وتركه في أرضه سواء، وتلقيحه لنخله وعدمه سيان؟

وجملة القول: أن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك، ويدمنه الزمن الطويل تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم كما تقدم آنفا وسبق مثله في تفسير سورة البقرة وغيرها.

وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لإدمان تلك الأعمال الاختيارية، كالخمار الذي يعتري مدمن الخمر، فيشعر بفتور وألم عصبي لا يسكن إلا بالعودة إلى الشرب، على أن هذه الآية علمتنا عدم اليأس.

ومن تفسير القرآن بالقرآن في تقليب القلوب والحيلولة بينها وبين إرادة الإنسان المتصرفة في قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2]..

وقولهم: إن اللّٰه خالق القلوب ومقلبها حق، وكذا أفعال العباد كلها، وليس بحق ما عبر به بعضهم عن ذلك بأن اللّٰه تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الإيمان وغيره من أفعال الخير مباشرة، ويخلق في قلبه ولسانه الكفر اعتقادا ونطقا خلقا أُنُفا لا فعل له فيه، فالجمع بين الآيات التي أوردناها وما في معناها يبطله ويثبت

(١) الواقعة: الآيتان (٦٣ و٦٤).

(٢) الأنعام: الآية (١١٠).

الأسباب الاختيارية، والقائلون بما ذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون، ويمدهم إخوانهم الصوفية في الغيّ ثم لا يقصرون»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد: التنبيه على أن اللَّه مطلع على بواطن العبد وضمائره، وأن قربه من عبده أشد من قرب قلبه منه، كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٢]، وفيها: أن السعيد من أسعده اللَّه والشقي من أشقاه اللَّه. وفيها: الحث على طاعة اللَّه قبل نزول سلطان الموت. وفيها: أن القلوب بيد اللَّه يقلبها كيف يشاء، ويخلق فيها القصود والدواعي، والعقائد حسبما يريد[٣].

وفيها الحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها[٤].

وفيها ترغيب شديد في العمل، وتحذير من الكسل والغفلة[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن

* عن عبد اللَّه بن عمرو أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**». ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[٦].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال: «**يحول بين الكافر وطاعته، وبين المؤمن ومعصيته**»[٧].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٣٤-٦٣٧). (٢) ق: الآية (١٦).

(٣) أفاد هذه الفوائد النيسابوري في غرائب القرآن (٣/ ٣٨٩).

(٤) أفاده الآلوسي في روح المعاني (٩/ ١٩١).

(٥) أفاده الرازي في التفسير الكبير (١٥/ ١٥٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٥/ ٢٦٥٤) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٣/ ٧٨٦١). وفي الباب عن أنس والنواس بن سمعان وعائشة وأم سلمة وبلال وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٧) أخرجه: ابن جرير (٩/ ٢١٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره ابن كثير (٣/ ٥٧٥) وقال: «رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح ولم يخرجاه، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعًا ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح».

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي: «القلب هو العالم بالله، وهو العاقل لله وهو الساعي إلى الله، وهو المتقرب إليه، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال الملك لعبيده، واستخدام الراعي لرعيته، والقلب هو المخاطب، والمعاتب، والمطالب، والمعاقب، وهو المطيع بالحقيقة لله، وإنما الذي ينشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله، وإنما فواحش الأعضاء آثاره، وإظلامه، واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل وعاء يرشح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته، ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل سافلين، وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين؟ ومن ثم من لم يعرف قلبه ليراقبه، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو من الذين ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]»[2].

قال الطيبي نقلًا عن القاضي ناصر الدين البيضاوي: «نسب تقلب القلوب إلى الله تعالى إشعارا بأن الله تعالى إنما تولى بنفسه أمر قلوبهم، ولم يكله إلى أحد من ملائكته، وخص «الرحمن» بالذكر إيذانا بأن ذلك التولي لم يكن إلا بمحض رحمته وفضل نعمته؛ كيلا يطلع أحد غيره على سرائرهم، ولا يكتب عليهم ما في ضمائرهم»[3].

قوله: «**كيف يشاء**» **قال المناوي**: «أي يتصرف في جميع قلوبهم كتصرفه في قلب واحد لا يشغله قلب عن قلب، أو معناه: كتصرف واحد منكم في قلب واحد، فهو إشارة إلى تمام قدرته على تصريفها، ولا يشغله شأن عن شأن. قال الطيبي:

---

(١) التوبة: الآية (٦٧). (٢) فيض القدير (٤/ ٣٩٩).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٢/ ٥٤٤).

وليس المراد أن تصرفه في القلب الواحد أسهل عليه من التصرف في القلوب كلها، فإن ذلك عنده تعالى سواء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١] لكن ذلك راجع إلى العباد وإلى ما شاهدوه وعرفوه فيما بينهم كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٢] أي أهون فيما يجب عندكم، وينقاس على أصولكم، وتقتضيه عقولكم، وإلا فالابتداء والإنشاء عنده سواء. قال الإمام الرازي: وهذا عبارة عن كون القلب مقهورا محدودا مقصورا محصورا مغلوبا متناهيا، وكلما كان كذلك امتنع أن يكون له إحاطة بما لا نهاية له. فالإحاطة بجلاله متعذرة. وفيه أن المؤمن ينبغي كونه بين الخوف والرجاء»[٣].

قوله: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»: قال المناوي: «قال الحليمي: هذا تعليم منه لأمته أن يكونوا ملازمين لمقام الخوف، مشفقين من سلب التوفيق، غير آمنين من تضييع الطاعات، وتتبع الشهوات»[٤].

* * *

---

(١) يس: الآية (٨٢).

(٢) الروم: الآية (٢٧).

(٣) فيض القدير (٢/ ٤٧٦).

(٤) فيض القدير (٥/ ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فتنة: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار، وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به وبرسوله: اتقوا أيها المؤمنون فتنة، يقول اختبارا من اللَّه يختبركم، وبلاء يبتليكم، لا تصيبن هذه الفتنة التي حذرتكموها، الذين ظلموا: وهم الذين فعلوا ما ليس لهم فعله، إما أجرام أصابوها، وذنوب بينهم وبين اللَّه ركبوها، يحذرهم -جل ثناؤه- أن يركبوا له معصية، أو يأتوا مأثما يستحقون بذلك منه عقوبة، وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وهم الذين عنوا بها. . وأما قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فإنه تحذير من اللَّه، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾، يقول: اعلموا أيها المؤمنون أن ربكم شديد عقابه لمن افتُتن بظلم نفسه، وخالف أمره، فأثم به»[1].

قال الشوكاني: "ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه، ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، واللَّه أعلم، ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب، كترك الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢١٧-٢١٩).

المنكر، فتكون الإصابة المتعدية للظالم إلى غيره، مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم»[١].

قال ابن العربي: «وتحقيق القول في ذلك أن اللَّه قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[٢] وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾[٣] فقد أخبرنا ربنا أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، وإنما تتعلق كل عقوبة بصاحب الذنب، بيد أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه فكلهم عاص؛ هذا بفعله، وهذا برضاه به، وقد جعل اللَّه في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم الذنب بالعقوبة، ولم يتعد موضعه، وهذا نفيس لمن تأمله»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلا، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه، وإقراره على فعله، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾ أي واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام إلى الأحزاب الدينية كالمذاهب، والسياسة كالحكم، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مرارا، ولهذا عبر هنا بالفتنة دون الذنب والمعصية. . ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف سننه في الأمم والأفراد التي لا تبديل لها ولا تحويل، ولمن خالف هداية دينه المزكية للأنفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفاسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع. وهذا العقاب منه ما يقع في الدنيا والآخرة، ومنه ما يقع في إحداهما فقط، سواء كان للأفراد أو للأمم، وعقاب الأمم المذكور في هذه الآية مطرد في الدنيا، وأول من أصابه من أمتنا الإسلامية أهل القرن الأول الذين كانوا خيرها؛ بل خير الأمم كلها، ولكنهم لما قصروا في درء الفتنة الأولى عاقبهم اللَّه عليها عقابا شديدا كما تقدم آنفا[٥]، وهكذا

---

(١) فتح القدير (٢/ ٤٢١).

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٨٤٧).

(٥) سيأتي ذكر هذا في ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الأمة وأدومها، فزالت الخلافة التي تنازعوا عليها، وتنافسوا فيها، وتقاتلوا لأجلها، ولم تزل هي؛ بل تزداد قوة وشبابا»[١].

قال عبد الكريم الخطيب: «هو دعوة إلى التناصح بين المؤمنين، وإلى التناهي فيما بينهم عن المنكر، وإلا فإن سكوت الساكتين منهم عن ظلم الظالمين وبغي الباغين هو اعتراف ضمني بهذا الظلم، وذلك البغي، وإجازة لهما، ومن هنا لم يكن ما يحل بالظالمين من بلاء الله ونقمته واقعا بهم وحدهم؛ بل يصيبهم ويصيب من رآهم ولم ينكر عليهم تلك المنكرات، ولهذا عم الله بني إسرائيل جميعًا باللعنة؛ لأنهم لم ينصحوا الظلمة فيهم، ولم ينكروا ظلمهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٢]. وهنا سؤال: كيف يؤاخذ المحسنون بظلم الظالمين، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣] ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٤] ويقول في هذه الآية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥] فكيف يكون مع المتقين ثم يأخذهم بما أخذ به الظالمين؟

والجواب -والله أعلم-:

أولا: أن سكوت غير الظالمين عن الظالمين هو وِزر، له عقابه، فهم وإن لم يظلموا أحدا، فقد ظلموا أنفسهم بحجزها عن هذا المنطلق الذي تنطلق منه إلى رضوان الله، وإلى حماية أنفسهم وحماية المجتمع الذي هم فيه مما يشيعه الظالمون من فساد وضلال، وشر مستطير.

وثانيا: أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٦] هو حماية للمؤمنين من أن يجرفهم تيار المفسدين، وأن يسلموا

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٣٧-٦٣٩).
(٢) المائدة: الآية (٧٨و٧٩).
(٣) فاطر: الآية (١٨).
(٤) المائدة: الآية (١٠٥).
(٥) البقرة: الآية (١٩٤).
(٦) المائدة: الآية (١٠٥).

زمامهم لهم، ويسلكوا معهم الطريق الذي سلكوه حين يستشري الفساد ويغلب المفسدون. فهنا يكون واجب المؤمن حيال نفسه أن يحميها أولا من هذا الوباء، وأن يمسك عليه دينه حتى لا يفلت منه في زحمة هذا الفساد الزاحف بخيله ورَجِلِه.

ومع هذا، فإنه لن يعفي المؤمنين استشراء الشر من أن يقوموا بما يجب عليهم في تلك الحال، من النصح، والتوجيه، والدعوة إلى اللّه، فهم أساة المجتمع لهذا الوباء الذي نزل به.. فإذا قصروا في أداء هذا الواجب كانوا بمعرض المؤاخذة والجزاء.

وثالثا: قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هو توكيد لما يجب على المؤمنين من التناصح، والتناهي عن المنكر فيما بينهم، وإلا لم يكونوا من المتقين، ولم يحسبوا فيهم. إذ كيف يكون المؤمن ممن اتقى اللّه وهو يرى المنكر ولا ينكره، ويرى الظلم ولا يقف في وجهه؟

ورابعا: إن المجتمع الإنساني جسد واحد، وما يصيب بعضه من فساد وانحلال لابد أن يتأثر به المجتمع كله، كما يتأثر الجسد بفساد عضو من أعضائه، وإنه كما يعمل المجتمع على حماية نفسه من الأمراض المعدية والآفات الجائحة، فيحشد كل قواه لدفع هذا الوباء، بتطبيب المرضى أو عزلهم كذلك ينبغي أن يعمل على إخماد نار الفتن المشبوبة فيه، والضرب على أيدي مثيريها، وإلا امتد إليهم لهيبها، والتهمتهم نارها.

فحيث كان الشر، فإنه لا يصيب من تلبس به وحده؛ بل لا بد أن ينضح منه شيء على من حوله. فكان من الحكمة دفع الشر ومحاربته في أي مكان يطل بوجهه منه»[1].

قال ابن عاشور: «فعلى عقلاء الأقوام، وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٨٩-٥٩١).

وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس، وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم، وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل؛ لأن ضرر حلولها تصيب جميعهم، وبهذا تعلم أن الفتنة قد تكون عقابا من اللَّه تعالى في الدنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيوية التي تصيب الأمم، فإن من سنتها أن لا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد؛ لأنها عقوبات تحصل بحوادث كونية، يستتب في نظام العالم الذي سنه اللَّه تعالى في خلق هذا العالم أن يوزع على الأشخاص»[(١)].

وفي هذه الآية تحذير من اللَّه ﷻ للمؤمنين من فتنة إذا أصابت لم تخص الظلمة فقط، بل تصيب كل ظالم وبريء، وهذا تأويل الزبير ﷺ للآية[(٢)].

وفيها أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين، ومنه ما يكون نقمة للفاسقين[(٣)].

وفيها الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب اللَّه تعالى[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الفتن

* عن مطرف قال: «قلنا للزبير: يا أبا عبد الله! ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه! فقال الزبير ﷺ: إنا قرأناها على عهد رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٧)

(٢) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ٥١٥).

(٣) أفاده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٢).

(٤) أفاده الرازي في التفسير الكبير (١٥/ ١٥٤).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٥و١٦٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥١/ ١١١٢٠٦)، والبزار: كشف الأستار (٤/ ٩١/ ٣٢٦٦). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧) وقال: «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح». وفي (٧/ ٢٢٤) قال: «رواه البزار وفيه حجاج بن نصير ذكره ابن حبان في الثقات وقال: «يخطئ ويهم» ووثقه ابن معين في رواية وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قال ابن عباس: أمر اللَّه المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب، وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام، فإنه قال يوم الجمل -وكان سنة ست وثلاثين-: ما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت، وكذلك تأول الحسن البصري والسدي وغيرهما، قال السدي: نزلت الآية في أهل بدر خاصة، فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا، وقال ابن عباس ﵄: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقال: أمر اللَّه المؤمنين ألا يقروا المنكر فيما بينهم، فيعمهم اللَّه بالعذاب»[١].

والصحيح أن الآية عامة في الصحابة وغيرهم، **قال ابن كثير**: «والقول بأن التحذير يعم الصحابة وغيرهم. -وإن كان الخطاب معهم- هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن»[٢].

قال محمد رشيد رضا بعد ذكره لحديث الباب ورواياته: «وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني، إلا قول من قال بالتخصيص، فهي عامة إلى يوم القيامة؛ لأنها بيان لسنة من سنن اللَّه تعالى في الأمم والملل كما بينا، وأما فتنة عثمان، فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء، فاختلفت الأعمال من أهل الحل والعقد، فخلا الجو للمفسدين من السبئيين، وأعوانهم من زنادقة اليهود والمجوس وغيرهم، وأعقبت فتنة الجمل وصفين، ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية، ثم قتلهم الحسين.. الخ، ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر ﵁ فتنة الردة، لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة لا يزال المسلمون مصابين بها، ومعذبين بعذابها، وأكبرها فتن الخلافة والملك، وفتن افتراق المذاهب»[٣].

* عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «**مثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٨).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٣٨-٦٣٩).

خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم يؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

* عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا»[2].

★ غريب الحديثين:

استهموا: أي: اقترعوا، فأخذ كل واحد منهم سهمًا؛ أي: نصيبًا.

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «في هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُمِلت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم»[3].

قوله: «وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا» قال ابن حجر: «أي كل من الآخذين والمأخوذين، وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها. قال المهلب وغيره: في هذا الحديث تعذيب العامة بذنب الخاصة، وفيه نظر؛ لأن التعذيب المذكور إذا وقع في الدنيا على من لا يستحقه، فإنه يكفر من ذنوب من وقع به أو يرفع من درجته. وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٨و٢٧٠و٢٤٣و٢٧٤)، والبخاري (٥/ ١٦٦-١٦٧/ ٢٤٩٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٤٠٨/ ٢١٧٣) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦١)، وأبو داود (٤/ ٥١٠-٥١١/ ٤٣٣٩) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٩/ ٤٠٠٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٥٣٦/ ٣٠٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٢).

(٤) فتح الباري (٥/ ٣٧٠).

وقال المباركفوري: «المعنى أنه كذلك إن منع الناس الفاسق عن الفسق نجا ونجوا من عذاب اللَّه تعالى، وإن تركوه على فعل المعصية ولم يقيموا عليه الحد، حل بهم العذاب وهلكوا بشؤمه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ أي: بل تصيبكم عامة بسبب مداهنتكم. والفرق بين المداهنة المنهية والمداراة المأمورة، أن المداهنة في الشريعة أن يرى منكرا ويقدر على دفعه ولم يدفعه حفظا لجانب مرتكبه أو جانب غيره لخوف أو طمع أو لاستحياء منه أو قلة مبالاة في الدين. والمداراة موافقته بترك حظ نفسه وحق يتعلق بماله وعرضه فسكت عنه دفعا للشر ووقوع الضرر»[(١)].

* عن أسماء عن النبي ﷺ قال: **«أنا على حوضي أنتظر من يرِد عليّ فيؤخذ بناس من دوني فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري مشوا على القهقرى»**[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

القهقرى: مقصور، وهو الرجوع إلى الخلف.

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: **«أنا فرطكم على الحوض، ليُرفعنّ إليّ رجال منكم، حتى إذا أهويتُ لأناولهم اختُلجوا دوني فأقول: أيْ ربِّ أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

اختلجوا: على صيغة المجهول أي: سلبوا من عندي يقال: خلجه واختلجه: إذا جذبه وانتزعه.

* عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: **«أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم»** قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عيّاش وأنا أحدّثهم هذا فقال: هكذا سمعتَ سهلًا؟ فقلتُ: نعم.

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٣-٤/ ٧٠٤٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (١٣/ ٤/ ٧٠٤٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٩٦/ ٢٢٩٧).

قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعتُهُ يزيدُ فيه قال: «إنهم منّي. فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدّل بعدي»[١].

★ **غريب الحديث:**

فرطكم على الحوض: أي: متقدمكم إليه، يقال: فَرَطَ يَفْرِطُ فهو فارط وفَرَطٌ: إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء والأرشية[٢].

★ **فوائد الأحاديث:**

بوب البخاري على هذه الأحاديث: باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن.

قال الحافظ: "قوله: (وما كان النبي ﷺ يحذر) بالتشديد (من الفتن) يشير إلى ما تضمنه حديث الباب من الوعيد على التبديل والإحداث، فإن الفتن غالبا ما تنشأ عن ذلك»[٣].

قال ابن عبد البر: «وكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه اللّه ولم يأذن به اللّه، فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه - واللّه أعلم؛ وأشدّهم طردًا من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم مثل الخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها؛ فهؤلاء كلهم يبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم؛ والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجميع أهل الزيغ والأهواء والبدع، كل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بهذا الخبر، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان؛ وقد قال ابن القاسم رحمه الله: قد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء، وكان يقال: تمام الإخلاص: تجنب المعاصي»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٣)، والبخاري (١٣/ ٤/ ٧٠٥٠)، ومسلم (٤/ ١٧٩٣/ ٢٢٩٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٣/ ٤٣٤).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤-٥).

(٤) التمهيد: فتح البر (١/ ٢٠٠-٢٠١).

قلت: ويستفاد من الآية ومن الأحاديث ومما تقدم من الفوائد: أن البدع من أخطر الفتن على الأمة، فبدعة واحدة منها صغيرة أو كبيرة، كافية في إحداث الفتن والزلازل الحسية والمعنوية، وكم حدث من القتال والقتل في كثير من الأمصار الإسلامية بسبب البدع، ومن شك في هذا فليقرأ ما وقع بين الأشاعرة والحنابلة في كثير من البلاد، بسبب بدعة الجهمية التي تبناها الأشاعرة، وأما بدعة الرفض فأهلكت الحرث والنسل، وما تركت مصرًا من الأمصار، ولا بيتًا من البيوت دخلته إلا وزلزلته، وقلبته رأسًا على عقب، وما تزال إلى يومنا هذا، وأما بدعة التصوف فسرقت للناس أموالهم، وصادرت عقائدهم، وجعلتهم أضل من حمر أهلهم، وأما بدعة الخوارج فأصلهم الأصيل هو السفك والقتل حتى في خيار الأمة، وتورعوا عن قتل البعوض فانقلبت عندهم الموازين، وهكذا هو حال المبتدع، فلا يعرف يمنة ولا يسرة، بل يخبط خبط عشواء، ويسير سير الخفافيش التي لا تمشي إلا في الظلام، والله والمستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

مستضعفون: أي ضعفاء لا حول لكم ولا قوة.

يتخطفكم الناس: أي بالنهب والسلب والإغارات واستلاب الأنفس والأموال، والخطف: الأخذ بسرعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير الطبري: «وهذا تذكيرٌ من اللَّه ﷻ أصحابَ رسول اللَّه ﷺ، ومناصحة. يقول: أطيعوا اللَّه ورسوله أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمرَه وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن اللَّه يهوِّنه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجِّل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ يقول: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم»[1].

قال ابن كثير: «ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم

(١) جامع البيان (٩/ ٢١٩).

من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد اللَّه، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه اللَّه في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشا، وأجوعه بطونا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا، من عاش معهم عاش شقيا، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا واللَّه ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، واللَّه ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم، حتى جاء اللَّه بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللَّه ما رأيتم، فاشكروا اللَّه على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من اللَّه تعالى»[1].

واختلف العلماء في الحالة المشار إليها في الآية من المقصود بها؟ على ثلاثة أقوال:

قال ابن عطية: «اختلف الناس في الحال المشار إليها بهذه الآية، فقالت فرقة هي الأكثر: هي حال مكة في وقت بداءة الإسلام، والناس الذين يخاف تخطفهم، كفار مكة، والمأوى على هذا التأويل المدينة والأنصار، والتأييد بالنصر: وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها، والطيبات: الغنائم، وسائر ما فتح اللَّه عليهم به.

وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حال رسول اللَّه ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم على هذا عسكر مكة، وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول اللَّه ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى على هذا والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة، والتغليب على العدو، والطيبات الغنيمة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٠).

قال القاضي أبو محمد: «وهذان قولان يناسبان وقت نزول الآية؛ لأنها نزلت عقب بدر.

قال وهب بن منبه وقتادة: الحال المشار إليها: هي حال العرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجساما، وأجوعهم بطونا، وأقلهم حالا ونعما، والناس الذين يخاف تخطفهم على هذا التأويل: فارس والروم، والمأوى على هذا هو النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر: هو فتح البلاد وغلبة الملوك، والطيبات: هي نعم المآكل والمشارب والملابس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يرده أن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأحوال التي ذكر هذا المتأول، وإنما كان يمكن أن يخاطب العرب في هذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب ﷺ، فإن تمثل أحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثله صحيح، وأما أن تكون حالة العرب هي سبب الآية فبعيد لما ذكرناه»[1].

قلت: وبه قال القاسمي حيث قال: «وما ذكرنا من كون الخطاب في الآية للمهاجرين خاصة هو الأنسب بالمقام، والسياق يشعر به. والأمر في العرب وإن كان كما ذكر، لكن في تنزيل بعض ألفاظ الآية عليه تكلف لا يخفى، فالظاهر ما ذكرنا»[2].

قال ابن عاشور: «ومضمون هذه الآية صادق أيضًا على المسلمين في كل عصر من عصور النبوة والخلافة الراشدة، فجماعتهم لم تزل في ازدياد عزة ومنعة، ولم تزل منصورة على الأمم العظيمة التي كانوا يخافون من قبل أن يؤمنوا، فقد نصرهم اللَّه على أهل هوازن يوم حنين، ونصرهم على الروم يوم تبوك، ونصرهم على الفرس يوم القادسية، وعلى الروم في مصر، وفي برقة، وفي إفرقية، وفي بلاد السلاجقة، وفي بلاد الفرنجة من أوروبا، فلما زاغ المسلمون وتفرقوا أخذ أمرهم يقف، ثم ينقبض في ابتداء ظهور الدعوة العباسية، وهي أعظم تفرق وقع في الدولة الإسلامية.

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٦-٥١٧).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٣٨).

وقد نبههم اللَّه تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾فلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نَسوه أخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور»[١].

وقد جمع البقاعي بين القولين فقال: «فالآية منصبة إلى الصحابة بالقصد الأول وهي صالحة للعرب كافة، فتصرف إليهم بالقصد الثاني»[٢].

وفي هذه الآية -**يقول محمد رشيد رضا**-: «تذكير المؤمنين بماضيهم، وما كان من ضعف أمتهم، واستضعاف الشعوب لهم، وخوفهم من تخطف الناس إياهم، ليعلموا ما أفادهم الإسلام من عزة وقوة ومنعة، قبل إثخانه في الأرض، وتمكن سلطانه فيها، ومعرفة تاريخ الأمة في ماضيها أكبر عون لها على إصلاح حالها واستعدادها لاستقبالها»[٣].

وقال أيضًا: «ومن العبرة في الآيات، أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الإسلام إصلاحا أورث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا، والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة، ولكن أعداء اللَّه الجاحدين لهذا -على علم- قد شوهوا تاريخه، وصدوا الناس عنه بالباطل، وأن أهله قد هجروا كتابه، وتركوا هدايته، وجهلوا تاريخه، ثم صاروا يقلدون أولئك الأعداء في الحكم عليه، حتى زعموا أنه هو سبب جهلهم وضعفهم، وزوال ملكهم الذي كان عقوبة من اللَّه تعالى لخلفهم الطالح على تركه، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه، فإلى متى إلى متى أيها المسلمون؟ إنا لله وإنا إليه راجعون»[٤].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٢٠-٣٢١).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٦٠).
(٣) تفسير المنار (١٠/ ١٥٥).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٤٠-٦٤١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تخونوا: الخيانة: مخالفة الحق بنقض العهد في السر. وضدها: الأمانة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه ﷺ: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تخونوا الله، وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة، وهو يستسر الكفر والغش لهم في الباطن، يدلون المشركين على عورتهم، ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «المعنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تعالى بتعطيل فرائضه، أو تعدي حدوده، وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو آراء مشايخكم أو آبائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم، بناء على زعمكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية..

وأما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فمعناه: والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها، وسوء عاقبة تلك المفاسد في الدنيا والآخرة، أو تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره، وأما ما خفي عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢١).

مما علم من الدين بالضرورة، أو مما يعلم ببداهة العقل، أو استفتاء القلب»[١].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم اللَّه عليه من أوامره ونواهيه. فإن الأمانة قد عرضها اللَّه على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. فمن أدى الأمانة، استحق من اللَّه الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الوبيل، وصار خائنا لله وللرسول ولأمانته، منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها وهي الأمانة»[٢].

قال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دعوة للمؤمنين إلى القيام بأمر اللَّه، والتزام طاعته وطاعة رسوله، والوقوف عند الحدود التي بينها اللَّه تعالى فيما أنزل على رسوله من آياته وكلماته.

فالخروج على أمر اللَّه، والخلاف لرسوله هو خيانة لله ولرسوله بعد أن علموا، وتثبتوا مما أمرهم اللَّه به أو نهاهم عنه، ثم هو خيانة للمرء نفسه إذ نقض العهد، وخان الأمانة التي ائتمنه اللَّه عليها. وهذا مقابل لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[٣] ففي هذه الآية دعوة إلى طاعة اللَّه ورسوله، والاستجابة لما يدعوهم الرسول إليه، ويندبهم له، متى بلغت أسماعهم دعوته، فالموقف هنا هو فيما بين المؤمنين والنبي، حال حياته منهم. أما ما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]. فهو امتثال لأوامر اللَّه، وما بينه الرسول الكريم للمؤمنين في أقواله وأفعاله من أمورهم، وذلك فيما بينهم وبين أنفسهم، حيث لا يكون الرسول معهم، أو يكون الرسول قد أخلى مكانه من هذه الدنيا. وحينئذ تكون أوامر الشريعة وأحكامها أمانة أؤتمن الإنسان عليها، فإذا ضيع تلك الأمانة بخروجه على أحكام الشريعة،

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٤٣-٦٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٥٩).

(٣) الأنفال: الآية (٢٠).

(٤) الأنفال: الآية (٢٧).

والعدوان على حدودها، فقد خان الأمانة، وخان اللَّه ورسوله، وخان نفسه التي هي أمانة عنده والتي يكون قد ضيعها حين عرضها في معرض التهلكة، إذ عصى اللَّه ورسوله»[1].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية.. فقال بعضهم: نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سر المسلمين.. وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة للذي كان من أمره وأمر بني قريظة.. وقال آخرون: بل نزلت في عثمان ﷺ.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه نهى المؤمنين عن خيانته، وخيانة رسوله، وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته، فمعنى الآية وتأويلها ما قدمنا ذكره»[2].

قال ابن كثير: «والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية»[3].

قال القاسمي: «وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم من غيره؛ لأن المعنى وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله»[4].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٥٩٣-٥٩٤).
(٢) جامع البيان (٩/ ٢٢١-٢٢٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤١).
(٤) محاسن التأويل (٨/ ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر تعالى الناس في هذه الآية الكريمة أن يعلموا: أن أموالهم وأولادهم فتنة يختبرون بها، هل يكون المال والولد سببًا للوقوع فيما لا يرضي الله؟ وزاد في موضع آخر أن الأزواج فتنة أيضًا، كالمال والولد، فأمر الإنسان بالحذر منهم أن يوقعوه فيما لا يرضي اللَّه. ثم أمره إن اطلع على ما يكره من أولئك الأعداء الذين هم أقرب الناس له، وأخصهم به، وهم الأولاد، والأزواج أن يعفو عنهم. ويصفح ولا يؤاخذهم. فيحذر منهم أولًا، ويصفح عنهم إن وقع منهم بعض الشيء، وذلك في قوله في التغابن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[1].

وصرح في موضع آخر بنهي المؤمنين عن أن تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكره جل وعلا، وأن من وقع في ذلك فهو الخاسر المغبون في حظوظه، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2]، والمراد بالفتنة في الآيات: الاختبار والابتلاء، وهو أحد معاني الفتنة في القرآن»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين: واعلموا أيها المؤمنون، أنما أموالكم التي خوَّلكموها اللَّه، وأولادكم التي وهبها اللَّه لكم، اختبارٌ وبلاء،

---

(١) التغابن: الآيتان (١٤ و١٥).

(٢) المنافقون: الآية (٩).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٥١-٥٢).

أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق اللَّه عليكم فيها، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، يقول: واعلموا أن اللَّه عنده خيرٌ وثواب عظيم، على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، في أمولكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا. وأطيعوا اللَّه فيما كلفكم فيها، تنالوا به الجزيل من ثوابه في معادكم»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[2] وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[5] الآية، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا، واللَّه سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة»[6].

قال محمد رشيد رضا: «وفتنة الأموال والأولاد عظيمة، لا تخفى على ذي فهم إلا أن الأفهام تتفاوت في وجوهها وطرقها، فأموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه، فهو يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال، ثم إنه يتكلف العناء في حفظها وتتنازعه الأهواء المتناوحة في إنفاقها، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقا مقدرة وغير مقدرة، ومعينة وغير معينة، ومحصورة وغير محصورة، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم، وكفارات بعض الذنوب المعينة، من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك.

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢٣-٢٢٤).
(٢) التغابن: الآية (١٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٣٥).
(٤) المنافقون: الآية (٩).
(٥) التغابن: الآية (١٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٢).

ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب. والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس: السماحة والسخاء من أركان الفضائل، ولجميع أنواع الإمساك: البخل وهو من أمهات الرذائل، ولكل منهما درجات ودركات.

وأما الأولاد فهم كما يقول الأدباء: ثمرة الفؤاد، وأفلاذ الأكباد، وحبهم كما قال الأستاذ الإمام: ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء، يحملهما على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهم من مال وصحة وراحة وغير ذلك . . فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم، والإنفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم، يحملهما ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة أو الملة والأمة، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة، والحقوق الثابتة، دع صدقات التطوع والضيافة، كما يحملهما الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى، والاعتراض عليه وغير ذلك من المعاصي، كنوح الأمهات وتمزيق ثيابهن، ولطم وجوههن، ففتنة الأولاد لها جهات كثيرة، فهي أكبر من فتنة الأموال، وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية، فالرجل يكسب الحرام، ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده، كما يفعل ذلك لكبائر شهواته، فإذا قلت شهواته في الكبر فصار يكفيه القليل من المال، يقوى في نفسه الحرص على شهوات أولاده، وما يكفي الآحاد، وفتنة الأموال قد تكون جزءا من فتنة الأولاد، فتقديمها و تأخير فتنة الأولاد، من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من الحلال، وإنفاقه في سبيل اللَّه من البر والإحسان واتقاء الحرام من الكسب والإنفاق، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره . . . بما أوجب اللَّه على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنيبهم أسباب المعاصي والرذائل، قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] وقد عطف على هذا التحذير قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إيثار ما عند اللَّه ﷻ

(١) التحريم: الآية (٦).

من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه في الأموال والأولاد، ووقف عند حدوده وتفضيله على كل ما عساه يفوته في الدنيا من التمتع بهما»[١].

قال عبد الكريم الخطيب: «قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ هو تنبيه للمؤمنين إلى مَكْمَن الخطر الذي تهب منه عليهم ريح السموم التي تعصف بإيمانهم، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم. وفي الأموال والأولاد يكمن هذا الداء الذي يجور على إيمان المؤمن، ويحمله على مركب الفتنة والضلال، إن لم يأخذ حذره، ويحرس نفسه من هذا العدو المتربص به.

فللمال سلطان على النفوس، وشهوة غالبة على القلوب، حيث لا حد للمال الذي يبلغ عنده الإنسان مبلغ الرضا والشبع؛ بل إنه كلما ازداد الإنسان جمعا للمال كلما ازداد نهمه وجوعه؛ بل ازداد سعاره وكلبه، بحيث يصبح جمع المال همه وغايته، فلا يبغي المال لتحقيق رغبة، أو إشباع شهوة، وإنما رغبته هو المال نفسه، وشهوته هو المال لا شيء سواه، ومن كان هذا شأنه فلن يملأ عينه مال الدنيا كلها لو اجتمع لديه.

كالحوت لا يكفيه شيء يَلْقَمه يصبح ظمآن والماء في فمه

وهذا هو موطن الفتنة، ومهب الشر من جانب المال. فإذا لم يأخذ الإنسان حذره، ويصحب المال على خوف ومحاذرة، جرفته شهوة المال إلى لجج الفتنة والضلال، فلا يعرف شاطئ الأمن والسلامة بعد هذا أبدا.

وللأولاد مثل ما للمال، من سلطان على الوالد، ومن تمكن في قلبه، واستيلاء على مشاعره، بحيث يحمله ذلك على أن يؤثرهما على نفسه، وأن يسوق إليهما كل ما وسعه جهده وحيلته، من ألوان البر والخير.

وتلك غريزة طبيعية في الإنسان؛ بل وفي الحيوان، وليس مما يحمد في الإنسان أن تخمد هذه الغريزة أو تضعف، ولكن الذي لا يحمد هو أن تجنح هذه الغريزة إلى جانب المغالاة، وتعدل بالإنسان عن الطريق السوي، فيحمله ذلك على أن يقتطع من حقوق الناس، ليملأ يد أبنائه مما يشاءون أو يشاء هو لهم.

ومن هنا كانت لفتة القرآن الكريم إلى هاتين الشهوتين: شهوة المال، وشهوة

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٤٥-٦٤٦).

البنين، وإلفات الناس إلى الحذر منهما، ومن الوقوع تحت سلطانهما.

وفي سبيل هذا الجهاد الذي يجاهد به المرء نفسه في مغالبة هاتين الشهوتين، يلقى المثوبة والرضوان من اللَّه في الآخرة، عوضا عما فاته من إشباع شهواته في الدنيا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾»[١].

قال ابن القيم: «وأما تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن؛ بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ﴾[٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[٣] وقوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٤] وجاء ذكر البنين مقدمًا كما في قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾[٥] وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾[٦] فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة فلأنها ينتظمها معنى واحد وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من اللَّه والدار الآخرة، فهي في موضع عن الالتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح، لا أموالهم ولا أولادهم ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه، ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه»[٧].

وفيه تنبيه على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا؛ لأنها أعظم في الشرف، وأعظم في الفوز، وأعظم في المودة؛ لأنها تبقى بقاء لا نهاية له»[٨].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ما يتقى من فتنة المال

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تعس عبد الدينار والدرهم**

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٩٤-٥٩٥).
(٢) سبأ: الآية (٣٧).
(٣) التغابن: الآية (١٥).
(٤) المنافقون: الآية (٩).
(٥) التوبة: الآية (٢٤).
(٦) آل عمران: الآية (١٤).
(٧) بدائع الفوائد (١/ ٧٤-٧٥).
(٨) أفاده الرازي في التفسير الكبير (١٥/ ١٥٧).

والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»[1].

★ غريب الحديث:

تعس: بكسر العين المهملة ويجوز الفتح؛ أي: سقط، والمراد هنا هلك، وقيل: التعس: الشر، وقيل: البعد؛ أي: بعدًا لهم.

القطيفة: هي الثوب الذي له خمل.

الخميصة: الكساء المربع.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «**عبد الدينار**» أي: طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده. قال الطيبي: قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة. وقوله: «**إن أعطي**» الخ. يؤذن بشدة الحرص على ذلك[2]. وقال غيره: جعله عبدًا لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبدًا لهواه لم يصدق في حقه ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فلا يكون من اتصف بذلك صديقًا»[3].

قال الصنعاني: «أراد بعبد الدينار والدرهم من استعبدته الدنيا بطلبها، وصار كالعبد لها تتصرف فيه تصرف المالك لينالها وينغمس في شهواتها ومطالبها، وذكر الدينار والقطيفة مجرد مثال، وإلا فكل من استعبدته الدنيا في أي أمر وشغلته عما أمر اللَّه تعالى، وجعل رضاه وسخطه متعلقا بنيل ما يريد أو عدم نيله فهو عبده. فمن الناس من يستعبده حب الإمارات، ومنهم من يستعبده حب الصور، ومنهم من يستعبده حب الأطيان.

واعلم أن المذموم من الدنيا كل ما يبعد العبد عن اللَّه تعالى، ويشغله عن واجب طاعته وعبادته، لا ما يعينه على الأعمال الصالحة، فإنه غير مذموم، وقد يتعين

---

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٣٠٤/ ٦٤٣٥) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٥-١٣٨٦/ ٤١٣٥).

(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٧٤).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٠٦).

طلبه، ويجب عليه تحصيله»[١].

قال ابن بطال: فيه: «ذم الحرص على الدنيا والشره على الازدياد منها؛ ولذلك آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شر فتنته»[٢].

قال ابن حجر: «فيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا، واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات»[٣].

قال ابن تيمية: «جماع الشر: الغفلة والشهوة، فالغفلة عن اللَّه والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة. والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلا عن اللَّه، رائدا غير اللَّه، ساهيا عن ذكره قد اشتغل بغير اللَّه قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطى رضي، وإن منع سخط»**. جعله عبد ما يرضيه وجوده، ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث. والقطيفة هي التي يجلس عليها فهو خادمها، كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه. والخميصة هي التي يرتدي بها وهذا من أقل المال، وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك، فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون. ولهذا قال إن أعطي رضي، وإن منع سخط، فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما، والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب»[٤].

---

(١) سبل السلام (٤/ ٣١٩).

(٢) شرح البخاري (١٠/ ١٦٠).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٠٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٩٧-٥٩٨).

* عن ابن عباس يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لو أن لابن آدم ملء واد مالًا لأحب أن له إليه مثله؛ ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب» قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا. قال: وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر(١).

* عن عباس بن سهل بن سعد قال: سمعت ابن الزبير على المنبر بمكة في خطبته يقول: يا أيها الناس، إن النبي ﷺ كان يقول: «لو أن ابن آدم أعطي واديًا ملآن من ذهب أحب إليه ثانيًا، ولو أعطي ثانيًا أحب إليه ثالثًا، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب اللَّه على من تاب»(٢).

* عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب»(٣).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الطيبي: «يمكن أن يقال: معناه أن بني آدم مجبولون على حب المال، والسعي في طلبه، وأن لا يشبع منه إلا من عصمه اللَّه تعالى، ووفقه لإزالة هذه الجبلة عن نفسه، وقليل ما هم، فوضع «ويتوب اللَّه على من تاب» موضعه؛ إشعارًا بأن هذه الجبلة المركوزة فيه مذمومة جارية مجرى الذنب، وأن إزالتها ممكنة، ولكن بتوفيق اللَّه وتسديده»(٤).

قال النووي: «فيه ذمّ الحرص على الدنيا وحب المكاثرة بها والرغبة فيها، ومعنى «لا يملأ جوفه إلا التراب» أنه لا يزال حريصًا على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره، وهذا الحديث خرج على حكم غالب بني آدم في الحرص على الدنيا، ويؤيده قوله ﷺ: «ويتوب اللَّه على من تاب» وهو متعلق بما قبله، ومعناه أن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٠)، والبخاري (١١/ ٣٠٤-٣٠٥/ ٦٤٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٢٥-٧٢٦/ ١٠٤٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٣٠٥/ ٦٤٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١١/ ٣٠٥/ ٦٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٢٥/ ١٠٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٩٢/ ٢٣٣٧) وقال: «حسن صحيح غريب».

(٤) شرح الطيبي (١٠/ ٣٣٢٢-٣٣٢٣).

اللَّه يقبل التوبة من الحرص المذموم وغيره من المذمومات»[١].

قال الحافظ: «في حديث ابن الزبير: «**ولا يسدّ جوف**»، وفي الرواية الثانية في الباب: «**ولا يملأ عين**»، وفي حديث أنس فيه «**ولا يملأ فاه**»، ومثله في حديث أبي واقد عند أحمد، وله في حديث زيد بن أرقم «**ولا يملأ بطن**»؛ قال الكرماني: ليس المراد الحقيقة في عضو بعينه بقرينة عدم الانحصار في التراب إذ غيره يملؤه أيضًا، بل هو كناية عن الموت؛ لأنه مستلزم للامتلاء، فكأنه قال لا يشبع من الدنيا حتى يموت، فالغرض من العبارات كلها واحد وهي من التفنن في العبارة. قلت: وهذا يحسن فيما إذا اختلفت مخارج الحديث، وأما إذا اتحدت فهو من تصرف الرواة، ثم نسبة الامتلاء للجوف واضحة، والبطن بمعناه، وأما النفس فعبر بها عن الذات، وأطلق الذات وأراد البطن من إطلاق الكل وإرادة البعض، وأما النسبة إلى الفم فلكونه الطريق إلى الوصول للجوف، ويحتمل أن يكون المراد بالنفس العين، وأما العين فلأنها الأصل في الطلب؛ لأنه يرى ما يعجبه فيطلبه ليحوزه إليه، وخص البطن في أكثر الروايات؛ لأن أكثر ما يطلب المال لتحصيل المستلذات وأكثرها يكون للأكل والشرب، وقال الطيبي: وقع قوله «**ولا يملأ**» الخ.. موقع التذييل والتقرير للكلام السابق، كأنه قيل: ولا يشبع من خلق من التراب إلا بالتراب. ويحتمل أن تكون الحكمة في ذكر التراب دون غيره أن المرء لا ينقضي طمعه حتى يموت، فإذا مات كان من شأنه أن يدفن، فإذا دفن صب عليه التراب فملأ جوفه وفاه وعينيه، ولم يبق منه موضع يحتاج إلى تراب غيره. وأما النسبة إلى الفم فلكونه الطريق إلى الوصول للجوف»[٢].

* عن علي ﷺ قال: بعثني رسول اللَّه ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها**». فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول اللَّه ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن

---

(١) شرح مسلم (٧/ ١٢٥).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٠٧-٣٠٨).

أبي بلتعة إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللَّه ﷺ. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«يا حاطب ما هذا؟»** قال: يا رسول اللَّه لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«قد صدقكم»**. فقال عمر: يا رسول اللَّه، دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: **«إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل اللَّه أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[(١)].

★ غريب الحديث:

تقدم غريب الحديث عند قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[(٢)].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد أن الذي دفع حاطبًا رضي الله عنه ليفعل ما فعل هو حرصه على أن تكون له يد عند قريش، فيحمون بها أهله وماله، وغفل عن عظم الجرم وجسامة الخطب الذي أقدم عليه، فكان هذا منبهًا لغيره حتى يكون له به قدوة، فكم من عظائم قد يقدم عليها الإنسان بدافع حب المال والولد والفتنة بهما.

قال القرطبي: «إنما تأول فيما فعل من ذلك: أن إطلاع قريش على بعض أمر رسول اللَّه ﷺ لا يضر رسول اللَّه ﷺ، ويخوف قريشا، ويحكى أنه كان في الكتاب تفخيم أمر جيش رسول اللَّه ﷺ، وأنهم لا طاقة لهم به، يخوفهم بذلك ليخرجوا عن مكة، ويفروا منها، وحسن له هذا التأويل: تعلق خاطره بأهله وولده؛ إذ هم قطعة من كبده، ولقد أبلغ من قال: قلما يفلح من كان له عيال، ولكن لطف اللَّه به، ونجاه لما علم من صحة إيمانه، وصدقه، وغفر له بسابقة بدر وسبقه»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧٩-٨٠)، والبخاري (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢/ ٢٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ١٠٨-١١٠/ ٢٦٥٠)، والترمذي (٥/ ٣٨١-٣٨٣/ ٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٧/ ١١٥٨٥).

(٢) الأنفال: الآية (٩).

(٣) المفهم (٦/ ٤٤٠).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

★ **غريب الآية:**

فرقانا: أي مخرجا، مصدر من قولهم: فرقت بين الشيء والشيء، أفرق بينهما فرقا وفرقانا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعمها، والأصل الجامع لها ولغيرها، وكلمة (الفرقان) فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة..

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ معناه: إن تتقوا اللَّه في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتزيلون بين الحجة والشبهة. وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل، وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمي الحكمي، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل، بما يعز المؤمن ويذل الكافر، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة. وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي، ذكر كل ما رآه مناسبا لحال وقته أو حال من لقنه ذلك، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوي، ولا المعنى الكلي الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها، وهذا النور في العلم الذي لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التي قال اللَّه فيها: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1] فهو كعهد اللَّه في إمامة الناس بالحق لا ينال الظالمين لأنفسهم

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٩).

بالتقليد لغيرهم لاحتقارها في جنب إطرائهم لمقلديهم؛ بل هم لا يطلبونه ولا يقصدون الوصول إليه؛ لأنهم صدقوا بعض الجاهلين في ادعائهم إقفال بابه، وكثافة حجابه؛ بل أصحابه هم الأئمة المجتهدون في الشرع والدين، والواضعون للعلوم التي تنفع الناس»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدّقوا اللّه ورسوله، إن تتقوا اللّه بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة أماناتكم ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، يقول: يجعل لكم فصلا وفرْقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين، بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم الظفر بهم ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، يقول: ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم بينكم وبينه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، يقول: ويغطيها فيسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، يقول: واللّه الذي يفعل ذلك بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه بفعله ذلك وفعل أمثاله. وإن فعله جزاء منه لعبده على طاعته إياه؛ لأنه الموفق عبده لطاعته التي اكتسبها، حتى استحق من ربه الجزاء الذي وعده عليها.

وقد اختلف أهل التأويل في العبارة عن تأويل قوله: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾فقال بعضهم: مخرجا، وقال بعضهم: نجاة، وقال بعضهم: فصلا. وكل ذلك متقارب المعنى، وإن اختلفت العبارات عنها»[2].

قال ابن كثير: «وقال محمد بن إسحاق: فرقانا أي: فصلا بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى اللّه بفعل أوامره، وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه -وهو محوها- وغفرها: سترها عن الناس، وسببا لنيل ثواب اللّه الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]»[4].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٤٧-٦٤٨).
(٢) جامع البيان (٩/ ٢٢٤).
(٣) الحديد: الآية (٢٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٣).

قال القرطبي: «إذا اتقى العبد ربه -وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه-، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير اللَّه في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا»[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: «ومن تقوى اللَّه، حراسة النفس من الشهوات المسلطة عليها، كشهوة المال والبنين التي نبهت إليها الآية السابقة. وفي تقوى اللَّه قوة يجد منها الإنسان العون على مغالبة الأهواء، ودفع الشهوات أو كسر حدتها. وفي تقوى اللَّه نور يهتدي به الإنسان إلى مواطن الحق والخير، حيث يبدو له وجه الحق واضحا وضيئا، يدعوه إليه، ويغريه بالإقبال عليه، على حين يرى وجه الباطل كاسفا كئيبا، فيعرض عنه ويفر منه. ومن هنا كان مع تقوى اللَّه دائما الهدى والنور، والمغفرة والرحمة، والفضل العظيم من رب العالمين، حيث يكون الإنسان في صحبة التقوى على نور من ربه، يميز به الحق من الباطل، فلا تتفرق به السبل، ولا يضل الطريق إلى اللَّه أبدا»[٢].

قال الرازي: «ولما كان اللفظ مطلقا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار، فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا، أو في أحوال الآخرة، أما في أحوال الدنيا: فإما أن يعتبر في أحوال القلوب، وهي الأحوال الباطنة، أو في الأحوال الظاهرة، أما في أحوال القلوب فأمور: أحدها أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة. وثانيها: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[٣]. وثالثها: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، ويزيل المكر والخداع عن صدورهم؛ مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءا من هذه الأحوال الخسيسة، والأخلاق الذميمة، والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقا

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٦).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٩٥-٥٩٦).
(٣) الزمر: الآية (٢٢).

بطاعة اللَّه تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات؛ لأن معرفة اللَّه نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا ظهر النور فلابد من زوال الظلمة، وأما في الأحوال الظاهرة، فإن اللَّه تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] وكما قال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك. وأما في أحوال الآخرة، فالثواب والمنافع والتعظيم من اللَّه والملائكة وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان»[3].

وقال ابن عاشور: «وقد أشعر قوله: ﴿لَّكُمۡ﴾ أن الفرقان شيء نافع لهم، فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتى يكونوا مطمئني البالِ، منشرحي الخاطر، وذلك يستدعي أن يكونوا: منصورين، غالبين، بُصراء بالأمور، كَمَلة الأخلاق سائرين في طريق الحق والرشد، وذلك هو ملاك استقامة الأمم، فاختيار الفرقان هنا؛ لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيرُه مُؤداه في هذا الغرض، وذلك من تمَام الفصاحة»[4].

وقال البقاعي: «ختم هذه الآية بالفضل على ما كان من نقص، إشارة إلى تفضله سبحانه بما رزق أهل الإسلام من علو المنزلة، وانتشار الهيبة، وفخامة الأمر في قلوب المخالفين كما هو مشاهد»[5].

وقال النيسابوري: «﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فإذا وعد بشيء وفى به أحسن الإيفاء. ومن عظيم فضله أنه يتفضل بذاته من غير واسطة، وبدون التماس عوض، وكل متفضل سواه فإنه لا يتفضل إلا بعد أن يخلق اللَّه فيه داعية التفضل، وبعد أن يمكن المتفضل عليه من الانتفاع بذلك، وبعد أن يكون قد تصور فيه ثوابا أو ثناء، أو حمله على ذلك رقة طبع، أو عصبية، وإلا فلا فضل في الحقيقة إلا لله سبحانه، فلهذا وصفه بالعظم»[6].

* * *

(١) المنافقون: الآية (٨).
(٢) التوبة: الآية (٣٣).
(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٣٢٦).
(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٦٦).
(٦) غرائب القرآن (٣/ ٣٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المكر: في الأصل: إخفاء الحيلة بإظهار خلاف ما يضمر على سبيل المكيدة والتبييت.

يثبتوك: أي يبيتون أمرًا يحبسونك به في حَرَكَتِكَ. يقال: أصبح المريض مُثْبَتًا: أي لا حراك له نحو اثبت الصيد إذا رميته فحبس، وقيل التثبيت هنا الضرب حتى لا يبقى للمضروب حركة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عبد الكريم الخطيب: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن تقوى اللَّه تعين الإنسان على اجتياز الصعاب، ومغالبة النزعات، واحتمال الأرزاء. وقد كان هذا هو موضوع الآية السابقة.

وفي هذه الآية المثل الكامل في التزام طريق الحق، حيث يتصدى النبي -وهو سيد المتقين- لما يسوق إليه المشركون من ألوان البلاء، وما يرمونه به من صنوف الإعنات والكيد، فيلقى ذلك صامدا صابرا، لا يثنيه الإغراء، ولا يُنَهنِهه الوعيد.. فقد صمد النبي الكريم أمام تلك الفتن العاصفة، التي كانت تهب من آفاق المشركين، ولم ينحرف عن طريقه القويم قيد شعرة.

ومن مكر الذين كفروا بالنبي ما كشفه اللَّه تعالى في تلك الآية، وهو أنهم أرادوا به أكثر من شر، فإما أن يثبتوه، أي يفسدوا عليه أمره، ويعجزوه عن القيام بدعوته. أو يقتلوه إن هو أبى إلا أن يمضي في طريقه، ويستمر في دعوته، وأعجزتهم الوسائل المتاحة لهم عن الإمساك به دون أن يتحرك. وإما أن يحملوه على أن يخرج من بينهم، ويترك موطنه الذي نشأ فيه. هذا كان مكرهم، وذلك كان كيدهم.

وقد أبطل اللّٰه هذا المكر، وأفسد هذا الكيد . فجاء أمر النبي على خلاف ما أرادوا وقدروا .

لقد حملوه على أن يهاجر من بينهم، ففاتهم بذلك حظهم من نور اللّٰه، الذي جعله اللّٰه إلى قوم هم أولى به وأحق منهم، ثم إن من دخل منهم في الإسلام من بعد هذا لم يكن في المنزلة التي أخذها الذين سبقوا إلى الإسلام وهاجروا، أو أولئك الأنصار الذين آووا ونصروا .

وفي قوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أن اللّٰه ﷻ إنما أخذهم بمثل فعلهم، وقتلهم بالسلاح الذي حاربوا اللّٰه ورسوله به»[1] .

قال ابن جرير : «فتأويل الكلام إذن : واذكر يا محمد نعمتي عندك بمكري بمن حاول المكر بك من مشركي قومك، بإثباتك، أو قتلك، أو إخراجك من وطنك، حتى استنقذتك منهم وأهلكتهم، فامض لأمري في حرب من حاربك من المشركين، وتولى عن إجابة ما أرسلتك به من الدين القيم، ولا يرعبنك كثرة عددهم، فإن ربك خير الماكرين بمن كفر به، وعبد غيره، وخالف أمره ونهيه»[2] .

قال ابن كثير : «قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أي : ليقيدوك . وقال عطاء وابن زيد : ليحبسوك، وقال السدي : الإثبات : هو الحبس والوثاق . وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو أمر مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنع من أراد غيره بسوء»[3] .

قال الألوسي : «وكل هذه الأقوال ترجع إلى أصل واحد وهو جعله ﷺ ثابتا في مكانه أعم من أن يكون ذلك بالربط، والحبس، والإثخان بالجراح، حتى لا يقدر على الحركة»[4] .

قال الرازي : «والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد ﷺ، واللّٰه تعالى نصره وقواه، فضاع فعلهم، وظهر صنع اللّٰه تعالى»[5] .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٩٦-٥٩٧).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢٣٠). (٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٣).

(٤) روح المعاني (٩/ ١٩٧).

(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٦٠).

وقال محمد رشيد رضا: «وأما قوله تعالى: (﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها في مكة، ولذلك لم يقل: (ويمكرون بك) أي: وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يمكرون بكم ويمكر اللَّه لك بهم كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم، وأخرج رسوله من بينهم، إلى حيث مهد له في دار الهجرة، ووطن السلطان والقوة، واللَّه خير الماكرين؛ لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله، وخذل للباطل وإذلال لأهله، وإقامة للسنن، وإتمام للحكم»[١].

وفي هذه الآية إثبات صفة المكر لله تعالى على وجه المقابلة، **قال الشيخ العثيمين**: «قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن تفعل أسبابا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدري، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة، والمكر يكون في موضع مدحا، ويكون في موضع ذما: فإن كان في مقابلة من يمكر فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه، وإن كان في غير ذلك فهو ذم، ويسمى خيانة. ولهذا لم يصف اللَّه نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ ولا يوصف اللَّه ﷻ به على الإطلاق، فلا يقال: إن اللَّه ماكر لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية، ولا يقال: إنه كائد لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحا في حال، ويكون ذما في حال؛ فلا يمكن أن نصف اللَّه به على سبيل الإطلاق. فأما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فهذا كمال، ولهذا لم يقل: أمكر الماكرين، بل قال: واللَّه خير الماكرين، فلا يكون مكره إلا خيرا، ولهذا يصح أن نصفه بذلك فنقول: هو خير الماكرين، أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة؛ أي: مقابلة من يمكر به فنقول: إن اللَّه تعالى ماكر بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾»[٣].

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٥٩٦-٥٩٧).

(٢) النمل: الآية (٥٠).

(٣) شرح الواسطية (١/ ٣٣١-٣٣٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حفظ الله لرسوله ﷺ من مؤامرة المشركين

* عن ابن عباس: «أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدًا، لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على النبي ﷺ، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك. قال: «يا بنية، إيتيني بوَضوء» فتوضأ، ثم دخل المسجد، فلما رأوه، قالوا: هاهو ذا، هاهو ذا، فخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم فلم يرفعوا إليه بصرًا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب، وقال: «شاهت الوجوه»، ثم حصبهم، فما أصاب رجلًا منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر»(١).

★ **غريب الحديث:**

تعاقدوا: أي: تعاهدوا.

بوَضوء: بالفتح: الماء الذي يتوضأ به. وبالضم: الوضوء والفعل نفسه.

أذقانهم: جمع ذَقَن، وهو مجتمع اللحيين من أسفلهما.

شاهت الوجوه: أي: قبحت. يقال: شاه يشوه شوهًا وشوه شوهًا. ورجل أشوه، وامرأة شوهاء.

حصبهم: أي: رماهم بالحصى الصغار.

★ **فوائد الحديث:**

فيه عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ من أذى المشركين ومكرهم.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان: ١٤/ ٤٣٠/ ٦٥٠٢)، والحاكم (٣/ ١٥٧) مختصرًا، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٨) وقال: «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح».

هذه الواقعة من دلائل نبوته ﷺ.

فيه أن النبي ﷺ كان أول ما يفزع إذا حضره أمر يهمه إلى الصلاة، وهو الأسوة لمن بعده من الدعاة.

والمعنى -يقول الصالحي-: «أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله تعالى منعه منهم وأظهره وقوّاه ونصره فضاع فعلهم وظهر فعل الله ﷻ، والله خير الماكرين لأن مكره حق»[1].

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آياتِ كتاب اللَّه الواضحةَ لمن شرح اللَّه صدره لفهمه، قالوا جهلا منهم، وعنادًا للحق، وهم يعلمون أنهم كاذبون في قيلهم ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾، الذي تُلِي علينا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآن الذي يتلى عليهم إلا أساطير الأولين..

وإنما عنى المشركون بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾إنْ هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد، إلا ما سطَّره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم! كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بني آدم، وأنه لم يوحِه اللَّه إليه»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يغرون به أنفسهم، ومن تبعهم على باطلهم»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «أي إن هؤلاء الكافرين الذين يمكرون بالنبي هذا المكر، ويدبرون له هذا التدبير، لا يستمعون لكلمات اللَّه ولا يعقلونها، ولو أنهم سمعوها وعقلوها لما كان منهم هذا الضلال الذي هم فيه، ولرأوا أن النبي لا يحمل إليهم إلا الهدى، ولا يدعوهم إلا للخير.

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٦).

فهؤلاء الكافرون، إذا تتلى عليهم آيات اللَّه لم يعطوها آذانا صاغية؛ بل تقع الكلمات على آذانهم كأنها أصوات لا مفهوم لها، ولهذا إذا قيل لهم استمعوا إلى كلمات اللَّه، قالوا: قد سمعنا ما يكفي، ولسنا في حاجة إلى أن نسمع جديدا، فما هذا الذي نسمعه إلا كلام من كلامنا، ولو أردنا أن نقول مثله لقلنا، وما يقصه علينا من قصص: إن هو إلا أساطير الأولين، وخرافات السابقين، وإن عندنا من هذا شيئًا كثيرًا. . فليس يعجزنا -والأمر كذلك- أن نقول مثل هذا الذي يسمعنا إياه محمد من هذا الكلام الذي يقول إنه من عند اللَّه، أو إنه من كلام الله! . .

ولو أنهم فكروا قليلا في هذا الكلام الذي خاطبهم اللَّه به، لوجدوا أنه وإن صيغ من لغتهم، ونظم من كلماتهم، فإنه ينفرد وحده من بين كل ما نطقوا به من كلام، وما تحدثوا به من لغة، وأنه -وهو كلام، وكلام معروف لهم وجهه، وجار على ألسنتهم التعامل به- وهو معجز مفحم، يتحدى على الزمن كله أرباب البلاغة، وسادة البيان أن يأتوا بسورة من مثله، وقد نازلهم القرآن في هذا الميدان، ودعاهم مرة بعد مرة أن يلقوه على هذا الطريق، وأن يجيئوا بسورة أو بعض سورة من تلك الأساطير التي يقولون إنها مادة هذا الكلام، ونظام عقده، وقد رد اللَّه تعالى عليهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «فهذا القول الصادر من هذا القائل، مجرد دعوى، كذبه الواقع. وقد علم أنه ﷺ أمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»[3].

قال الشنقيطي: «قد بينا قبل هذا، الآيات المصرحة بكذبهم، وتعجيز اللَّه لهم عن الإتيان بمثله، فلا حاجة إلى إعادتها هنا، وقوله: هنا في الآية عنهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ رد اللَّه عليهم كذبهم وافتراءهم هذا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى

---

(١) الطور: الآيتان (٣٣و٣٤).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٩٨-٥٩٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٣).

يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[(١)] وما أنزله عالم السر في السماوات والأرض فهو بعيد جدًّا من أن يكون أساطير الأولين، وكقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[(٢)] إلى غير ذلك من الآيات»[(٣)].

* * *

---

(١) الفرقان: الآيتان (٥-٦).

(٢) النحل: الآية (١٠٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[2]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾[3]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، وقال هؤلاء: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»[5].

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى: اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعي محمد ﷺ فافعل بنا كذا وكذا -أي أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند اللّه؛ لأنه نزل على محمد بن عبد

---

(١) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٢) ص: الآية (١٦).
(٣) المعارج: الآيات (١-٣).
(٤) الشعراء: الآية (١٨٧).
(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧).

اللَّه الذي يلقبونه بابن أبي كبشة؛ بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب أليم آخر يأخذهم على اتباعه، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتو وعلو في الأرض، لا لأن ما يدعوهم إليه باطل أو قبيح أو ضار. .

قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي وما كان من شأن اللَّه تعالى وسننه، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم، وهو إنما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة لا عذابا ونقمة؛ بل لم يكن من سنته أيضًا أن يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم فيهم؛ بل كان يخرجهم منهم أولا كما قال ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ هذا النوع من العذاب السماوي الذي عذب بمثله الأمم فاستأصلهم أو مطلقا ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي في حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وليس أبعد في الضلال، ولا أسَفَّ في السفه، من أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب المشحون بالبلاء، المحمول على صدر بحر متلاطم الأمواج، عاصف الريح، وقد كان بين أيديهم أن يستقلوا السفين القاصد إلى شاطئ الأمن والعافية، السابح فوق صفحة ماء رقراق، المسير بيد ريح رخاء!.

فماذا يدعوهم إلى هذا اللجاج في العناد، وإلى هذا التحدي لمنازلة البلاء؟ إنه لا شيء إلا الجهل الذي يعمي البصائر، وإلا الضلال الذي يطمس على القلوب!

وماذا عليهم لو جعلوا دعاءهم إلى اللَّه أن يهديهم سواء السبيل، وأن يقيمهم على طريق الحق، إن كان هذا الذي جاءهم به (محمد) هو الحق؟ إنهم لن يخسروا شيئًا، لو كان الذي جاءهم به (محمد) هو قول تقوله، أو أساطير اكتتبها. . فلو استجاب اللَّه لهم لعافاهم من البلاء، ولصرف عنهم السوء.

وإنهم ليربحون الربح أعظم الربح، لو كان الذي جاءهم به (محمد) على غير ما ظنوا وتوهموا، فكان الحق من عند اللَّه، والهدى المحمول في كلماته، والرحمة المرسلة مع آياته. !!

ولكن القوم عتوا عتوا كبيرا، وضلوا ضلالا بعيدا، فسألوا اللَّه أن يمطر عليهم

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٥٦).

حجارة من السماء، أو يسوق عليهم البلاء المبين والعذاب الأليم! ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. هكذا يقولونها بملء أفواههم، وهكذا يفعل الجهل بأهله، ويلج الضلال بأرباب الضلال!.

ولو أنهم كانوا على شيء من الحكمة والروية، لأخذوا موقفا غير هذا الموقف المشرف على مهاوي الهلاك، ولأخذوا بهذا الأسلوب الحكيم الذي رسمه ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون في نصحه للضالين المعاندين من قومه، إذ يقول لهم هذا القول الذي حكاه القرآن عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾[1] وقد استحق القوم أن يدانوا بما دانوا به أنفسهم، وأن يأخذوا بما شاء اللّه أن يأخذهم به وهو أن يمطر عليهم حجارة من السماء، أو يأتيهم بعذاب أليم، إذا كان هذا الذي جاءهم به (محمد) هو الحق من عند اللّه. فكيف يكون حكم اللّه فيهم بعد هذا؟

لقد كان اللّه ﷻ حفيًّا بنبيه، الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين، فلم يشأ -سبحانه- أن يأخذهم بالعذاب، وأن يعجل لهم العقوبة، والنبي الكريم بين أظهرهم، حتى لا يسوءه اللّه فيهم، ولا يحزنه بمصرعهم على يديه»[2].

قال القاسمي: «هذا أسلوب من الجحود بليغ؛ لأنهم عدوا حقية القرآن محالًا، فلذا علقوا عليه طلب العذاب الذي لا يطلبه عاقل، ولو كان ممكنًا لفروا من تعليقه عليه. والمعنى: إن كان هذا القرآن حقًّا منزّلًا فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر. وفي إطلاقهم (الحق) عليه وجعله من عند اللّه تهكم بمن يقول ذلك من النبي أو المؤمنين».

ثم قال: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ بيان للموجب لإمهالهم، وعدم إجابة دعائهم، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم والنبي بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة؛ لأن سنته تعالى، وقضية حكمته، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها؛ لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من

---

(١) غافر: الآية (٢٨). (٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٠-٦٠٢).

كان فيه. وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم»[١].

قال القرطبي: «ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم أو على وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة، ثم حلّ بهم يوم بدر ما سألوا». اهـ. فعلى هذا يكون تفسير العذاب الأليم ما أصابهم يوم بدر من القتل»[٢].

قال السعدي: «فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات، ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: (إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له)، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم. فمذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم، أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون. فلو عاجلهم اللَّه بالعقاب، لما أبقى منهم باقية. ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة، التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون اللَّه تعالى فلهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه اهـ»[٣].

قلت: وصفة استغفارهم ما روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقولون في طوافهم: (غفرانك).

قال القرطبي: «والاستغفار وإن وقع من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والأضرار، وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم؛ أي: «وما كان اللَّه معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا عذبهم اللَّه يوم بدر وغيره» قاله الضحاك وغيره»[٤].

وقال ابن عاشور -في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾- «فالذي يظهر أنها جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدد المشركين بالعذاب

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٤٥-٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٣-١٦٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٩).

ذكرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربهم بأن يؤمنوا بأنه واحد، ويصدقوا رسوله، فهو وعد بأن التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب، وتكون لهم أمنا، وذلك هو المراد بالاستغفار، إذ من البين أن ليس المراد بيستغفرون أنهم يقولون: غفرانك اللهم ونحوه، إذ لا عبرة بالاستغفار بالقول والعمل يخالفه فيكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تحريضا وذلك في الاستغفار وتلقينا للتوبة زيادة في الاعتذار لهم على معنى قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[1] وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تعريض بأنه يوشك أن يعذبهم إن لم يستغفروا.. وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات بأن المسلمين أمنوا من العذاب الذي عذب اللّه به الأمم؛ لأنهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المعاندين للحق يبلغ بهم العناد والكبر إلى طلب العذاب بدل طلب الهداية التي هي من شأن العقلاء

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾»[4].

* عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: «انكسفت الشمس على عهد رسول اللّه ﷺ فقام رسول اللّه لم يكد يركع، ثم ركع فلم يكد يرفع، ثم رفع، فلم يكد يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع، ثم رفع، فلم يكد يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع، ثم رفع، وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك، ثم نفخ في آخر سجوده، فقال: أف أف، ثم قال: رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم

---

(١) النساء: الآية (١٤٧). (٢) الأنفال: الآية (٣٨).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٤-٣٣٥).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٩٢/ ٤٦٤٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٥٤/ ٢٧٩٦).

يستغفرون؟ ففرغ رسول اللَّه ﷺ صلاته وقد أمحصت الشمس»[1].

★ غريب الحديث:

أمحصت: انجلت.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن حجر: «قوله: «قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا »الخ ظاهر في أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضي الباقون فنسب إليهم. وقد روى الطبراني من طريق ابن عباس أن القائل ذلك هو النضر بن الحارث. قال: فأنزل اللَّه تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[2] وكذا قال مجاهد وعطاء والسدي. ولا ينافي ذلك ما في الصحيح، لاحتمال أن يكونا قالاه، ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى. وعن قتادة قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها»[3].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[4].

* عن عبد اللَّه بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا»[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩)، وأبو داود (١/ ٧٠٤/ ١١٩٤) واللفظ له، والترمذي في الشمائل (المختصر: رقم ٢٧٨)، والنسائي (٣/ ١٥٤-١٥٥/ ١٤٨١)، وصححه: ابن خزيمة (٣/ ٣٢١/ ١٣٨٩) و(٣/ ٣٢٢-٣٢٣/ ١٣٩٢-١٣٩٣) و ابن حبان (٧/ ٧٩-٨٠/ ٢٨٣٨ الإحسان). والحاكم (١/ ٣٢٩) وقال: «صحيح غريب» ووافقه الذهبي.

(٢) المعارج: الآية (١).

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩و٤١و٧٦) واللفظ له، وأبو يعلى (٢/ ٤٥٨/ ١٢٧٣)و(٢/ ٥٣٠/ ١٣٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٧٦/ ١٢٩٣)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٦١) ووافقه الذهبي. وهو وهم منهما رحمهما اللَّه، لأن الحاكم روى هذا الحديث من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد به، ورواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة، إلا أن الحديث له طرق يتقوى بها، وهي عند أحمد وأبي يعلى كما سبق.
والحديث ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه وقال لا أبرح أغوي عبادك، والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى».

(٥) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ١١٨/ ١٠٢٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤/ ٣٨١٨) واللفظ له. قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».

★ **غريب الحديثين:**

أغوي: يقال: غوي غيًّا وغواية، فهو غاوٍ؛ أي: ضلّ، والغيّ: الضلال والانهماك في الباطل، ومنه قوله: أغويت الناس أي: خيبتهم، يقال: غوى الرجل: إذا خاب، وأغواه غيره.

طوبى: من أسماء الجنة. وقيل: هي شجرة فيها. وأصلها: فُعلى من الطيب، فلما ضمت الطاء انقلبت الياء واوًا.

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاسمي: «النبي عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١] ولهذا لما كسروا رباعيته قال: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**» ولم يغضب كما غضب نوح ﷺ وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٢] فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب، وكذا وجود الاستغفار فإن السبب الأولي للعذاب لما كان وجود الذنب، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته بل يوجب زواله، فلا يتسبب لغضب اللَّه، فمادام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون». انتهى[٣].

قال الطيبي: «فإن قلت: كيف المطابقة بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[٤] فإن الآية دلت على أن المخلصين هم الناجون فحسب، والحديث دال على أن غير المخلصين أيضًا ناجون؟ قلت: قيد قوله تعالى: ﴿وَمَن تَبِعَكَ﴾ أخرج العاصين المستغفرين منهم؛ لأن المعنى ممن تبعك، واستمر على المتابعة، ولم يرجع إلى اللَّه ولم يستغفر»[٥].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٢) نوح: الآية (٢٦).
(٣) نقلًا من محاسن التأويل (٨/ ٤٧).
(٤) الحجر: الآيات (٣٩-٤٣).
(٥) شرح المشكاة (٦/ ١٨٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وكيف لا يعذبهم اللَّه ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: الذي ببكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[(٢)] الآية»[(٣)].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما لهؤلاء المشركين ألا يعذبهم اللَّه وهم يصدون عن المسجد الحرام ولم يكونوا أولياء اللَّه ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ﴾ يقول: ما أولياء اللَّه إلا المتقون، يعني الذين يتقون اللَّه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه»[(٤)].

وقال السعدي: «﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعهم من عذاب اللَّه، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصا صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى اللَّه؛ أي: أولياء اللَّه. ويحتمل

---

(١) التوبة: الآيتان (١٧-١٨). (٢) البقرة: الآية (٢١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥١).

(٤) جامع البيان (٩/ ٢٣٩).

أن يعود إلى المسجد الحرام؛ أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾فلذلك ادعوا لأنفسهم أمرا، غيرهم أولى به»[1].

وقال ابن عطية: «والضمير في قوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ عائد على الله ﷻ من قوله: ﴿يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أو على المسجد الحرام، كل ذلك جيد، روي الأخير عن الحسن»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسدهم فيه، كطوافهم فيه عراة الأجسام رجالا ونساء، ولما أجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماما لهم، أجابه الله تعالى بأن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين، وأي ظلم أعظم شناعة وفسادا من الشرك؟ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون، وقد وجدوا. وهذا غاية التأكيد، فإنه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الإطلاق، واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدولهم وخيارهم لا من لا فضل لهم في أنفسهم، وإنما يدعون حق الولاية بأنسابهم.

وقيل: إن الضمير في الموضعين لله تعالى؛ أي: ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببي منع العذاب، والحال أنهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم؟ وكأن سائلا يسأل: مَن أولياؤه تعالى إذا؟ فأجيب بصيغة الحصر بالإثبات بعد النفي: ما أولياؤه إلا المتقون؛ أي: الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم.. والقول الأول أقرب في هذا السياق، والثاني أخص ويؤيده في حد ذاته قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٢).

(٣) لقمان: الآية (١٣).

﴿ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1] ويجوز الجمع بينهما .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا حق لهم في الولاية على هذا البيت، ولا سيما بعد ظهور الإسلام، ووجود أولياء اللّٰه الموحدين الصالحين، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الإبراهيمي وقد أبطله الظلم، وبقوتهم في قومهم وإن كانت إلى ضعف، أولا يعلمون أنهم ليسوا أولياء اللّٰه ﷻ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه، بمقتضى عدله في خلقه، والحقيقون بالولاية على بيته، على ما أعد لهم من الثواب والنعيم بفضله، كما صرحت به آياته في كتابه، وقد أسند هذا الجهل إلى أكثرهم، إذ كان فيهم من لا يجهل سوء حالهم في جاهليتهم وضلالهم في شركهم، وكونه لا يرضي اللّٰه تعالى، فإن امتنع رؤساؤهم من الإسلام كبرا وعنادا، فقد كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة، ويتربص الفرصة لإظهاره بالاستعداد للهجرة، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة، وللتفاوت في الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة، والناس يطلقون الحكم في مثل الحال التي كانوا عليها على الجميع، ويقولون: إن القليل لا حكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده؟ ولكن اللّٰه تعالى لا يخفى عليه شيء ولا يقول إلا الحق، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب، أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم هو من دقائق القرآن في تحرير الحق . .

هذا وإن جماهير المسلمين في أكثر بلادهم صاروا في هذا العصر أجهل من مشركي قريش في ذلك العصر، بمعنى ولاية اللّٰه وأوليائه سواء في ذلك ولاية الحكم والسلطان وهي الإمامة العامة، وولاية التقوى والصلاح، وهي الإمامة الشخصية الخاصة، وجهلهم بهذه أعم وأعمق، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين ترتع الحشرات في أجسادهم النجسة، وثيابهم القذرة، ويسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات، والدعاوى الباطلة للكرامات، والشرك باللّٰه بدعاء الأموات، ومن أدلتهم عليها ما يتخيلون من رؤى الأنبياء والأقطاب في المنام، وما يزعمون من تلقيهم عنهم ما تنبذه شريعة المصطفى ﷺ، حتى صار ما هم عليه دين شرك منافيا لدين الإسلام، فعليك

(١) يونس: الآيتان (٦٢-٦٣).

بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان»[١].

قال ابن عاشور: «وقد أفادت الآية: أنهم استحقوا العذاب، فنبهت على أن ما أصابهم يوم بدر، من القتل والأسر هو من العذاب، ولكن اللَّه قد رحم هذه الأمة تكرمة لنبيه محمد ﷺ فلم يؤاخذ عامتهم بظلم الخاصة؛ بل سلط على كل أحد من العذاب ما يُجازي كفره وظُلمه وإذايته النبي ﷺ والمسلمين، ولذلك عذب بالقتل والأسر والإهانة نفرًا عُرفوا بالغلو في كفرهم وأذاهم، مثل النضر بن الحارث، وطعيمة بن عدي، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وأبي جهل، وعذب بالخوف والجوع من كانوا دون هؤلاء كفرًا، واستبقاهم وأمهلهم فكان عاقبة أمرهم أن أسلموا بقرب أو بُعد، وهؤلاء مثل أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وخالد بن الوليد، فكان جزاؤه إياهم على حسب علمه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في البراءة من المشركين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أوليائي يوم القيامة المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون: يا محمد فأقول هكذا وهكذا: لا**» وأعرض في كلا عطفيه[٣].

* عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ -جهارًا غير سر- يقول: «**إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها**» يعني: أصلها بصلتها[٤].

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أولى الناس بي المتقون،**

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٥٨-٦٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨٩٧)، وابن أبي عاصم (رقم٢١٣)، وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٧٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٣)، والبخاري (١٠/ ٥١٣/ ٥٩٩٠)، ومسلم (١/ ١٩٧/ ٢١٥).

من كانوا وحيث كانوا»[١].

★ غريب الأحاديث:

جهارًا: المعنى: كان المسموع في حال الجهار دون السر، وهذا للتأكيد.

وليي الله: الوليّ هو الناصر.

رحم: قرابة.

أبُلُّها: أنديها ببلالها؛ أي: بما يجب أن تندى به، ومنه: بلوا أرحامكم؛ أي: ندوها؛ أي: صلوها، يقال للوصل: بلل؛ لأنه يقتضي الاتصال.

★ فوائد الأحاديث:

قال الطيبي: «قال التوربشتي: المعنى أني لا أوالي أحدًا بالقرابة، وإنما أحب اللَّه سبحانه لما يحق له على العباد، وأحب صالحي المؤمنين لوجه اللَّه سبحانه، وأوالي من أوالي بالإيمان والصلاح، ولكن أراعي لذوي الرحم حقهم، هذا من فحول الكلام»[٢].

قال النووي: «معناه: إنما وليي من كان صالحًا وإن بعد نسبه مني وليس وليي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريبًا»[٣].

قال القرطبي: «وفائدة الحديث انقطاع الولاية بين المسلم والكافر وإن كان قريبًا حميمًا»[٤].

قال ابن بطال: «قال المهلب: «**إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين**»، فأوجب ﷺ الولاية بالدين ونفاها عن أهل رحمه؛ إذ لم يكونوا من أهل دينه، فدل ذلك أن النسب محتاج إلى الولاية التي بها تقع الوراثة بين المتناسبين والأقارب، فإن لم يكن لهم دين يجمعهم لم تكن ولاية ولا موارثة»[٥].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٥)، وصححه ابن حبان (٢/ ٤١٤-٤١٥/ ٦٤٧ الإحسان) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢) وقال: «رواه أحمد بإسنادين ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد وهما ثقتان».

(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٥٦).

(٣) شرح مسلم (٣/ ٧٤).

(٤) المفهم (١/ ٤٦١).

(٥) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المكاء: صفير الطائر. يقال: مكا الطير يمكو مكاء ومكوا صَفَّرَ، والمكَّاء طائر.

التصدية: التصويت بتصفيق وغيره، ومنه الصدى وهو ما يسمعه المصوت في الأماكن الخالية ذوات الأجرام الصلبة، كالعمران والكهوف في الجبال والبيوت المكلسة، وقيل: الصدى صوت يرجع من مكان صقيل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عبد الكريم الخطيب: «والمعنى أن صلاة هؤلاء المشركين التي يؤدونها لأصنامهم عند البيت الحرام -هذه الصلاة ليست إلا ضربا من اللهو والعبث، حيث لا يجدون ما يقولونه لهذه الأحجار المرصوصة، وتلك الخشب المسندة! وإذ يعوزهم القول في هذا المقام، وتنهزم في كيانهم مشاعر الجدّ والوقار لهذه المعبودات التي يتعبدون لها -فإنه لكي يكون لصلاتهم تلك، صوت يسمع، وأثر يحس، وواقع يرى- فقد استجلبوا لها هذه الأصوات المنكرة، وتلك الجلبة العمياء، حتى يداروا بها عوار هذه المظاهر الكاذبة التي تفضح المستور مما يدور في خواطرهم من هزء وسخرية بتلك الآلهة التي يؤدون لها هذا الولاء الزائف، والذي لو انكشف مستوره لكان صفعا وركلا، ولكنه جاء صفيرا وتصفيقا، أقرب شيء إلى الصفع والركل. (الصفع بالأيدي، والركل بالأرجل).

وفي قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا الذي يأتونه هو كفر بالله، وصدود عن سبيله، بتولية وجوههم إلى هذه السخافات، وقطع عمرهم في هذا العبث الذي يحسبونه عبادة، ويعدونه صلاة يجزون عليها جزاء العابدين المصلين!!

والعذاب الذي قدم إليهم هنا ليذوقوه، وليطمعوا منه هو ما نزل بهم من هزيمة منكرة يوم بدر، وما أريق فيه من دماء ساداتهم وكبرائهم. وتلك جرعات عاجلة في هذه الدنيا، ولعذاب الآخرة أقسى قسوة، وأمرّ مرارة»[١].

قال الشنقيطي: «قال بعض العلماء: والمقصود عندهم بالصفير والتصفيق التخليط، حتى لا يسمع الناس القرآن من النبي ﷺ؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٢]»[٣].

قال ابن عطية: «وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتصدية إنما أحدثها الكفار عند مبعث رسول اللّٰه ﷺ؛ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءتهم وصلاتهم، ويخلط عليهم، فكان المصلي إذا قام يقرأ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكوا ويصدي حتى تختلط عليه قراءته، فلما نفى اللّٰه تعالى ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده، فقطع اللّٰه هذا الاعتراض بأن قال: وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصدية، وهذا كما يقول رجل: أنا أفعل الخير، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل؛ أي: هذه عادتك وغايتك. قال القاضي أبو محمد: والذي مر بي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المكاء والتصدية كان من فعل العرب قديما قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشرع، ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من جبل حراء، وبينهما أربعة أميال، وعلى هذا يستقيم تعييرهم، وتنقيصهم بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، إنما كانت مكاء وتصدية من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزيدون فيها وقت النبي ﷺ؛ ليشغلوه وأمته عن الصلاة»[٤].

قال الشوكاني: «وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم، ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم، والمراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر، وعذاب الآخرة»[٥].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٥-٦٠٦).

(٢) فصلت: الآية (٢٦). (٣) أضواء البيان (٢/ ٥٤).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٥) فتح القدير (٢/ ٤٢٩).

قال القرطبي: «فيه رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون؛ وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء، ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت»[١].

قال ابن القيم: «قال ابن عرفة وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن اللَّه تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار، وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتي أي: أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه إلا مجرد الشبه الظاهر فلهم قسط من الذم، بحسب تشبههم بهم. وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، واللَّه سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح؛ لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعا من المعاصي قولا وفعلا؟»[٢].

قال محمد حامد الفقي في تعليقه على كلام ابن القيم: «ليسا صلاة عند اللَّه حقيقة. وإنما سماها اللَّه صلاة لأنهم كانوا يفعلونهما في حركاتهم الموقعة على نغم التصفيق والصفير، ويقصدون بذلك القربة إلى اللَّه. فعاب اللَّه عليهم ذلك وذمهم، وبين أنه لا يحب ذلك ولا يجزيهم عليه إلا العذاب الأليم. وذلك مثل حلقات المتصوفة في زمننا سواء بسواء: حركات ورقص على أنغام الصفير والتصفيق، زين لهم هواهم المستحكم وجهلهم، وشياطينهم من الجن والإنس أنها ذكر لله وعبادة. تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرا»[٣].

قال ابن تيمية: «إذا عرف هذا، فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام، ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٥٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٨ هامش).

على مثل سماع المكاء والتصدية، لا بدف، ولا بكف، ولا بقضيب، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه. فقال الشافعي ﷺ: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة، يسمونه (التغبير[1]) يصدون به الناس عن القرآن. وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا الفاسق، ومتى كان التغبير؟!. وسئل عنه الإمام أحمد، فقال: أكرهه، هو محدث. قيل: أنجلس معهم؟ قال: لا. وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد ابن أبي الحواري، والسري السقطي، وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم، وأعيان المشائخ عابوا أهله، كما فعل ذلك عبد القادر والشيخ أبو البيان وغيرهما من المشائخ، وما ذكره الشافعي -رضي اللَّه عنه- من أنه من إحداث الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة: كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا وأمثالهم.. ومن كان له خبرة بحقائق الدين، وأحوال القلوب ومعارفها، وأذواقها ومواجيدها، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة، ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه، فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل في النفوس فعل حميا الكؤوس.. وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله اللَّه إماما، وأهل دين الإسلام، والذي لا يقبل اللَّه من أحد دينا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ فهؤلاء ليس فيهم من يرغب في ذلك، ولا يدعو إليه. وهؤلاء هم أهل القرآن، والإيمان، والهدى، والسعد، والرشاد، والنور، والفلاح، وأهل المعرفة والعلم، واليقين والإخلاص، والمحبة له، والتوكل عليه، والخشية له، والإنابة إليه. ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة، وممن له نصيب من المحبة؛ لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، كما

---

(١) التغبير: قال في اللسان (٥/ ٥) مادة «غبر»: «قال الأزهري: وقد سَمَّوْا ما يُطَرِّبون فيه من الشِّعْر في ذكر اللَّه تَغْبيرًا كأَنهم إذا تَنَاشَدُوهُ بالألحان طَرَّبوا فَرَقَّصوا وأَرْهجوا فسُمّوا مُغَبِّرة لهذا المعنى. والمُغَبِّرة قوم يُغَبِّرون بذكر اللَّه تعالى بدعاء وتضرّع، كما قال: عبادكَ المُغَبِّره، رُشَّ علينا المَغفِرَه، وقال الزجاج: سُمّوا مُغَبِّرين لتزهيدهم الناس في الفانية، وهي الدنيا، وترغيبهم في الآخرة الباقية».

دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظنا منهم أنه حق موافق، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علما وحالا وقولا وعملا ومعرفة وذوقا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة؛ فإن اللَّه بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى باللَّه شهيدا»[1].

وقال أيضًا: «وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم: أن النبي ﷺ لم يترك شيئًا يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به، ولا شيئًا يبعد عن النار إلا وقد حدث به، وأن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه اللَّه ورسوله، فإن اللَّه يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[2]»[3].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٦٩-٥٧٤) باختصار وتصرف.

(٢) المائدة: الآية (٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٩٤-٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

★ غريب الآية:

حسرةً: الحسرة الغم على ما فاته والندم عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقووا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك ثم تكون نفقتهم تلك عليهم حسرة، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله معلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك، أما الحي فَحُرِبَ مالُه، وذهب باطلا في غير درك ولا نفع، ورجع مغلوبا مقهورا محزونا مسلوبا، وأما الهالك فقتل وسلب وعجل به إلى نار الله يخلد فيها نعوذ بالله من غضبه»[1].

وقال ابن كثير: «فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجْدِ شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعْلِن كلمته، ومظهر دينه

(١) جامع البيان (٩/ ٢٤٤).

على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قُتِل منهم أو مات فإلى الخِزْي الأبدي والعذاب السَّرْمَدِيّ»[١].

قال القاسمي: «قال بعضهم: ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية اللَّه تعالى، وأن الإنفاق في ذلك معصية، فيدخل في هذا معاونة الظلمة على حركاتهم في البغي والظلم، وكذلك بيع السلاح والكراع[٢] ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين»[٣].

قال ابن عطية: «وهذا إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون، قبل أن يكون فكان كما أخبر»[٤].

قال أبو حيان: وفي ذلك «إخبار عن علو الإسلام، وغلبة أهله، وكذا وقع. فتحوا البلاد، ودوخوا العباد، وملأ الإسلام معظم أقطار الأرض، واتسعت هذه الملة اتساعا لم يمكن لشيء من الملل السابقة»[٥].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وفي العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إشارة إلى أن الحسرة والهزيمة قد لا يكونان بعد كل مال ينفقونه، فقد يقع للمشركين في بعض مواقفهم من المسلمين ما يحسبونه نصرا، ويرونه وجها نافعا مثمرا لهذا المال الذي أنفقوه، كما كان في موقعة (أحد). ولكن العبرة في هذا بالموقعة الفاصلة التي تنكس فيها راية الشرك إلى الأبد، ويخفت صوت المشركين إلى يوم الدين. وذلك ما انتهى إليه الأمر بين المسلمين والمشركين، فقد دخل رسول اللَّه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- يقود جيش الإسلام- دخل على الشرك في حصنه فاتحا مظفرا، فأجلى عن البيت الحرام ما احتشد فيه من أصنام وأنداد، وألقى بها في مسالك مكة ودروبها تدوسها الأقدام، وتحيلها أشلاء ممزقة، يمر بها الناس كما يمرون بالجثث المتعفنة، يتساقط عليها الذباب، وترعى فيها الهوام والحشرات»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣).
(٢) الكراع: اسم لجميع الخيْل.
(٣) محاسن التأويل (٨/ ٥٤).
(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٥).
(٥) البحر المحيط (٤/ ٤٨٧).
(٦) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٨).

قال محمد رشيد رضا: «ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين، ومن حيث أفرادهم الفوز بإحدى الحسنيين، هكذا كان في كل زمان قام المسلمون فيه بحقوق الإسلام والإيمان، وهكذا سيكون إذا عادوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالحون. والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العوام بجهاد سلمي، أعم من الجهاد الحربي، وهو الدعوة إلى أديانهم، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم، والمسلمون مواتون، يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٦٢).

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

يَمِيزَ: يُبَيِّنَ ويخلص هذا من هذا. والمَيْزُ والتمييز: الفَصْلُ بين المتشابهات.

يَرْكُمَهُ: أي: يجعله متراكبًا بعضه فوق بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[2] وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[4] ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل اللّه للكفار من مال ينفقونه في الصد عن سبيل اللّه؛ أي: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾[5] الآية، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[6] الآية وقال

---

(١) يونس: الآية (٢٨).
(٢) الروم: الآية (١٤).
(٣) الروم: الآية (٤٣).
(٤) يس: الآية (٥٩).
(٥) آل عمران: الآيتان (١٦٦-١٦٧).
(٦) آل عمران: الآية (١٧٩).

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[١] ونظيرتها في براءة أيضًا. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك، ليميز اللَّه الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾[٢] أي: متراكما متراكبا، ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة»[٣].

وقال عبد الكريم الخطيب: «أي أن هذا الصراع الذي يقع بين الحق والباطل، ويدور بين المحقين والمبطلين، هو ابتلاء واختبار، تتبين به مواقف الناس، وتعرف به وجوههم، حيث يجتمع المؤمنون إلى المؤمنين، وينحاز المشركون إلى المشركين والضالين، ويوفى كل حسابه وجزاءه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ إشارة إلى أن مجتمع الكفر والضلال مجتمع فاسد ليس لإنسان فيه ذاتية يتميز فيها إنسان عن إنسان، بعقله، ومدركاته، ومشاعره، كما يتميز عقلاء الناس، كل بإدراكه وإحساسه وشعوره. فهم أشبه بقطيع من الحيوان، ليس لأحدهما في حقيقته ما يميزه عن غيره، إلا باللون أو الحجم، أما ما وراء ذلك فهي جميعها سواء فيه. ومن هنا كان التعبير القرآني: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يخلط بعضه ببعض خلطا لا حساب فيه لشيء، ولا تقديم لشيء على شيء، وإنما حكمها جميعًا حكم حزمة الحطب يحتويها حبل واحد. ثم كان التعبير القرآني ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: أن غاية هذا الجمع لتلك الجماعات الضالة هو إعدادها للوقود، وإلقاؤها في جهنم. هكذا يفعل بالحطب حين يجمع، وحين يقدم للوقود! وهكذا الخبيث من الأشياء، والنفاية من كل شيء يلقى به بلا حساب ولا تقدير!»[٤].

---

(١) آل عمران: الآية (١٤٢)

(٢) النور: الآية (٤٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٨-٦٠٩).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

السنة: الطريقة والسيرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما بين ضلالهم في عبادتهم البدنية والمالية، وكان كثير من العبارات السالفة القطع للذين كفروا بلفظ الماضي بالشقاء، كان ذلك موهما لأن يراد من أوقع الكفر في الزمن الماضي وإن تاب، فيكون مؤيسا من التوبة، فيكون موجبا للثبات على الكفر، قال تعالى متلطفا بعباده مرشدا لهم إلى طريق الصواب مبينا المخلص مما هم فيه من الوبال في جواب من كأنه قال: أما لهم جبلة يتخلصون بها من الخسارة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ﴾ أي: لأجل الذين ﴿كَفَرُوٓاْ﴾أني أقبل توبة من تاب منهم بمجرد انتهائه عن حاله﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ أي: يتجدد لهم وقتًا ما الانتهاء عن مغالبتهم بالانتهاء عن كفرهم فيذلوا لله ويخضعوا لأوامره ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ بناه للمفعول لأن النافع نفس الغفران وهو محو الذنب ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: مما اجترحوه كائنًا ما كان فيمحي عينًا وأثرًا فلا عقاب عليه ولا عتاب ﴿وَإِن﴾ أي: وإن يثبتوا على كفرهم و﴿يَعُودُواْ﴾ أي: إلى المغالبة ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ﴾ أي: طريقة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وجدت وانقضت ونفذت فلا مرد لها بدليل ما سمع من أخبار الماضين وشوهد من حال أهل بدر مما أوجب القطع بأن الله مع المؤمنين وعلى الكافرين، ومن كان معه نصر، ومن كان عليه خذل وأخذ وقسر ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[1] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ

(١) المجادلة: الآية (٢١).

﴿ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[١] ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وإن كانت الحرب سجالًا»[٣].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ، قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك: إن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله، وقتالك وقتال المؤمنين، فينيبوا إلى الإيمان، يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم، ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ يقول: وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر، فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر، ومن غيرهم من القرون الخالية، إذ طغوا وكذبوا رسلي، ولم يقبلوا نصحهم من إحلال عاجل النقم بهم، فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذين أحللت بهم»[٤].

وقال عبد الكريم الخطيب: في قوله تعالى: «﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو تهديد، ووعيد لهؤلاء المشركين الذين أخزاهم الله يوم بدر. فإن يكن فيما حدث لهم يوم بدر موعظة وعبرة، فيؤمنوا بالله، ويصدقوا برسوله، ويصبحوا مؤمنين مع المؤمنين -إن يفعلوا ذلك قبلهم الله، وغفر لهم ما كان منهم من منكرات وآثام، وإن يعودوا إلى ما هم فيه من كفر وعناد، ومحادة لله ورسوله، فقد عرفوا ما سيحل بهم من عذاب الله لهم. فتلك هي سنة الله في خلقه، وذلك هو حكمه على الظالمين الآثمين: الخزي والخذلان في الدنيا، والعذاب والنكال في الآخرة. ولقد فتح الله باب التوبة والقبول لمن كان له مع نفسه مراجعة، وله إلى الله عودة. فماذا ينتظر هؤلاء المشركون الذين ركبوا رؤوسهم، وأوشكوا أن يصبحوا في الهالكين؟»[٥].

وقال السعدي: «هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ عن كفرهم وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له. ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الجرائم ﴿وَإِن

(١) الحج: الآية (٤٠).
(٢) القصص: الآية (٨٣).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٤) جامع البيان (٩/ ٢٤٧).
(٥) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٩).

﴿يَعُودُواْ﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندين، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين»[١].

قال أبو بكر ابن العربي: «قال علماؤنا: هذه لطيفة من اللَّه سبحانه من بها على الخليقة؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي، ويرتكبون المآثم، فلو كان ذلك يوجب مؤاخذتهم لما استدركوا أبدا توبة، ولا نالتهم مغفرة، فيسر اللَّه عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبول كلمة الإسلام، وتأليفا على الملة، وترغيبا في الشريعة، فإنهم لو علموا أنهم يؤاخذون لما أنابوا ولا أسلموا»[٢].

قال القاسمي: «استدل بالآية على أن الإسلام يجب ما قبله، كما جاء في الحديث، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة، أو صوم، أو إتلاف مال، أو نفس»[٣].

قال ابن القيم: «فتبين بهذا أن الكفار المحاربين إذا استولوا على أموال المسلمين، ثم أسلموا كانت لهم ولم ترد إلى المسلمين؛ لأنها أخذت في اللَّه، وأجورهم فيها على اللَّه، لما أتلفه الكفار من دمائهم وأموالهم، فالشهداء لا يضمنون؛ ولو أسلم قاتل الشهيد لم يجب عليه دية ولا كفارة بالسنة المتواترة، واتفاق المسلمين. وقد أسلم جماعة على عهد النبي ﷺ، وقد عرف من قتلوه مثل وحشي بن حرب قاتل حمزة، ومثل قاتل النعمان بن قوقل وغيرهما، فلم يطلب النبي أحدا بشيء عملا بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾»[٤].

قال الرازي: «احتج أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية على أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ١٦٧).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٥٢).
(٣) محاسن التأويل (٨/ ٥٥).
(٤) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٦٠)، وانظر الصارم المسلول (٢/ ٢٩٦) فما بعده.

قضاء العبادات التي تركها في حال الردة، وقبلها، ووجه الدلالة ظاهر»[١].

قال ابن تيمية: «فالمرتد إذا أسلم لا يقضي ما تركه حال الردة عند جمهور العلماء، كما لا يقضي الكافر إذا أسلم ما ترك حال الكفر باتفاق العلماء، ومذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد في أظهر الروايتين عنه والأخرى يقضي المرتد كقول الشافعي، والأول أظهر؛ فإن الذين ارتدوا على عهد رسول الله ﷺ كالحارث بن قيس، وطائفة معه أنزل الله فيهم: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾[٢] الآية والتي بعدها. وكعبد الله بن أبي سرح، والذين خرجوا مع الكفار يوم بدر، وأنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] فهؤلاء عادوا إلى الإسلام، وعبد الله بن أبي سرح عاد إلى الإسلام عام الفتح، وبايعه النبي ﷺ، ولم يأمر أحدا منهم بإعادة ما ترك حال الكفر في الردة، كما لم يكن يأمر سائر الكفار إذا أسلموا. وقد ارتد في حياته خلق كثير، اتبعوا الأسود العنسي الذي تنبأ بصنعاء اليمن، ثم قتله الله، وعاد أولئك إلى الإسلام ولم يؤمروا بالإعادة، وتنبأ مسيلمة الكذاب، واتبعه خلق كثير قاتلهم الصديق والصحابة بعد موته ﷺ حتى أعادوا من بقي منهم إلى الإسلام، ولم يأمر أحدا منهم بالقضاء، وكذلك سائر المرتدين بعد موته. وكان أكثر البوادي قد ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام، ولم يأمر أحدا منهم بقضاء ما ترك من الصلاة، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ يتناول كل كافر»[٤].

قال الرازي: «احتج أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشرائع، قالوا لأنهم لو كانوا مخاطبين بها؛ لكان إما أن يكونوا مخاطبين بها مع الكفر أو بعد زوال الكفر. والأول باطل بالإجماع، والثاني باطل؛ لأن هذه الآية تدل على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مر عليه في زمان الكفر، وإيجاب تلك العبادات ينافي ظاهر الآية»[٥].

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ١٦٨). (٢) آل عمران: الآية (٨٦).
(٣) النحل: الآية (١١٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٦-٤٧).
(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٦٨).

قال الشنقيطي: «أما خطاب الكفار بفروع الإسلام فاختلف فيه فقيل غير مخاطبين بها واحتج من قال بأنهم غير مخاطبين بها: بأنهم لو فعلوها في حال كفرهم لم تقبل منهم، ولا يجب قضاؤها عليهم بعد الإسلام، وما لم يقبل منهم فلا يخاطبون به، وهذا الاحتجاج مردود؛ لأنهم مخاطبون بها وبما لا تصح إلا به وهو الإسلام، كالمحدث يخاطب بالصلاة، وبما لا تصح الصلاة إلا به كالطهارة، كما قدمنا من أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والحق أنهم مكلفون بها لدلالة النصوص على ذلك، فمن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[1] ففي الآية التصريح بأن من الأسباب التي سلكتهم في سقر عدم إطعام المسكين وهو فرع من الفروع.. واعلم أن هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال: الأول: أنهم مخاطبون بها وهو الحق. والثاني: أنهم غير مخاطبين بها مطلقا. الثالث: أنهم مخاطبون بالنواهي لصحة الكف عن الذنب منهم دون الأوامر. وحجة من قال بالإطلاق أن الكف عن المنهي عنه وإن صدر منهم فلا أجر لهم فيه؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، وأما الجواب عن كونها لا تقضى بعد الإسلام فهو أن الإسلام يجب ما قبله»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن التوبة تهدم ما قبلها

* عن عمرو بن العاص ﷺ قال: لما جعل اللَّه الإسلام في قلبي، أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه قال: فقبضت يدي، قال: «**ما لك يا عمرو؟**» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يغفر لي، قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «ومقصودها: أن هذه الأعمال الثلاثة تسقط الذنوب التي

(١) المدثر: الآيات (٤٢-٤٤).

(٢) مذكرة في أصول الفقه (٣٩-٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٩و٢٠٤و٢٠٥)، ومسلم (١/ ١١٢/ ١٢١) واللفظ له.

تقدمتها كلها صغيرها وكبيرها، فإن ألفاظها عامة خرجت على سؤال خاص؛ فإن عمرا إنما سأل أن يغفر له ذنوبه السابقة بالإسلام، فأجيب على ذلك، فالذنوب داخلة في تلك الألفاظ العامة قطعا، وهي بحكم عمومها صالحة لتناول الحقوق الشرعية، والحقوق الآدمية، وقد ثبت ذلك في حق الكافر الحربي إذا أسلم، فإنه لا يطالب بشيء من تلك الحقوق، ولو قتل وأخذ الأموال، لم يقتص منه بالإجماع، ولو خرجت الأموال من تحت يده لم يطالب بشيء منها، ولو أسلم الحربي وبيده مال مسلم، عبيد أو عروض أو عين، فمذهب مالك أنه لا يجب عليه رد شيء من ذلك، تمسكا بعموم هذا الحديث، وبأن للكفار شبه ملك فيما حازوه من أموال المسلمين وغيرهم؛ لأن اللّه تعالى قد نسب لهم أموالا وأولادا فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾[1] وذهب الشافعي إلى أن ذلك لا يحل لهم، وأنه يجب عليهم ردها إلى من كان يملكها من المسلمين، وأنهم كالغصاب، وهذا يبعده أنهم لو استهلكوا ذلك في حالة كفرهم، ثم أسلموا، لم يضمنوا بالإجماع، على ما حكاه أبو محمد عبد الوهاب، فأما أسر المسلمين الأحرار فيجب عليهم رفع أيديهم عنهم؛ لأن الحر لا يملك، وأما من أسلم من أهل الذمة فلا يسقط الإسلام عنه حقا وجب عليه لأحد من مال، أو دم، أو غيرهما؛ لأن أحكام الإسلام جارية عليهم. واستيفاء الفروع في كتب الفقه»[2].

* عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رجل: يا رسول اللّه أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»[3].

★فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما معنى الحديث فالصحيح فيه ما قاله جماعة من المحققين أن المراد بالإحسان هنا الدخول في الإسلام بالظاهر والباطن جميعًا، وأن يكون مسلمًا

---

(١) التوبة: الآية (٥٥).

(٢) المفهم (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩)، والبخاري (١٢/ ٣٢٨/ ٦٩٢١) واللفظ له، ومسلم (١/ ١١١/ ١٢٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧/ ٤٢٤٢).

حقيقيًا، فهذا يغفر له ما سلف في الكفر بنص القرآن العزيز والحديث الصحيح: «**الإسلام يهدم ما قبله**» وبإجماع المسلمين، والمراد بالإساءة عدم الدخول في الإسلام بقلبه، بل يكون منقادًا في الظاهر، مظهرًا للشهادتين غير معتقد للإسلام بقلبه، فهذا المنافق باقٍ على كفره بإجماع المسلمين، فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام، وبما عمل بعد إظهارها لأنه مستمر على كفره، وهذا معروف في استعمال الشرع، يقولون: حسن إسلام فلان: إذا دخل فيه حقيقة بإخلاص، وساء إسلامه أو لم يحسن إسلامه: إذا لم يكن كذلك. والله أعلم[١].

قال القرطبي: «يعني بالإحسان هنا، تصحيح الدخول في دين الإسلام، والإخلاص فيه، والدوام على ذلك من غير تبديل ولا ارتداد، والإساءة المذكورة في هذا الحديث، في مقابلة هذا الإحسان هي الكفر والنفاق، ولا يصح أن يراد بالإساءة هنا ارتكاب سيئة ومعصية؛ لأنه يلزم عليه أن لا يهدم الإسلام ما قبله من الآثام إلا لمن عصم من جميع السيئات إلى الموت، وهو باطل قطعا، فتعين ما قلناه. والمؤاخذة هنا: هي العقاب على ما فعله من السيئات في الجاهلية، وفي حال الإسلام، وهو المعبر عنه في الرواية الأخرى بقوله: «**أخذ بالأول والآخر**»، وإنما كان كذلك لأن إسلامه لما لم يكن صحيحا ولا خالصا لله تعالى لم يهدم شيئًا مما سبق، ثم انضاف إلى ذلك إثم نفاقه وسيئاته التي عملها في حال الإسلام، فاستحق العقوبة عليها، ومن هنا استحق المنافقون أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار كما قال الله تعالى»[٢].

سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم: هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام؟ فأجاب: «إذا أسلم باطنًا وظاهرًا، غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع، وأما الذنوب التي لم يتب منها، مثل أن يكون مصرًّا على ذنب أو ظلم أو فاحشة، ولم يتب منها بالإسلام فقد قال بعض الناس: إنه يغفر له بالإسلام، والصحيح أنه إنما يُغفر له ما تاب منه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «**من أحسن في الإسلام لم**

---

(١) شرح مسلم (٢/ ١١٧).

(٢) المفهم (١/ ٣٢٧).

يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر» و(حسن الإسلام) أن يلتزم فعل ما أمر اللّه به، وترك ما نهى عنه، وهذا معنى التوبة العامة، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها، وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعمرو بن العاص: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟» فإن اللام لتعريف العهد، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن. وقوله: «ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» أي: إذا أصرّ على ما كان يعمله من الذنوب، فإنه يؤاخذ بالأول والآخر وهذا موجب النصوص والعدل، فإن تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب، ولم يجب أن يغفر له غيره.

والمسلم تائب من الكفر كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[1]. وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[2] أي: إذا انتهوا عما نهوا عنه، غفر لهم ما قد سلف. فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه، من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه، وأما من لم ينته عن ذنب، فلا يجب أن يغفر له ما سلف، لانتهائه عن ذنب آخر واللّه أعلم»[3].

* * *

(١) التوبة: الآية (٥).

(٢) الأنفال: الآية (٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٧٠١-٧٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به وبرسوله: وإن يعد هؤلاء لحربك، فقد رأيتم سنتي فيمن قاتلكم منهم يوم بدر، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا اللَّه وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد اللَّه من الأرض وهو الفتنة، ويكون الدين كله لله، يقول حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره»[1].

اختلف المفسرون في المراد من الفتنة على قولين: أحدهما: أنها الشرك، قال ابن القيم: أكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[2] ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3] أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته وآخر أمرهم إلا أن تبرؤوا منه وأنكروه. وحقيقتها أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه، ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها، ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾[4] قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته ذوقوا نهاية فتنتكم، وغايتها، ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[5] وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنتكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾[6] فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته عذبوا المؤمنين ليفتتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين»[7].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٤٨).
(٢) البقرة: الآية (١٩٣).
(٣) الأنعام: الآية (٢٣).
(٤) الذاريات: الآية (١٤).
(٥) الزمر: الآية (٢٤).
(٦) البروج: الآية (١٠).
(٧) زاد المعاد (٣/ ١٦٩).

وقال أيضًا: «فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة وهي الشرك»[1].

المعنى الثاني: قال محمد رشيد رضا: «قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: وقاتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب، وضروب الإيذاء لأجل تركه، كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لأجل دينكم، ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة، وحتى يكون الدين كله لله، لا يستطيع أحد أن يفتن أحدا عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره له، فيتقلده تقية ونفاقا، ونقول: إن المعنى بتعبير هذا العصر: ويكون الدين حرا؛ أي: يكون الناس أحرارا في الدين، لا يكره أحد على تركه إكراها، ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبا... هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية، وتاريخ ظهور الإسلام، وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك، قال ابن كثير: وكذا قال أبو العالية، ومجاهد والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم. أقول: عليه جمهور مؤلفي التفاسير المشهورة من الخلف، قالوا: وقاتلوهم حتى لا يبقى شرك، وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام، ولذلك قال بعضهم: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدي، فإنه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلا»[2].

قلت: وحديث ابن عمر الآتي يؤيد هذا المعنى، فلذلك قال محمد رشيد رضا: «فابن عمر يفسر الفتنة في آية الأنفال هذه بما قلنا أنه المتبادر منها، ويقول: إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم، فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم، ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا، فإن الشرك لم يكن قد زال من الأرض ولن يزول ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[3]»[4].

قال ابن عطية: «وهذه المعاني تتلازم كلها»[5].

قال الجصاص: في «الآية قتال الكفار وأهل البغي، وأهل العيث والفساد، وهي تدل على وجوب قتال الفئة الباغية، وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ

(١) أحكام أهل الذمة (٣/ ١٣٩٦).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٦٦٥-٦٦٦).
(٣) هود: الآية (١١٨).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٦٦).
(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٧).

لِلَّهِ﴾ يدل على وجوب قتال سائر أصناف أهل الكفر إلا ما خصه الدليل من الكتاب والسنة، وهم أهل الكتاب والمجوس، فإنهم يقرون بالجزية»[١].

قال البقاعي: «ولما كان لهم حال اللقاء حالان: إسلام وإقبال، وكفر وإعراض وإخلال، قال مبينًا لحكم القسمين: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أي: عن قتالكم بالمواجهة بالإسلام فاقبلوا منهم، وانتهوا عن مسهم بسوء، ولا تقولوا: أنتم متعوذون بذلك غير مخلصين، تمسكًا بالتأكيد بكله، فإنه ليس عليكم إلا ردهم عن المخالفة الظاهرة، وأما الباطن فإلى اللَّه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: المحيط علمًا وقدرة، وقدم المجرور اهتمامًا به إفهامًا لأن العلم به كالمختص به فقال: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وإن دقَّ ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم عليه، وأما أنتم فلستم عالمين بالظاهر والباطن معًا فعليكم قبول الظاهر، واللَّه بما تعملون أنتم أيضًا -من كف عنهم وقتل لله أو لحظّ نفس- بصير، فيجازيكم على حقائق الأمور وبواطنها وإن أظهرتم للناس ما يقيم عذركم، ويكمل لكل منكم أجر ما كان عزم على مباشرته من قتالهم لو لم ينتهوا»[٢].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ فإن معناه: فإن انتهوا عن الفتنة وهي الشرك باللَّه، وصاروا إلى الدين الحق معكم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول: فإن اللَّه لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في دين الإسلام؛ لأنه يبصرهم ويبصر أعمالكم، والأشياء كلها متجلية له لا تغيب عنه، و﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٣] وقد قال بعضهم: معنى ذلك؛ فإن انتهوا عن القتال. قال أبو جعفر: والذي قلنا في ذلك أولى بالصواب؛ لأن المشركين وإن انتهوا عن القتال فإنه كان فرضا على المؤمنين قتالهم حتى يسلموا»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب القتال على التوحيد

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رجلًا جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر اللَّه في كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[٥]. إلى آخر الآية، فما يمنعك أن

(١) أحكام القرآن (٣/ ٤٩-٥٠).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٨١-٢٨٢).
(٣) سبأ: الآية (٣).
(٤) جامع البيان (٩/ ٢٥٠).
(٥) الحجرات: الآية (٩).

لا تقاتل كما ذكر اللَّه في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أعير بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أعير بهذه الآية التي يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾[1] إلى آخرها. قال: فإن اللَّه يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول اللَّه ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، فكان الرجل يفتن في دينه: إما يقتلوه، وإما يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان: فكان اللَّه قد عفا عنه، فكرهتم أن يعفو عنه. وأما علي: فابن عم رسول اللَّه ﷺ وختنه -وأشار بيده- وهذه ابنته -أو بنته- حيث ترون»[2].

★ **غريب الحديث:**

يوثقوه: أي: يأسروه ويشدوه في الوثاق. والوثاق في الأصل: حبل وقيد يشد به الأسير والدابة[3].

ختنه: الختن بالتحريك: الصهر.

* عن سعيد بن جبير قال: «خرج علينا -أو: إلينا- ابن عمر، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك»[4].

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله، فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول وهذا مذهب أبي بكرة الصحابي ﷺ وغيره، وقال ابن عمر وعمران بن الحصين ﷺ وغيرهما: لا يدخل فيها، لكن إن قصد دفع عن نفسه، فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام، وقال معظم الصحابة

---

(١) النساء: الآية (٩٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٤٦٥٠).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٥١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٠)، والبخاري (٨/ ٣٩٥/ ٤٦٥١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٢/ ١١٢٠٧).

والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن والقيام معه بمقاتلة الباغين، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾[1] الآية، وهذا هو الصحيح وتتأول الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون والله أعلم»[2].

وقال القرطبي: «وقد ذكرنا من تخلف عن الفتنة وقعدوا، منهم عمران بن الحصين وابن عمر، وقد روي عنهما وعن غيرهما منهم عبيدة السلماني أن من اعتزل الفريقين فدخل بيته، فأتى من يريد نفسه فعليه دفعه عن نفسه، وإن أبى الدفع على نفسه فغير مصيب؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «**من أريدت نفسه وماله فقتل فهو شهيد**[3]» قالوا: فالواجب على كل من أريدت نفسه وماله فقتل ظلمًا دفع ذلك ما وجد إليه السبيل متأولًا كان المريد أو متعمدًا للظلم»[4].

وقال ابن تيمية وهو يتكلم على القتال الذي وقع بين الصحابة ناقلًا عن العلماء قولهم: «ومنهم من يقول: كان الصواب أن لا يكون قتال، وكان ترك القتال خيرًا للطائفتين، فليس في الاقتتال صواب، ولكن عليّ كان أقرب إلى الحق من معاوية، والقتال قتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب، وكان ترك القتال خيرًا للطائفتين، مع أن عليًا كان أولى بالحق.

وهذا هو قول أحمد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهو قول عمران بن حصين ﷺ، وكان ينهى عن بيع السلاح في ذلك القتال، ويقول: هو بيع السلاح في الفتنة، وهو قول أسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأكثر من بقي من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ﷺ»[5].

وقال أيضًا: «والكتاب والسنة قد دل على أن الطائفتين مسلمون، وأن ترك

---

(١) الحجرات: الآية (٩).
(٢) شرح مسلم (١٨/ ٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٣)، والبخاري (٥/ ١٥٥/ ٢٤٨٠)، وأبو داود (٥/ ١٢٧-١٢٨/ ٤٧٧١)، والترمذي (٤/ ٢١-٢٢/ ١٤٢٠)، والنسائي (٧/ ١٣٠/ ٤٠٩٠). من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.
(٤) التذكرة (ص: ٥٧٦).
(٥) منهاج السنة (٤/ ٤٤٨).

القتال كان خيرا من وجوده، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1] فسمّاهم مؤمنين إخوة مع وجود الاقتتال والبغي»[2]. ثم ذكر أدلة من السنة ثم قال رحمه الله: "ومما ينبغي أن يعلم أن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل في دمائها وأموالها وأعراضها، كالقتال واللعن والتكفير». -ثم ذكر حديث أسامة-[3] ثم قال: «فقد ثبت أن هؤلاء قتلوا قومًا مسلمين لا يحل قتلهم، ومع هذا فلم يقتلهم النبي ﷺ، ولا ضمن المقتول بقود ولا دية ولا كفارة؛ لأن القاتل كان متأولًا. وهذا قول أكثر العلماء، كالشافعي وأحمد وغيرهما. ومن الناس من يقول: بل كانوا أسلموا ولم يهاجروا، فثبتت في حقهم العصمة المؤثّمة دون المضمّنة، بمنزلة نساء أهل الحرب وصبيانهم، كما يقوله أبو حنيفة وبعض المالكية. ثم إن جماهير العلماء كمالك وأبي حنيفة وأحمد في ظاهر مذهبه والشافعي في أحد قوليه، يقولون: إن أهل العدل والبغاة إذا اقتتلوا بالتأويل لم يضمن هؤلاء ما أتلفوه لهؤلاء من النفوس والأموال حال القتال، ولم يضمن هؤلاء ما أتلفوه لهؤلاء. كما قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول اللّه ﷺ متوافرون، فأجمعوا أن كل دم أو مال أُصيب بتأويل القرآن فإنه هَدَر، أنزلوهم منزلة الجاهلية، يعني بذلك أن القاتل لم يكن يعتقد أنه فعل محرمًا. وإن قيل: إنه محرم في نفس الأمر، فقد ثبت بسنة رسول اللّه ﷺ المتواترة واتفاق المسلمين أن الكافر الحربيّ إذا قتل مسلمًا أو أتلف ماله ثم أسلم، لم يضمنه بقود ولا دية ولا كفارة، مع أن قتله له كان من أعظم الكبائر؛ لأنه كان متأوّلًا، وإن كان تأويله فاسدًا. وكذلك المرتدون الممتنعون إذا قتلوا بعض المسلمين، لم يضمنوا دمه إذا عادوا إلى الإسلام عند أكثر العلماء، كما هو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد، وإن كان من متأخري أصحابه من يحكيه قولًا، كأبي بكر عبدالعزيز حيث قد نص أحمد على أن المرتد يضمن ما أتلفه بعد الردة.

فهذا النص في المرتد المقدور عليه، وذاك في المحارب الممتنع، كما يفرّق

---

(١) الحجرات: الآية (٩).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٤٤٩-٤٥٠).

(٣) سيأتي لفظه وتخريجه.

بين الكافر الذمي والمحارب، أو يكون في المسألة روايتان، وللشافعي قولان، وهذا هو الصواب، فإن المرتدين الذين قاتلهم الصديق وسائر الصحابة لم يضمنهم الصحابة بعد عودهم إلى الإسلام بما كانوا قتلوه من المسلمين وأتلفوه من أموالهم؛ لأنهم كانوا متأولين. فالبغاة المتأولون كذلك لم تضمنهم الصحابة ﷺ، وإذا كان هذا في الدماء والأموال، مع أن من أتلفها خطأ ضمنها بنص القرآن فكيف في الأعراض؟ مثل لعن بعضهم بعضًا، وتكفير بعضهم بعضًا»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) فمن قال (لا إله إلا الله) عصم مني نفسه، وماله، إلا بحقه، وحسابه على الله**»[2].

* عن أسامة بن زيد قال: «**بعثنا رسول اللَّه ﷺ** إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم. فلما غشيناه قال: لا إله إلا اللَّه فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «**يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟**» قلت: كان متعوذًا. فمازال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[3].

★ غريب الحديث:

صبحنا: يقال: صبح القوم؛ أي: أتاها صباحًا لأنهم كانوا أكثر ما يغيرون عند الصباح[4].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن رجب: «ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٤٥٢-٤٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٣)، والبخاري (٦/ ١٣٨/ ٢٩٤٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٥٢/ ٢١)، وأبو داود (٣/ ١٠١/ ٢٦٤٠)، والترمذي (٥/ ٥/ ٢٦٠٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٣١١-٣١٢/ ٣٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥/ ٣٩٢٧). وفي الباب عن عمر وابن عمر وأنس وجابر وأوس بن أبي أوس وجرير بن عبد اللَّه وأبي بكرة والنعمان بن بشير وابن عباس وأبي مالك الأشجعي وسهل بن سعد ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٧)، والبخاري (٧/ ٦٥٨/ ٤٢٦٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩٦-٩٧/ ٩٦)، وأبو داود (٥/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٦-١٧٧/ ٨٥٩٥).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٦).

يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: (لا إله إلا الله) لما رفع عليه السيف واشتدّ نكيره عليه»[(١)].

وقال القرطبي: «وفيه دليل على أن كل من صدر عنه أمر ما يدلّ على الدخول في دين الإسلام من قول أو فعل حُكم له لذلك بالإسلام، وأن ذلك ليس مقصورًا على النطق بكلمتي الشهادة. وقد حكم النبي ﷺ بإسلام بني جَذيمة الذين قتلهم خالد بن الوليد وهم يقولون: صبأنا صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد[(٢)]» رافعًا يديه إلى السماء، ثم وَداهم»[(٣)].

وقال أيضًا: «ومعنى قوله: «كيف تصنع بلا إله إلا الله؟» أي: بماذا تحتج إذا قيل لك: كيف قتلت من قال: لا إله إلا اللّه، وقد حصلت لدمه حرمة الإسلام؟ وإنما تمنى أسامة أن يتأخر إسلامه إلى يوم المعاتبة ليسلم من تلك الجناية السابقة، وكأنه استصغر ما كان منه من الإسلام والعمل الصالح قبل ذلك في جنب ما ارتكبه من تلك الجناية؛ لما حصل في نفسه من شدة إنكار النبي ﷺ لذلك وعِظَمه»[(٤)].

قال ابن تيمية: «ولهذا من تاب من الكفار والمحاربين، وسائر الفساق قبل القدرة عليه، سقطت عنه العقوبة التي لحق اللّه، فإذا أسلم الحربي قبل القدرة عليه، عصم دمه وأهله وماله، وكذلك قاطع الطريق والزاني والسارق والشارب، إذا تابوا قبل القدرة عليهم لحصول المقصود بالتوبة، وأما إذا تابوا بعد القدرة لم تسقط العقوبة كلها؛ لأن ذلك يفضي إلى تعطيل الحدود، وحصول الفساد؛ ولأن هذه التوبة غير موثوق بها؛ ولهذا إذا أسلم الحربي عند القتال صح إسلامه؛ لأنه أسلم قبل القدرة عليه، بخلاف من أسلم بعد الأسر فإنه لا يمنع استرقاقه وإن عصم دمه»[(٥)].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص: ٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٠-١٥١)، والبخاري (٨/ ٧٠/ ٤٣٣٩)، والنسائي (٦/ ٦٢٨-٦٢٩/ ٥٤٢٠) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٣) المفهم (١/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٤) المفهم (١/ ٢٩٧).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧٤-٣٧٥).

وقال أيضًا: «وقد اتفق علماء المسلمين على أن الطائفة الممتنعة إذا امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها، إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة، أو صيام شهر رمضان، أو حج البيت العتيق، أو عن الحكم بينهم بالكتاب والسنة، أو عن تحريم الفواحش، أو الخمر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن استحلال النفوس والأموال بغير حق، أو الربا، أو الميسر، أو الجهاد للكفار، أو عن ضربهم الجزية على أهل الكتاب، ونحو ذلك من شرائع الإسلام، فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله»[١].

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ** فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه ﷻ**»[٢].

★ غريب الحديث:

حمية: الحمية هي الأنفة والغيرة.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فالحاصل من رواياتهم أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب، وكل منها يتناوله المدح والذم، فلهذا لم يحصل الجواب بالإثبات ولا بالنفي.

قوله: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله**» المراد بكلمة اللَّه دعوة اللَّه إلى الإسلام، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يكون في سبيل اللَّه إلا من كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة اللَّه فقط، بمعنى أنه لو أضاف إلى ذلك سببًا من الأسباب المذكورة أخلّ بذلك، ويحتمل أن لا يخلّ إذا حصل ضمنًا لا أصلًا ومقصودًا، وبذلك صرح الطبري فقال: إذا كان أصل الباعث هو الأول لا يضره ما

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١/ ٢٩٦/ ١٢٣) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٥١٢-١٥١٣/ ١٩٠٤)، وأبو داود (٣/ ٣١/ ٢٥١٧)، والترمذي (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ١٦٤٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٣٣٠-٣٣١/ ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٣).

عرض له بعد ذلك، وبذلك قال الجمهور، لكن روى أبو داود والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد جيد قال: «**جاء رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ قال: لا شيء له، فأعادها ثلاثًا كل ذلك يقول: لا شيء له، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه**»[1] ويمكن أن يحمل هذا على من قصد الأمرين معًا على حد واحد، فلا يخالف المرجح أولًا، فتصير المراتب خمسًا: أن يقصد الشيئين معًا، أو يقصد أحدهما صرفًا، أو يقصد أحدهما ويحصل الآخر ضمنًا، فالمحذور أن يقصد غير الإعلاء، فقد يحصل الإعلاء ضمنًا، وقد لا يحصل ويدخل تحته مرتبتان، وهذا ما دل عليه حديث أبي موسى، ودونه أن يقصدهما معًا محذور أيضًا على ما دل عليه حديث أبي أمامة، والمطلوب أن يقصد الإعلاء صرفًا، وقد يحصل غير الإعلاء وقد لا يحصل، ففيه مرتبتان أيضًا، قال ابن أبي جمرة: ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله لم يضره ما انضاف إليه اهـ. ويدل على أن دخول غير الإعلاء ضمنًا لا يقدح في الإعلاء، إذا كان الإعلاء هو الباعث الأصلي ما رواه أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن حوالة قال: «**بعثنا رسول الله ﷺ على أقدامنا لنغنم، فرجعنا ولم نغنم شيئًا، فقال: اللهم لا تكلهم إليّ**» الحديث[2]. وفي إجابة النبي ﷺ بما ذكر غاية البلاغة والإيجاز، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله، احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله وليس كذلك، فعدل إلى لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل فتضمن الجواب وزيادة، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: «**فهو**» راجعًا إلى القتال الذي في ضمن «**قاتل**» أي فقتاله في سبيل الله، واشتمل طلب إعلاء كلمة الله على طلب رضاه وطلب ثوابه وطلب دحض أعدائه وكلها متلازمة. والحاصل مما ذكر أن القتال منشؤه القوة العقلية والقوة الغضبية والقوة الشهوانية، ولا يكون في سبيل الله إلا الأول، وقال ابن بطال: إنما عدل النبي ﷺ

---

(١) أخرجه: النسائي (٥/ ٣٣٢-٣٣٣/ ٣١٤٠)، وأخرجه بمعناه: أبو داود (٣/ ٣٠-٣١/ ٢٥١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٨)، وأبو داود (٣/ ٤١-٤٢/ ٢٥٣٥)، والحاكم (٤/ ٤٢٥) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

عن لفظ جواب السائل لأن الغضب والحمية قد يكونان لله، فعدل النبي ﷺ عن ذلك إلى لفظ جامع، فأفاد دفع الإلباس وزيادة الإفهام، وفيه بيان أن الأعمال إنما تحتسب بالنية الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهد يختص بمن ذكر. . . وفيه ذمّ الحرص على الدنيا وعلى القتال لحظ النفس في غير الطاعة»[١]. اهـ.

قال ابن تيمية: «فالمقصود أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة اللّٰه هي العليا، وكلمة اللّٰه اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه»[٢].

وقال أيضًا: «فالمقصود بالجهاد أن لا يعبد أحد إلا الله؛ فلا يدعو غيره، ولا يصلي لغيره، ولا يسجد لغيره، ولا يصوم لغيره، ولا يعتمر ولا يحج إلا إلى بيته، ولا يذبح القرابين إلا له، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يتقي إلا إياه. فهو الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ولا يهدي الخلق إلا هو، ولا ينصرهم إلا هو، ولا يرزقهم إلا هو، ولا يغنيهم إلا هو، ولا يغفر ذنوبهم إلا هو، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٣٥-٣٦).

(٢) السياسة الشرعية (ص: ٣٤).

(٣) النحل: الآيات (٥١-٥٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتهم إليه أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله، وترك قتالكم على كفركم، فأبوا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم فقاتلوهم، وأيقنوا أن الله ﷻ معينكم، وناصركم نعم المولى هو لكم، يقول: نعم المعين لكم ولأوليائه، ونعم النصير هو الناصر»[1].

قال الرازي: «وكل من كان في حماية المولى، وفي حفظه وكفايته، كان آمنا من الآفات، مصونا عن المخوفات»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾هو تطمين للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم على مواجهة الكافرين، ولقائهم تحت راية القتال، إذا هم أصروا على ما هم فيه من كفر، ومن محادة لله ولرسوله وللمؤمنين. فليثبت المؤمنون في موقفهم هذا من الكافرين، وليقاتلوهم قتالا لا هوادة فيه، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، والله ﷻ يتولى المؤمنين، ويمدهم بنصره وتأييده، ومن كان الله مولاه وناصره فلن يهن أبدا، ولن يخذل أبدا»[3].

وقال البقاعي: «﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾أي: عن الإجابة تبشيرًا لهم بهزيمتهم وقلة ثباتهم لما ألقي في قلوبهم من الرعب، ويؤيد ذلك قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ أي: متولي أموركم، فهو يعمل معكم ما يعمل من يتولى أمر من يحبه من الاجتهاد في تحصيل ما ينفعه ودفع ما يضره فهو

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٥٠).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٦٩).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦١٠-٦١١).

لا محالة ناصركم؛ ثم استأنف مدحه بما هو أهله تعريفًا بقدره وترغيبًا في توليه فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ ولم يدخل فاء السبب هنا لأن المأمور به العلم، واعتقاد كونه مولى واجب لذاته لا لشيء آخر، بخلاف ما في آخر الحج، فإن المأمور هناك الاعتصام ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: فلا تخافوهم أصلًا، وإن زادت كثرتهم وقويت شوكتهم فلا تبارحوهم حتى لا يكون إلا كلمة الله»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

غنمتم: الغنيمة ما أخذ من العدو قهرا، أصلها من الغنم وهو الفوز، وأصل ذلك من الغنم، هذا الحيوان المعروف، فإن الظفر به يسمى غنما، ثم اتسع في ذلك فسمي كل شيء مظفور به غنما ومغنما وغنيمة.

اليتامى: جمع يتيم، وهو من مات أبوه وهو دون البلوغ ذكرا كان أو أنثى، وأما اليتم لغة فالانفراد.

المساكين: جمع مسكين، وهو من تحل له الصدقة للحاجة التي تسكن حركته عما يريده.

ابن السبيل: المسافر المنقطع في سفره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغانم..

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]»[3].

وقال ابن عاشور: «وافتتاحه بـ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ للاهتمام بشأنه، والتنبيه على رعاية العمل به، كما تقدّم في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

---

(١) الأنفال: الآية (٤١).

(٢) آل عمران: الآية (١٦١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩).

تُحۡشَرُونَ﴾[١] فإنّ المقصود بالعلم تقرّر الجزم بأنّ ذلك حكم اللَّه، والعمل بذلك المعلوم، فيكون ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ كناية مرادًا به صريحه ولازمه. والخطاب لجميع المسلمين وبالخصوص جيش بدر»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «ومعنى الآية -واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتم من الكفار المحاربين فالحق الأول الواجب فيه أن خمسه لله تعالى يصرف فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة إلى الإسلام وعمارة الكعبة وكسوتها وإقامة شعائره تعالى، وللرسول يأخذ كفايته منه لنفسه ونسائه وكان يمونهن إلى سنة، ولذي القربى أي أقرب أهله وعشيرته إليه نسبا وولاء ونصرة، وهم الذين حرمت عليهم الصدقة كما حرمت عليه تكريما له ولهم بالتبع له عن أن يكون رزقهم من أوساخ الناس، وما في ذلك من حمل مننهم.. ويلي ذوي القربى المحتاجون من سائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل»[٣].

وقال: «وحكمة تقسيم الخمس على هذا النحو أن الدولة التي تدير سياسة الأمة لابد لها من مال تستعين به على ذلك، وهو أقسام: أولها: ما كان للمصلحة العامة كشعائر الدين وحماية الحوزة وهو ما جعل لله في الآية، وثانيها: ما كان لنفقة إمامها ورئيس حكومتها وهو سهم الرسولﷺ فيها، وثالثها: ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته وهو سهم أولي القربى. ورابعها: ما يكون لذوي الحاجات من ضعفاء الأمة وهم الباقون. وهذا الاعتبار كله أو أكثره لا يزال مراعى، ومعمولا به في أكثر الدول والأمم مع اختلاف شؤون الاجتماع والمصالح العامة والخاصة»[٤].

وقال ابن عاشور: «وقد جعل اللَّه الخمس لخمسةِ مصارف ولم يعيّن مقدار ما لكلّ مصرف منه، ولا شكّ أنّ اللَّه أراد ذلك؛ ليكون صرفه لمصارفه هذه موكولًا إلى اجتهاد رسوله ﷺ وخلفائه من بعده، فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، فيأخذ كلّ مصرف منه ما يفي بحاجته على وجه لا ضرّ معه على أهل المصرف

---

(١) الأنفال: الآية (٢٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٥).
(٣) تفسير المنار (١٠/ ٧-٨).
(٤) تفسير المنار (١٠/ ٩).

الآخر، وهذا قول مالك في قسمة الخمس، وهو أصح الأقوال، إذ ليس في الآية تعرّض لمقدار القسمة، ولم يَرد في السنة ما يصحّ التمسك به لذلك، فوجب أن يناط بالحاجة، وبتقديم الأحوج والأهمّ عند التضايق، والأمر فيه موكول إلى اجتهاد الإمام، وقد قال عمر: «**فكان رسول اللّه ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله**».

وقال الشافعي: يقسم لكلّ مصرف الخمس من الخمس؛ لأنها خمسة مصارف، فجعلها متساوية؛ لأنَّ التساوي هو الأصل في الشركة المجملة ولم يلتفت إلى دليل المصلحة المقتضية للترجيح، وإذ قد جَعل ما لله ولرسوله خمسًا واحدًا تبعًا للجمهور فقد جعله بعد رسول اللّه لمصالح المسلمين.

وقال أبو حنيفة: ارتفع سهم رسول اللّه وسهم قرابته بوفاته، وبقي الخمس لليتامى والمساكين وابن السبيل؛ لأنّ رسول اللّه إنّما أخذ سهمًا في المغنم لأنّه رسول اللّه لا لأنّه إمام، فلذلك لا يخلفه فيه غيره.

وعند الجمهور أنّ سهم رسول اللهﷺ يخلفه فيه الإمام، يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين»[١].

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل شيء حواه المسلمون من أموال الكفار فإنه يخمس حسبما نص عليه في الآية، سواء أوجفوا عليه الخيل والركاب أو لا، ولكنه تعالى بين في سورة الحشر أن ما أفاء على رسوله من غير إيجاف المسلمين على الخيل والركاب، أنه لا يخمس ومصارفه التي بين أنه يصرف فيها كمصارف خمس الغنيمة المذكورة هنا، وذلك في قوله تعالى في فيء بني النضير: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[٢] ثم بين شمول الحكم لكل ما أفاء اللّه على رسوله من جميع القرى بقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[٣]»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢).

(٢) الحشر: الآية (٦).

(٣) الحشر: الآية (٧).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٥٤).

وقال القاسمي: «ذهب الجمهور إلى أن ذكر اللَّه تعالى في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ للتعظيم، أي تعظيم الرسول، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(١) أو لبيان أنه لابد في الخمسة من إخلاصها لله تعالى، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه. وتمسك بعضهم بظاهر ذلك، فأوجب سهما سادسا لله تعالى، يصرف في وجوه الخير، أو يؤخذ للكعبة قال: لأن كلام الحكيم لا يعرّى عن الفائدة، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٢)، فكذا هنا»(٣).

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾أي: أخذتم من مال الكفار قهرا بحق، قليلا كان أو كثيرًا ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون؛ لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم يقسم على ما قسمه رسول اللّه ﷺ: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم للّه ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة؛ لأن اللّه جعله له ولرسوله، واللّه ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد اللّه. فإذا لم يعين اللّه له مصرفا دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه اللّه إلى القرابة دليلا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث: لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل اللّه لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع: للمساكين؛ أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

---

(١) التوبة: الآية (٦٢).

(٢) التوبة: الآية (٦٠).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٥٩).

والخمس الخامس: لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء؛ بل ذلك تبع للمصلحة، وهذا هو الأولى»[1].

وقال الشنقيطي: «اعلم أن جماهير علماء المسلمين على أن أربعة أخماس الغنيمة للغزاة الذين غنموها، وليس للإمام أن يجعل تلك الغنيمة لغيرهم، ويدلّ لهذا قوله تعالى: ﴿غَنِمْتُم﴾، فهو يدلّ على أنها غنيمة لهم، فلما قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾، علمنا أن الأخماس الأربعة الباقية لهم لا لغيرهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾[2]؛ أي: ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعًا، فكذلك قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؛ أي: وللغانمين ما بقي، وهذا القول هو الحق الذي لاشك فيه، وحكى الإجماع عليه غير واحد من العلماء، وممن حكى إجماع المسلمين عليه ابن المنذر وابن عبد البر، والداودي والمازري، والقاضي عياض وابن العربي، والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وخالف في ذلك بعض أهل العلم، وهو قول كثير من المالكية، ونقله عنهم المازري رحمه اللّٰه أيضًا، قالوا: للإمام أن يصرف الغنيمة فيما يشاء من مصالح المسلمين، ويمنع منها الغزاة الغانمين.

واحتجوا لذلك بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[3]، قالوا: (الأنفال): الغنائم كلها، والآية محكمة لا منسوخة، واحتجوا لذلك أيضًا بما وقع في فتح مكة وقصة حنين، قالوا: إنه ﷺ فتح مكة عنوة بعشرة آلاف مقاتل، ومنّ على أهلها فردها عليهم، ولم يجعلها غنيمة، ولم يقسمها على الجيش، فلو كان قَسم الأخماس الأربعة على الجيش واجبًا لفعله ﷺ لما فتح مكة، قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا عظيمة جدًا، ولم يعط الأنصار منها مع أنهم من خيار المجاهدين الغازين معه ﷺ، . . قالوا: لو كان يجب قَسم الأخماس الأربعة على الجيش الذي غنمها، لما أعطى ﷺ ألفي ناقة من غنائم هوازن لغير الغزاة، ولما أعطى ما ملأ بين جبلين من الغنم لصفوان بن

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ١٦٩-١٧٠).
(٢) النساء: الآية (١١).
(٣) الأنفال: الآية (١).

أمية، وفي ذلك اليوم أعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل، وكذلك عيينة بن حصن الفزاري... قالوا: فلو كان قسم الأخماس الأربعة على الجيش الغانمين واجبًا، لما فضل الأقرع وعيينة في العطاء من الغنيمة على العباس بن مرداس في أول الأمر قبل أن يقول شعره المذكور.

وأجيب من جهة الجمهور عن هذه الاحتجاجات: فالجواب عن آية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية هو ما قدمنا من أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾، ونسبه القرطبي لجمهور العلماء[١].

والجواب عما وقع في فتح مكة من أوجه:

الأول: أن بعض العلماء زعموا أن مكة لم تفتح عنوة، ولكن أهلها أخذوا الأمان منه ﷺ؛ وممن قال بهذا الشافعي رحمه الله.

واستدل قائلو هذا القول بقوله ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[٢]، وهو ثابت في الصحيح، وهذا الخلاف في مكة هل أخذها النبي ﷺ عنوة؟ وهو قول الجمهور، أو أخذ لها الأمان؛ والأمان شبه الصلح، عقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بقوله في غزوة الفتح يعني مكة:

واختلفوا فيها فقيل أمنت وقيل عنوة وكرهًا أُخذت

والحق أنها فتحت عنوة كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله، ومن أظهر الأجوبة عما وقع في فتح مكة، أن مكة ليست كغيرها من البلاد؛ لأنها حرام بحرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض إلى يوم القيامة، وإنما أحلت له ﷺ ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده[٣]، وما كان بهذه المثابة، فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة.

---

(١) والصحيح أنها ليست بمنسوخة وقد تقدم الخلاف في هذه المسألة في أول هذه السورة فليراجع.

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٨)، ومسلم (٣/ ١٤٠٥-١٤٠٧/ ١٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢-٣٨٣/ ١١٢٩٨)، وأخرجه: أبو داود (٣/ ٤١٨-٤٢٠٣٠٢٤) دون محل الشاهد كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٩) والبخاري (٤/ ٥٧/ ١٨٣٤) ومسلم (٢/ ٩٨٦-٩٨٧/ ١٣٥٣) والنسائي (٥/ ٢٢٣-٢٢٥/ ٢٨٧٤) وأخرجه: أبو داود (٢/ ٥٢١/ ٢٠١٨) مختصرا، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر، وهو أن النبي ﷺ استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ويدل على ذلك أنه ﷺ لما سمع أن بعض الأنصار قال: يمنعنا ويعطي قريشًا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، جمعهم النبي ﷺ، وكلمهم كلامه المشهور البالغ في الحسن، ومن جملته أنه قال لهم: «**ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم**»[1]، إلى آخر كلامه ﷺ، فرضي القوم، وطابت نفوسهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، وهذا ثابت في الصحيح»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحكام الغنائم

المسألة الأولى: خصوصية هذه الأمة بالغنائم:

* عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[3].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي**».

قال ابن ناصر السعدي: «وذلك لكرامته على ربه، وكرامة أمته وفضلهم، وكمال إخلاصهم، فأحلّها لهم، ولم ينقص من أجر جهادهم شيئًا، وحصل بها -أي المغانم- لهذه الأمة من سعة الأرزاق، وكثرة الخيرات، والاستعانة على أمور الدين والدنيا شيء لا يمكن عدُّه، أما من قبلنا من الأمم، فإن جهادهم قليل بالنسبة لهذه الأمة، وهم دون هذه الأمة بقوة الإيمان والإخلاص، فمن رحمته بهم أنه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢)، والبخاري (٨/ ٥٩/ ٤٣٣٠)، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩/ ١٠٦١).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٥٦-٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣٠-٢٣١/ ٤٣٠).

منعهم من الغنائم، لئلا يخل بإخلاصهم، واللَّه أعلم»[١].

قال ابن القيم: «إباحة الغنائم كان قبيحا في حق من قبلنا لئلا تحملهم إباحتها على القتال لأجلها، والعمل لغير اللَّه، فتفوت عليهم مصلحة الإخلاص التي هي أعظم المصالح، فحمى أحكم الحاكمين جانب هذه المصلحة العظيمة بتحريمها عليهم ليتمحض قتالهم لله لا للدنيا، فكانت المصلحة في حقهم تحريمها عليهم، ثم لما أوجد هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا، وأرسخهم إيمانا، وأعظمهم توحيدا وإخلاصا، وأرغبهم في الآخرة، وأزهدهم في الدنيا، أباح لهم الغنائم، وكانت إباحتها حسنة بالنسبة إليهم، وإن كانت قبيحة بالنسبة إلى من قبلهم، فكانت كإباحة الطبيب اللحم للصحيح الذي لا يخشى عليه من مضرته وحميته منه للمريض المحموم»[٢].

وقد روى البخاري في صحيحه[٣] من حديث أبي هريرة ما يدل على أن من مضى من قبلنا كانوا يغزون، ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها؛ بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول. وقد منَّ اللَّه على هذه الأمة ورحمها لشرف نبيها عنده فأحلّ لهم الغنيمة وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى[٤].

المسألة الثانية: للرسول ﷺ قسم الغنائم:

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: ولد لرجل منا غلام، فسماه محمدًا. فقال له قومه: لا ندعك تسمي باسم رسول اللَّه ﷺ، فانطلق بابنه حامله على ظهره، فأتى به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ولد لي غلام، فسميته محمدا، فقال لي قومي: لا ندعك تسمي باسم رسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**تسموا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي، إنما أنا قاسم أقسم بينكم**»[٥].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص: ١١٩). (٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٧٧).

(٣) الحديث أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٨)، والبخاري (٦/ ٢٧١/ ٣١٢٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٦-١٣٦٧/ ١٧٤٧).

(٤) فتح الباري (٦/ ٢٧٥) بتصرف يسير.

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٦٩)، والبخاري (٦/ ٢٦٦-٢٦٧/ ٣١١٤-٣١١٥)، ومسلم (٣/ ١٦٨٢/ ٢١٣٣) واللفظ له.

* عن معاوية قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، واللَّه المعطي وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم ظاهرون»(١).

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما أعطيكم ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»(٢).

* عن خولة الأنصارية ﷺ قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن رجالًا يتخوضون في مال اللَّه بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»(٣).

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «**إنما جعلت قاسمًا أقسم بينكم**»: **قال العيني**: «أي: أقسم الأموال في المواريث والغنائم وغيرهما عن اللَّه تعالى، وليس ذلك لأحد إلا له، فلا يطلق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه»(٤).

قال الحافظ: «قوله: «**يتخوضون**» بالمعجمتين «**في مال اللَّه بغير حق**» أي: يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وهو أعم من أن يكون بالقسمة وبغيرها.. ويستفاد من هذه الأحاديث أن بين الاسم والمسمى به مناسبة، لكن لا يلزم اطراد ذلك، وأن من أخذ من الغنائم شيئًا بغير قسم الإمام كان عاصيًا. وفيه ردع الولاة أن يأخذوا من المال شيئًا بغير حقه أو يمنعوه من أهله»(٥).

المسألة الثالثة: سهم النبي ﷺ:

* عن عمرو بن عبسة السلمي قال: صلى بنا رسول اللَّه ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «**ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»(٦).

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠١)، والبخاري (٦/ ٢٦٧/ ٣١١٦)، ومسلم (٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٦٧/ ٣١١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤١٠)، والبخاري (٦/ ٢٦٧/ ٣١١٨).

(٤) عمدة القاري (١٠/ ٤٤٧). (٥) فتح الباري (٦/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٦) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٥) واللفظ له. وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت: النسائي (٧/ ١٤٩/ ٤١٤٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٠/ ٢٨٥٠). ومن حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص: النسائي (٧/ ١٧٩/ ٤١٥٠).

★ **غريب الحديث:**

المغنم: وهو ما أصيب من أموال أهل الحرب، وأوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب.

وبرة: الوبر: صوف الإبل والأرانب ونحوها.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشنقيطي: «قال: فإذا عرفت أن التحقيق أن الخمس في حياة النبي ﷺ يقسم خمسة أسهم؛ لأن اسم اللَّه ذكر للتعظيم وافتتاح الكلام به، مع أن كل شيء مملوك له جل وعلا، فاعلم أن النبي ﷺ كان يصرف نصيبه الذي هو خمس الخمس في مصالح المسلمين بدليل قوله في الأحاديث التي ذكرناها آنفًا: «**والخمس مردود عليكم**». وهو الحق ويدل له ما ثبت في الصحيح من أنه كان ﷺ يأخذ قوت سنته من فيء بني النظير كما سيأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالى. وأما بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى صلوات اللَّه وسلامه عليه فإن بعض العلماء يقول بسقوط نصيبه بوفاته ﷺ، وممن قال بذلك أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، واختاره ابن جرير. والصحيح أن نصيبه ﷺ باقٍ، وأن إمام المسلمين يصرفه فيما كان يصرفه فيه رسول اللَّه ﷺ من مصالح المسلمين. وقال بعض العلماء: يكون نصيبه ﷺ لمن يلي الأمر بعده، وروي عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة.

والظاهر أن هذا القول راجع في المعنى إلى ما ذكرنا أنه الصحيح وأن معنى كونه لمن يلي الأمر بعده أنه يصرفه فيما كان يصرفه فيه ﷺ، والنبي ﷺ قال: «**والخمس مردود فيكم**». ولا يخفى أن كل الأقوال في نصيب النبي ﷺ بعد وفاته راجعة إلى شيء واحد وهو صرفه في مصالح المسلمين، وكان أبوبكر وعمر رضي الله عنهما يصرفانه في الكراع[1] والسلاح»[2].

المسألة الرابعة: سهم الصفي:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت صفية من الصفي»[3].

---

(١) الكراع: اسم لجميع الخيْل.

(٢) الأضواء (٢/ ٥٩-٦١) بتصرف واختصار.

(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٣٩٨/ ٢٩٩٤) واللفظ له.

★ **غريب الحديث:**

الصفي: الصفي ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة.

* عن يزيد بن عبد اللَّه قال: «كنا بالمربد فجاء رجل أشعث الرأس بيده قطعة أديم أحمر، فقلنا: كأنك من أهل البادية، فقال: أجل. قلنا: ناولنا هذه القطعة الأديم التي في يدك فناولناها، فقرأناها، فإذا فيها من محمد رسول اللَّه ﷺ إلى بني زهير بن أقيش، إنكم: إن شهدتم أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ الصفي، أنتم آمنون بأمان اللَّه ورسوله. فقلنا: من كتب لك هذا الكتاب؟ قال: رسول اللَّه ﷺ»[١].

★ **غريب الحديث:**

مربد: المربد هو المكان الذي تحبس فيه الإبل والغنم.

أديم: الأديم: الجلد، أو أحمرُهُ، أو مدبوغُهُ.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وكان له سهم من الغنيمة يدعى (الصفي) إن شاء عبدًا وإن شاء أمة وإن شاء فرسًا يختاره قبل الخمس»[٢].

وقال القرطبي: «وكذلك 'ذو الفقار' كان من الصفي»[٣].

قال ابن العربي: «وأما الصفي فحق في حياته، وقد انقطع بعد موته، إلا عند أبي ثور؛ فإنه رآه باقيًا للإمام، فجعله مجعل سهم النبي ﷺ، وهذا ضعيف؛ والحكمة فيه أن الجاهلية كانوا يرون للرئيس في الغنيمة ما قال الشاعر:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمُك والنشيطةُ[٤] والفُضول[٥]

فكان يأخذ بغير شرع ولا دين الربع من الغنيمة؛ ويصطفي منها، ثم يتحكم بعد

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٧٧-٧٨)، وأبو داود (٣/ ٤٠٠/ ٢٩٩٩) واللفظ له، والنسائي (٧/ ١٥٢/ ٤١٥٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٠٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٣-١٤).

(٤) ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحي.

(٥) هو ما أصاب من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما.

الصّفيّ في أي شيء أراد، وكان ما شذّ منها له وما فضل من خُرثيّ ومتاع؛ فأحكم اللَّه الدين بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾. وأبقى سهم الصفي لرسوله ﷺ، وأسقط حكم الجاهلية، ومن أحسن من اللَّه حكما، أو أوسع منه علما»[١].

المسألة الخامسة: سهم ذوي القربى:

* عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول اللَّه ﷺ فقلنا: يا رسول اللَّه أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال القاسمي: «وأجمعوا على أن المراد بـ(ذوي القربى): قرابته ﷺ»[٣].

قال ابن كثير: «وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول اللَّه ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول اللَّه ﷺ. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا ابني عمهم، فلم يوافقوهم، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول»[٤].

قال الشنقيطي: «واعلم أن العلماء اختلفوا هل يفضل ذكرهم على أنثاهم، أو يقسم عليهم بالسوية؟ فذهب بعض العلماء إلى أنه كالميراث، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهذا هو مذهب أحمد بن حنبل في أصح الروايتين. . وتفضيل ذكرهم على أنثاهم الذي هو مذهب الإمام أحمد وهو مذهب الشافعي أيضًا، وحجة من قال بهذا: أنه سهم استحق بقرابة الأب شرعًا بدليل أن أولاد عماته ﷺ كالزبير بن العوام وعبد اللَّه بن أبي أمية لم يقسم لهم في خمس الخمس، وكونه مستحقًّا بقرابة الأب خاصة يجعله كالميراث، فيفضل فيه الذكر على الأنثى. وقال بعض العلماء:

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٥٩-٨٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨١و٨٥)، والبخاري (٦/ ٣٠٠/ ٣١٤٠) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٢٩٧٨)، والنسائي (٧/ ١٤٨-١٤٩/ ٤١٤٧-٤١٤٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٦١/ ٢٨٨١).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٦١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧).

ذكرهم وأنثاهم سواء. وممن قال به المزني وأبو ثور وابن المنذر.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: وهذا القول أظهر عندي لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يقم عليه في هذه المسألة دليل، ولم ينقل أحد عن النبي ﷺ أنه فضل ذكرهم على أنثاهم في خمس الخمس... وصغيرهم وكبيرهم سواء، وجمهور العلماء القائلين بنصيب القرابة على أنه يقسم على جميعهم ولم يترك منهم أحدًا خلافًا لقوم. والظاهر شمول غنيهم خلافًا لمن خصص به فقراءهم؛ لأنه ﷺ لم يخصص به فقراءهم»[1].

وقال أيضًا: «وأما قول بعض أهل البيت كعبد اللَّه بن محمد بن علي وعلي بن الحسين رضي الله عنهم إن الخمس كله لهم دون غيرهم وإن المراد باليتامى والمساكين يتاماهم ومساكينهم وقول من زعم أنه بعد النبي ﷺ يكون لقرابة الخليفة الذي يوليه المسلمون فلا يخفى ضعفهما، واللَّه تعالى أعلم»[2].

المسألة السادسة: هل يسهم للمرأة والعبد؟

* عن يزيد بن هرمز: «**أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال. فقال ابن عباس: لولا أن أكتم علمًا ما كتبت إليه. كتب إليه نجدة: أما بعد. فأخبرني هل كان رسول اللَّه ﷺ يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضي يتم اليتيم؟ وعن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس: كتبت تسألني هل كان رسول اللَّه ﷺ يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحْذَيْنَ من الغنيمة. وأما بسهم، فلم يضرب لهن. وإن رسول اللَّه ﷺ لم يكن يقتل الصبيان. فلا تقتل الصبيان. وكتبت تسألني: متى ينقضي يتم اليتيم؟ فلعمري إن الرجل لتنبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه. ضعيف العطاء منها. فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس، فقد ذهب عنه اليتم. وكتبت تسألني عن الخمس لمن هو؟ وإنا كنا نقول: هو لنا: فأبى علينا قومنا ذاك**»[3].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٦٣-٦٤) بتصرف واختصار. (٢) أضواء البيان (٢/ ٦٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٨-٢٤٩ و٢٩٤)، ومسلم (٣/ ١٤٤٤/ ١٨١٢) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٣٨٤/ ٢٩٨٢)، والترمذي (٤/ ١٠٦/ ١٥٥٦)، والنسائي (٧/ ١٤٦-١٤٧/ ٤١٤٤-٤١٤٥)، وفي الكبرى (٥/ ١٨٤/ ٨٦١٧).

★ **غريب الحديث:**

سهم: السهم في الأصل: واحد السهام الذي يضرب بها في الميسر، وهي القداح، ثم سمي ما يفوز به الفالح سهما ثم كثر حتى سمي كل نصيب سهمًا.

يُحْذَين: أي: يُعْطَيْنَ.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن قدامة: «معناه أنهم يعطون شيئًا من الغنيمة ولا يسهم لهم سهم كامل، ولا تقدير لما يعطونه، بل ذلك إلى اجتهاد الإمام، فإن رأى التسوية بينهم سوّى بينهم، وإن رأى التفضيل فضّل. وهذا قول أكثر أهل العلم، منهم سعيد بن المسيب ومالك والثوري والليث والشافعي وإسحاق، وروي ذلك عن ابن عباس»[1].

وقال الشوكاني: «والظاهر أنه لا يسهم للنساء والصبيان والعبيد والذميين، وما ورد من الأحاديث مما فيه إشعار بأن النبي ﷺ أسهم لأحد منهم فينبغي حمله على الرضخ، وهو العطية القليلة، جمعًا بين الأحاديث، وقد صرح حديث ابن عباس المذكور.. بما يرشد إلى هذا الجمع، فإنه نفى أن يكون للنساء والعبيد سهم معلوم وأثبت الحذية»[2].

المسألة السابعة: هل يعطى من غاب عن الحرب من الغنيمة؟

قال ابن العربي: «إذا ثبت أن الغنيمة لمن حضر، فأما من غاب فلا شيء له.

والمغيب على ثلاثة أوجه: إما بمرض، أو بضلال، أو بأسر.

فأما المريض فلا شيء له إلا أن يكون له رأي، وقال المتأخرون من علمائنا: إن مرض بعد القتال أسهم له، وإن مرض بعد الإرادة وقبل القتال ففيه قولان: والأصح وجوب ذلك له.

واختلف في الضال على قولين؛ وقال أشهب: يسهم للأسير، وإن كان في الحديد. والصحيح أن لا سهم له؛ لأنه ملك يستحق بالقتال، فمن غاب خاب، ومن حضر مريضا كمن لم يحضر.

---

(١) المغني (١٣/ ٩٢-٩٣).

(٢) نيل الأوطار (٧/ ٢٨١).

وأما الغائب المطلق فلم يسهم رسول اللَّه ﷺ قط لغائب إلا يوم خيبر؛ قسم لأهل الحديبية من حضر منهم ومن غاب، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[1] وقسم يوم بدر لعثمان لبقائه على ابنته، وقسم لسعيد بن زيد وطلحة وكانا غائبين.

فأما أهل الحديبية فكان ميعادا من اللَّه اختص بأولئك النفر، فلا يشاركهم فيه غيرهم.

وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس؛ لأن الأمة أجمعت على أنه من بقي لعذر فلا شيء له، بيد أن محمد بن المواز قال: إذا أرسل الإمام أحدا في مصلحة الجيش فإنه يشرك من غنم بسهمه؛ قاله ابن وهب، وابن نافع عن مالك.

وقيل عنه أيضًا: لا شيء له، وهذا أحسن؛ فإن الإمام يرضخ له، ولا يعطى من الغنيمة لعدم السبب الذي يستحق به عنده، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) الفتح: الآية (٢٠).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل الله على رسوله»[1].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ شرط يتعلق بما دلّ عليه قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ لأن الأمر بالعلم لما كان المقصود به العملَ بالمعلوم والامتثالَ لمقتضاه كما تقدّم، صحّ تعلّق الشرط به، فيكون قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ دليلًا على الجواب، أوْ هو الجوابَ مقدّمًا على شرطه، والتقدير: إنْ كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّ ما غنمتم إلخ. واعمَلوا بما علمتم، فاقطعوا أطماعكم في ذلك الخمس، واقتنعوا بالأخماس الأربعة؛ لأنّ الذي يتوقّف على تحقّق الإيمان بالله وآياته هو العِلم بأنّه حكم الله مع العمل المترتّب على ذلك العلم. مطلق العلم بأنّ الرسول قال ذلك.

والشرط هنا محقق الوقوع إذ لا شك في أنّ المخاطبين مؤمنون بالله والمقصود منه تحقّق المشروط، وهو مضمون جملة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ إلى آخرها. وجيء في الشرط بحرف (إنْ) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكًا في وقوعه زيادة في حثّهم على الطاعة، حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه إلهابًا لهم؛ ليبعثهم على إظهار تحقّق الشرط فيهم، فالمعنى: أنكم آمنتم بالله، والإيمانُ يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له، وآمنتم بما أنزل الله على عبده يومَ بدر حين فرق الله بين الحقّ والباطل فرأيتم ذلك رأي العين، وارتقى إيمانكم من مرتبة حقّ اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أنّ الله أعلم بنفعكم من أنفسكم، إذ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٥).

يعدكم إحدى الطائفتين أنّها لكم، وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم، فكان ما دفعكم اللَّه إليه أحفظ لمصلحتكم وأشدّ تثبيتًا لقوّة دينكم. فمَن رأوا ذلك وتحقّقوه فهم أحرياء بأن يعلموا أنّ ما شرع اللَّه لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة، علمًا بأنّ وراء ذلك مصالحَ جمة آجلة في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ عطف على اسم الجلالة، والمعنى: وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، وهذا تخلّص للتذكير بما حصل لهم من النصر يوم بدر، والإيمانُ به يجوز أن يكون الاعتقاد الجازم بحصوله، ويجوز أن يكون العلم به، فيكون على الوجه الثاني من استعمال المشترك في معنييه.

وتخصيص ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد؛ لأن لذلك المُنْزَل مزيد تعلق بما أمروا به من العمل المعبر عنه بالأمر بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾. والإنزالُ: هو إيصال شيء من علُوّ إلى سُفل. وأطلق هنا على إبلاغ أمر من اللَّه، ومن النعم الإلهية إلى الرسول ﷺ والمسلمين، فيجوز أن يكون هذا المُنزل من قبيل الوحي، أي والوحي الذي أنزلناه على عبدنا يوم بَدر، لكنه الوحي المتضمّن شيئًا يؤمنون به مثل قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾[1] ويجوز أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطاف العجيبة، مثل إنزال الملائكة للنصر، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، لتعبيد الطريق، وتثبيتِ الأقدام، والاستقاء.

وإطلاق الإنزال على حصوله استعارة تشبيهًا له بالواصل إليهم من علوّ تشريفًا له كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. والتطهر ولا مانع من إرادة الجميع لأنّ غرض ذلك واحد، وكذلك ما هو من معناه ممّا نعلمه أو لما علمناه.

و﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ هو يوم بدر، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين سمّي يوم الفرقان؛ لأنّ الفرقان الفرق بين الحقّ والباطل كما تقدّم آنفًا في قوله:

---

(١) الأنفال: الآية (٧).

(٢) الفتح: الآية (٢٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[1] وقد كان يوم بدر فارقًا بين الحقّ والباطل؛ لأنّه أول يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء، وهو نصر المحقّين الأذلّة على الأعزّة المبطلين، وكفى بذلك فرقانًا وتمييزًا بين من هم على الحقّ، ومن هم على الباطل.

فإضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ إضافة تنويه به وتشريف، وقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ فإضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إلى جملة: ﴿ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوّهم. والتعريف في ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ للعهد. وهما جمع المسلمين وجمع المشركين. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ اعتراض بتذييل الآيات السابقة وهو متعلّق ببعض جملة الشرط في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ فإنّ ذلك دليل على أنّه لا يتعاصى على قدرته شيء، فإنّ ما أسداه إليكم يوم بدر لم يكن جاريًا على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة اللّه قلبت الأحوال وأنشأت الأشياءَ من غير مجاريها ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أنّه أضيف إلى الفرقان الذي هو لَقب القرآن، فإنّ المشهور أنّ ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان، فيكون من استعمال المشترك في معنييه»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هو توكيد لتلك الدعوة التي دعي إليها المجاهدون من اللّه سبحانه، بأن يجعلوا مما يغنمون خمسَ هذه الغنائم لله، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

فهذا الحكم الذي قضى به اللّه سبحانه هو دعوة منه سبحانه إلى من آمن به. فإن من شأن من آمن باللّه أن يتقبل أحكامه راضيا مطمئنا، لا يطوف بنفسه طائف من الضيق أو الحرج.

والإسلام حريص أشد الحرص على سلامة نفوس المجاهدين، وتصفيتها من أية شائبة تعلَق بها في هذا الموطن، الذي ينبغي أن يكون المسلم فيه على ولاء

---

(١) الأنفال: الآية (٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣-١٥).

مطلق للقضية التي يقاتل في سبيلها، ويستشهد راضيا قرير العين من أجلها، الأمر الذي لا يتحقق إذا تسرب إلى النفوس شيء من دخان الضيق أو الشك. ولهذا، فإن من تدبير الحكيم العليم في هذا أنه بعد أن شد المؤمنين إلى الإيمان الذي وصلهم باللَّه، وأقامهم على الجهاد في سبيله -ذكرهم بما يمدهم به من أمداد عونه ونصره، وهم في مواجهة العدو، وفي ملتحم القتال معه، وأنهم إنما ينتصرون على أعدائهم بتلك الأمداد التي يمدهم اللَّه بها، فإن نسوا هذا فليذكروا ما أنزل اللَّه على عبده ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: يوم بدر، حيث كان يوما فارقا بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، فقد شهد المسلمون في هذا اليوم كيف كانت أمداد السماء تتنزل عليهم، وكيف كانت آثار هذه الأمداد في عدوهم، وفي دحره وهزيمته ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فإن بيده -ﷻ- مقاليد كل شيء: يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وينصر من يشاء، ويهزم من يشاء: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فالذي أنزله اللَّه على عبده يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، هو هذا المدد السماوي من الملائكة. وإيمان المسلمين بهذا المدد: هو التصديق بنزول الملائكة ومظاهرتهم لهم في هذا اليوم، فهذا خبر جاء به القرآن يجب على كل مؤمن أن يؤمن به»[2].

قال ابن عطية: «ويوم الفرقان هو يوم الفرق بين الحق والباطل، بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك، والفرقان مصدر فرق يفرق، والجمعان يريد جمع المسلمين وجمع الكفار، وهو يوم الوقعة التي قتل فيه صناديد قريش ببدر، ولا خلاف في ذلك، وعليه نص ابن عباس ومجاهد ومقسم والحسن بن علي وقتادة وغيرهم، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة هذا قول جمهور الناس، وقال أبو صالح لتسع عشرة، وشك في ذلك عروة وقال تسع عشرة أو سبع عشرة»[3].

وإضافة اللَّه تعالى نبيه ﷺ إلى نفسه بقوله: عبدنا إضافة تشريف وتعظيم لنبي ﷺ[4].

---

(١) يوسف: الآية (٢١).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦١٨-٦١٩). (٣) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٢).

(٤) أفاده صديق حسن خان في فتح البيان (٥/ ١٨٣).

وفي هذه الواقعة -أي واقعة الفرقان- من الآيات العظائم غلبة القليل على الكثير وذلك بقدرة اللَّه تعالى، الذي هو على كل شيء قدير[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن أداء الخمس من الإيمان

* عن عبد اللَّه بن عباس قال: قدم وفد عبد قيس على رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إنا من هذا الحي من ربيعة ولسنا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فمرنا بشيء نأخذه عنك وندعوا إليه من وراءنا. فقال: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان باللَّه** -ثم فسرها لهم- **شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهى عن الدباء والحنتم والمقير والنقير**»[٢].

★ غريب الحديث:

الدباء: الدباء: القرع، واحدها: دباءة، كانوا ينتبذون فيها فتسرع الشدة في الشراب.

الحنتم: جرار مدهونة خضر كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة، ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله: حنتم.

المقير: ما طلي بالقار وهو المزفت.

النقير: أصله: جذع النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذًا مسكرًا.

★ فوائد الحديث:

قال القاسمي: «جعل النبي ﷺ أداء الخمس من الإيمان وقد بوّب البخاري ذلك في باب أداء الخمس من الإيمان من صحيحه فقال: «باب أداء الخمس من الإيمان»[٣]، وساق الحديث المذكور، أعني حديث عبد اللَّه بن عباس في وفد عبد القيس».

---

(١) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٢/ ٨/ ٥٢٣) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٦/ ١٧)، وأبو داود (٤/ ٩٤-٩٥/ ٣٦٩٢)، والترمذي (٥/ ٩-١٠/ ٢٦١١) وقال: «هذا حديث صحيح حسن»، والنسائي (٨/ ٤٩٥/ ٥٠٤٦).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٦٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

★ غريب الآية:

العدوة: بكسر العين وضمها: شط الوادي وشفيره وضفته سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها؛ أي: منعته.

الدنيا: مؤنث الأدنى. من دَنَوْتُ، إذا اقتربت.

القصوى: مؤنث الأقصى وهو الأبعد.

الركب: أي: أصحاب الإبل المركوبة ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما ذكر تعالى لهم يوم ملتقاهم، صور لهم حالتهم الموضحة للأمر، المبينة لما كانوا فيه من اعترافهم بالعجز، تذكيرا لهم بذلك وردعا عن المنازعة وردا إلى المطاوعة فقال مبدلا من يوم الفرقان ﴿إِذْ أَنتُم﴾ نزول ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى إلى المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعدى منها القريبة إلى البحر.. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي العير الذي فيه المتجر الذي خرجتم لاقتطاعه، ورئيس جماعته أبو سفيان، ونصب على الظرف قوله: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: أيها الجمعان إلى جانب البحر على مدى من قرية تكادون تقعون عليه، وتمدون أيديكم إليه، مسافة ثلاثة أميال كما قال البغوي، وهو كان قصدكم وسؤلكم، فلو كانت لكم قوة على طرقه لبادرتم إليه الطرف، وغالبتم عليه الحتف، ولكن منعكم من إدراك مأمولكم منه من كان جاثما بتلك العدوة،

جثوم الأسد واثقا بما هو فيه من القوى والعدد»[١].

قال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يعني -تعالى ذكره-: ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه أنتم أيها المؤمنون، وعدوكم من المشركين عن ميعاد منكم ومنهم، لاختلفتم في الميعاد لكثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم، ولكن اللَّه جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم؛ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وذلك القضاء من اللَّه كان نصره أولياءه من المؤمنين باللَّه ورسوله، وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر»[٢].

وقال أيضًا: «ويعني بقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له، وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ يقول: وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه»[٣].

قال ابن عطية: «فالهلاك والحياة على هذا التأويل حقيقتان، وقال ابن إسحاق وغيره: معنى ليهلك ليكفر، ويحيى أي ليؤمن، فالحياة والهلاك على هذا مستعارتان، والمعنى أن اللَّه تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان، ويكفر أيضًا من كفر عن مثل ذلك»[٤].

قال ابن كثير معلقا على تفسير ابن إسحاق: «وهذا تفسير جيد، وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد؛ لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن عن بينة؛ أي: حجة وبصيرة، والإيمان هو

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨٥-٢٨٦).
(٢) جامع البيان (١٠/ ١١).
(٣) جامع البيان (١٠/ ١٢).
(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٣).

حياة القلوب، قال اللّه تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[(١)] »[(٢)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين، والتياث أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من اللّه سبحانه، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته، وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، فكان الحماية دونها تضاعف حميتهم، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم في القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم، ويوطن نفوسهم، على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم. وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ليقضي أمرا كان مفعولا، من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرغوبين مما بلغهم من تعرض رسول اللّه ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييل يشير إلى أنّ اللّه سميع دعاء المسلمين طلب النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر ومن مودّتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٩).
(٣) الكشاف (٢/ ١٦٠).

يلاقونها، وغير ذلك، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم ويبني عليه مجد مستقبلهم»[١].

وقال أيضًا -مؤكدًا كلام الزمخشري-: «والغرض من التقييد بهذا الوقت، وبتلك الحالة: إحضارها في ذكْرهم، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة اللَّه، ومن حسن الظنّ بوعده والاعتماد عليه في أمورهم، فإنّهم كانوا حينئذ في أشدّ ما يكون فيه جيش تجاه عدوّه؛ لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة كان ظاهرها ملائِمًا للعدوّ، إذ كان العدوّ في شوكة واكتمال عدّة، وقد تمهدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه، إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقياهم والتي أرضها متوسّطة الصلابة، فَأما جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدوّ في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رمْلها، مع قلّة مائِها، وكانت العير قد فاتت المسلمين وحلّت وراء ظهور جيش المشركين، فكانت في مأمن من أن ينالها المسلمون، وكان المشركون واثقين بمكنة الذبّ عن عيرهم، فكانت ظاهرةُ هذه الحالة ظاهرةَ خيبة وخوف للمسلمين، وظاهرةَ فوز وقوة للمشركين، فكان من عجيب عناية اللَّه بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رَأسًا على عَقب، فأنزل من السماء مطرًا تعبّدت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم، وتطهّروا وسَقَوا، وصَارت به الأرض لجيش المشركين وحلًا يثقل فيها السيرَ وفاضت المياه عليهم، وألقى اللَّه في قلوبهم تهوين أمر المسلمين، فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدّوا للحرب عدّتها، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهو وطرب، فجعل اللَّه ذلك سببًا لنصر المسلمين عليهم، ورأوا كيف أنجز اللَّه لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقّعونه. فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية»[٢].

قال الرازي: «وجعل الغلبة للمسلمين، والدمار على الكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ، فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر»[٣].

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧-١٨).
(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٧٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فشلتم: الفشل هنا: الجبن. يقال: فَشِلَ من الأمر يَفْشَلُ فَشَلًا: إذا جَبُنَ. وهو ضعف وخور يصيب القلب أثناء المواجهة.

تنازعتم: أي: اختلفتم التنازع، والمنازعة المجاذبة، ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة.

سَلَّمَ: أي: نَجَّى من الآفة؛ لأن السلامة: النجاة من الآفة. وقيل: سلمكم من المخالفة. قال ابن عباس: من الفشل. ويحتمل منهما. وقيل: سلم أي: أتم أمر المسلمين بالظفر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إذ يريك اللَّه عدوك وعدوهم في منامك قليلا، يقول: يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا لفشل أصحابك، فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن اللَّه سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تخفيه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب»[1].

وقال ابن عاشور: «وأسندت الإراءة إلى اللَّه تعالى؛ لأنّ رؤيا النبي ﷺ وحي بمدلولها، كما دلّ عليه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وابنه ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى

(١) جامع البيان (١٠/ ١٢).

﴿ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[1] فإنّ أرواح الأنبياء لا تغلبها الأخلاط، ولا تجول حواسهم الباطنة في العبث، فما رؤياهم إلَّا مكاشفات روحانية على عالم الحقائِق.

وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا منامٍ، جيشَ المشركين قليلًا، أي قليل العَدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجّعوا للقاء المشركين، وحملوها على ظاهرها، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيّب جيش المشركين. فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر، وكانت تلك الرؤيا منّة من اللَّه على رسوله والمؤمنين، وكانت قِلة العدد في الرؤيا رَمزًا وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلّة عددهم.

ولذلك جعلها اللَّه في رؤيا النوم دون الوحي؛ لأنّ صور المَرائي المنامية تكَون رموزًا لمعان فلا تُعَدُّ صورتها الظاهرية خلفًا، بخلاف الوحي بالكلام. وقد حكاها النبي ﷺ للمسلمين، فأخذوها على ظاهرها، لعلمهم أنّ رؤيا النبي وحي، وقد يكون النبي قد أطلعه اللَّه على تعبيرها الصائِب، وقد يكون صرفه عن ذلك فظنّ كالمسلمين ظاهرها، وكلّ ذلك للحكمة. فرؤيا النبي ﷺ لم تخطىء ولكنها أوهمتهم قلّة العَدد؛ لأنّ ذلك مرغوبهم والمقصود منه حاصل، وهو تحقّق النصْر، ولو أخبروا بعدد المشركين كما هو لجبنُوا عن اللقاء فضعفت أسباب النصر الظاهرة المعتادة التي تكسبهم حسن الأحدوثة. ورؤيا النبي لا تخطئ، ولكنها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج، كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي: أنّه كان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فَلَق الصبح[2]، وهذا هو الغالب، وخاصّة قبل ابتداء نزول المَلك بالوحي»[3].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الرؤية هاهنا كانت في المنام لتصريح اللَّه بذلك في قوله: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ وذهب الحسن البصري رحمه اللَّه إلى أنها كانت في اليقظة معتبرا أن قوله: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أي: بعينك التي تنام بها.

---

(١) الصافات: الآية (١٠٢).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (١/ ٢٨-٢٩/ ٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢/ ١٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢-٢٣).

قال ابن عطية: «وهذا القول ضعيف، وعليه فسر النقاش، وذكره عن المازني، والضمير على التأويلين من قوله يريكهم عائد إلى الكفار من أهل مكة، ومما يضعف ما روي عن الحسن، أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضًا»[١].

قال ابن كثير معلقا على قول الحسن البصري: "وهذا القول غريب وقد صرح بالمنام فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه»[٢].

وقال الألوسي: «ولا يخفى ما فيه؛ لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمي على ما قال بعض المحققين، أو في موضع الشخص النائم على ما في الكشف، ففي الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نكتة فيه، وما قيل: إن فائدة العدول الدلالة على أن الأمن الوافر فليس بشيء لأنه لا يفيد ذلك، فالنوم في تلك الحال دليل الأمن لا أن يريهم في عينه التي هي محل النوم. . ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة فإنه الفصيح العالم بكلام العرب وتخريج كلامه على أن في الكلام مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه؛ أي: في موضع منامك مما لا يرتضيه اليقظان، أيضًا والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الغريبة، والمراد إذ أراكهم اللَّه قليلا»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «فإن قلت: كيف يصح مع هذا أن تكون رؤيا الأنبياء حق، وأنها ضرب من الوحي؟ قلت: قد تقدم أن النبي ﷺ قدر عدد المشركين بألف، وأخبر أصحابه بذلك مع أن عددهم (٣١٣)[٤]، ولكنه أخبرهم مع هذا أنه رآهم في منامه قليلا لا أنهم قليل في الواقع، فالظاهر أنهم أولوا بأن بلاءهم يكون قليلا، وأن كيدهم يكون ضعيفا، فتجرؤوا وقويت قلوبهم»[٥].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٩)
(٣) روح المعاني (١٠/ ٨).
(٤) قلت: يشير إلى حديث ابن عباس ﷺ قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول اللَّه ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا» أخرجه: أحمد (١/ ٣٠-٣٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٣/ ١٧٦٣)، وأبو داود (٣/ ١٣٨/ ٢٦٩٠)، والترمذي (٥/ ٢٥١/ ٣٠٨١).
(٥) تفسير المنار (١٠/ ٢٢).

فقال بعضهم: معناه: ولكن اللَّه سلم للمؤمنين أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولكن اللَّه سلم أمره فيهم.. وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي.. وهو أن اللَّه سلم القوم بما أرى نبيه ﷺ في منامه من الفشل والتنازع حتى قويت قلوبهم، واجترءوا على حرب عدوهم، وذلك أن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فالذي هو أولى بالخبر عنه أنه سلمهم منه -جل ثناؤه- ما كان مخوفا منه لو لم ير نبيه ﷺ من قلة القوم في منامه»[١].

قال أبو حيان: «ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام محميا معصوما من النقائص، أسند الفشل إلى من يمكن ذلك في حقه، فقال تعالى: ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ وهذا من محاسن القرآن»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الكلمة وعواقب ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾أي: عليم بما في القلوب التي في الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فتنكل عن الإقدام على القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث فيها طمأنينة الشجاعة والصبر فيحملها على الإقدام، فيسخر لكل منها الأسباب التي تفضي إلى ما يريده منها»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٠/ ١٣).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٩٧).
(٣) تفسير المنار (١٠/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «المعنى أن الله تعالى لما أراد من إنفاذ قضائه في نصرة الإسلام وإظهاره قلل كل طائفة في عيون الأخرى، فوقع الخلل في التخمين والحزر الذي يستعمله الناس في هذا التجسد، كل طائفة على الأخرى وتتسبب أسباب الحرب»[1].

قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق ولله الحمد والمنة»[3].

قال محمد رشيد رضا: «ومعنى التعليل ليقدم كل منكم على قتال الآخر: هذا واثقا بنفسه مدلا ببأسه. وهذا متكلا على ربه، وواثقا بوعده، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم، فيقضي بإظهاركم عليهم أمرا كان في علمه مفعولا، فهيأ له أسبابه وقدرها تقديرا، ولا حاجة إلى جعل هذا الأمر المفعول غير الذي ذكر قبله، وإن سهل ذلك بغير تكلف، باعتبار مبدإ الأمر وغايته، وحسن تأثيره وثمرته، وقد كان في الفريقين عظيما، فإن تكرار ما تقتضي الحال تكراره أصل من أصول البلاغة،

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٠).

ومقصد من أهم مقاصدها خلافا لما زعم متنطعو المحسنات اللفظية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فلا ينفذ شيء في العالم إلا ما قضاه اللّه تعالى وقدر أسبابه، وإنما القضاء والقدر قائمان بسننه تعالى في الأسباب والمسببات، فهو لو شاء لخلق في القلوب والأذهان ما أراده بتأثير منام الرسول، وبتقليل كل من الجمعين في أعين الآخر، من غير أن يرتبهما على هذين السببين، ولكنه ناط كل شيء بسبب، وخلق كل شيء بقدر، حتى إن بعض آياته لرسله وتوفيقه لمن شاء من عباده، يكونان بتسخير الأسباب لهم وموافقة اجتهادهم وكسبهم بسننه تعالى في الفوز والفلاح، كما أن بعض الآيات يكون بأسباب غيبية كتأييد الملائكة، وتثبيتهم، أو بغير سبب»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيما بعده ليجترئوا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾»[٢].

وقال ابن عاشور: «وإنّما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبطًا عزيمتهم، كما كان تخيّل المشركين قلّة المسلمين مثبطًا عزيمتهم؛ لأنّ المسلمين كانت قلوبهم مفعمة حنقًا على المشركين، وإيمانًا بفساد شركهم، وامتثالًا أمرَ اللَّه بقتالهم، فما كان بينهم وبين صبّ بأسهم على المشركين إلّا صرف ما يثبط عزائمهم. فأمّا المشركون فكانوا مزدهين بعَددهم وعنادهم، وكانوا لا يرون المسلمين على شيء، فهم يحسبون أنّ أدنى جولة تجول بينهم يقبضون فيها على المسلمين قبضًا، فلذلك لا يعبؤون بالتأهّب لهم، فكان تخييل ما يزيدهم تهاونًا بالمسلمين يزيد تواكلهم وإهمال إجماع أمرهم»[٣].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وانظر كيف كان تدبير اللّه لما أراد من إنفاذ ما أراده، وإيقاع ما قضى بوقوعه.

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٢٣).

(٢) الكشاف (٢/ ١٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٦).

فلقد أراد سبحانه أن يلتحم الفريقان في القتال، وأن يغرى كل من الفريقين بصاحبه، وأن يحمله الطمع في الظفر به على خوض المعركة معه، وإبلاء بلائه فيها. فالمسلمون يرون عدوهم في قلة ظاهرة، قلة في العدد، وقلة في البلاء والقدرة على احتمال صدمة المسلمين لهم، وهذا ما يثبت أقدام المسلمين في القتال، ويربط على قلوبهم في المواجهة، ويطمعهم في عدوهم ويغريهم به. ولو أنهم رأوا المشركين على ما هم عليه في ظاهرهم لزلزلت أقدامهم، واضطربت قلوبهم، ولربما فرّوا من وجه عدوهم، واستسلموا له من غير قتال.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ وأما المشركون فقد أراهم اللّه المسلمين على ما هم عليه من قلة، وربما رأوهم في أعينهم أقل من هذه القلة التي كانوا عليها.

وهذا من شأنه أن يبعث في نفوس المشركين، أو في كثير منهم مشاعر الاستخفاف بالمسلمين، وعدم المبالاة بهم، وأخذ الحذر منهم، وبهذا يفوتهم كثير من إحكام التدبير، كما تتخلى عنهم كثير من مشاعر الخوف التي تحمل الإنسان على استجماع قواه، واستخراج كل رصيد في كيانه لدفع الخطر الذي يتهدده! وهكذا يصنع اللّه لأوليائه، فيمكن لهم من أسباب النصر، ثم يضيف هذا النصر إليهم، ويدخله في حسابهم ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] فالمسلمون يعلمون عن يقين كثرة عدوهم، وعن هذا اليقين وطدوا العزم على لقائه، وأعطوا المعركة كل ما يملكون من قوة وتدبير. ثم يدخل عليهم بهذا شعور - مجرد شعور- بأن عدوهم ليس على ما استقر في يقينهم من أنه بهذه الكثرة التي تؤيسهم من الوقوف له، والظفر به. فإذا التقى هذا الشعور بذلك اليقين، كان منهما كائن جديد من المشاعر التي تجمع بين الخوف والرجاء، والإشفاق والطمع، وتلك أحسن حال، وأحسن موقف يقفه الإنسان في الحياة، وفي معالجة ما يلقاه من ميسور أمورها ومعسورها على السواء. هذا على حين رأى المشركون عدوهم في قلة ظاهرة، كما وقع ذلك في حسابهم لهم من أول الأمر، فداخلهم من ذلك شعور بالاستخفاف بهم، والتهوين من شأنهم، والقدرة على تناولهم من قريب،

(١) يوسف: الآية (١٠٠).

فكان ذلك أسوأ حال يلقى عليه مقاتل عدوه!»[١].

قال ابن المنير: «وفي هذا دليل بين على أن اللّه هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة، أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك»[٢].

وفي هذه الآية دليل ظاهر وآية بينة على صدق النبي ﷺ، وصدق رؤياه، فإنه عليه الصلاة والسلام رأى العدو في المنام قليلا كما نصت عليه الآية السابقة، ثم رآه المؤمنون معاينة على وفق ما أخبر النبي ﷺ في المنام»[٣].

وفيها أيضًا: «أن ما وقع في هذه القصة وغيرها مما يقع في هذا الكون دليل على أن ذلك كان مقدرا قدره اللّه في الأزل، فلابد من وقوعه على ما حده لأنه لا راد لأمره، ولا مبدل للقول لديه»[٤].

قال الرازي: «ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد»[٥].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٢٤-٦٢٥).

(٢) الإنصاف حاشية الكشاف (٢/ ١٦١).

(٣) أفاده القاسمي في محاسن التأويل (٨/ ٧٠).

(٤) أفاده البقاعي في نظم الدرر (٨/ ٢٩٢).

(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا تعليم اللَّه عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.. فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، أن يذكروا اللَّه في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم»[1].

قال الرازي: «فإن قيل: فهذه الآية توجب الثبات على كل حال، وهذا يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز؟ قلنا: هذه الآية توجب الثبات في الجملة، والمراد من الثبات الجد في المحاربة. وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول الثبات في المحاربة؛ بل كان الثبات في هذا المقصود، لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز»[2].

وقال أبو حيان: «أمرهم بذكره تعالى كثيرًا في هذا الموطن العظيم، من مصابرة العدو، والتلاحم بالرماح، وبالسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء؛ فأمروا بذكر اللَّه إذ هو تعالى الذي يفزع إليه عند الشدائد، ويستأنس بذكره، ويستنصر بدعائه، ومن كان كثير التعلق باللَّه، ذكره في كل موطن، حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء، ويغيب فيها الحسّ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3]»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٠).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٧٧).

(٣) الرعد: الآية (٢٨).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤٩٨).

وقال عبد الكريم الخطيب: «شهد المسلمون في موقعة بدر أمداد السماء تتنزل عليهم، وتضع بين أيديهم هذا النصر المبين، الذي كان مفتتح انتصاراتهم التي ستجيء بعد هذا، فيما يدور بينهم وبين المشركين والكافرين من قتال.

ولئلا يغلب على المسلمين هذا الشعور الذي استولى عليهم يوم بدر، من عون اللَّه لهم، وإمدادهم بالملائكة تقاتل معهم -لئلا يغلب هذا الشعور عليهم، ويسلمهم إلى التواكل والثقة بضمان النصر من غير إعداد وجهاد وبلاء، فقد أراهم اللَّه في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾- أراهم الطريق الذي يأخذونه لتحقيق النصر الذي ينشدونه، ورسم لهم الدستور الذي يستقيمون عليه ليكون لهم الغلب الذي يرجونه.

فالثبات للعدو، والتصميم على لقائه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس أيّ هاجس يهجس بها للفرار، أو التراجع، أو أخذ الجانب اللين من مواقف القتال -هو السلاح العامل بما لا تعمله كثرة العَدد والعُدد، لكسب المعركة، وتحقيق النصر.

ولن يكون ذلك الموقف متاحا للإنسان وهو يواجه وجوه الموت، إلا إذا شد عزمه بالإيمان باللَّه، وملأ قلبه يقينا بالجزاء الذي أعدّه اللَّه له، ومن هنا كان ذكر اللَّه، والإكثار من ذكره في هذا الموطن، هو الزاد الذي يتزود به المجاهد، للصبر على الشدائد، والثبات في وجه الموت الذي يراه رأي العين، فيما يقع بين يديه من جثث وأشلاء.

فذكر اللَّه ﷻ في هذا الموطن الذي تصرخ فيه في كيان الإنسان دواعي الحرص على الحياة، وطلب السلامة، وحب البقاء هو الذي يمسك الإنسان على البلاء، ويسوغ له طعم الموت، والاستشهاد في سبيل اللَّه، ابتغاء الفوز برضاه، ولقائه جل شأنه على الوعد الذي وعد به المجاهدين في سبيله! ومن أجل هذا كان الفرسان والأبطال يصحبون معهم من يؤثرون بالحب، من زوجات وخليلات، ليكون في صحبتهم لهم تذكير حي بالموقف الذي يجب أن يأخذوه في ميدان القتال، حتى يكونوا موضع إعجاب وتقدير عند من يحبونهم، ويفعلون الشيء الكثير الذي يرضيهم..

فكيف إذ ذكر المؤمن ربه، واستحضر جلاله، وعظمته في هذا الموقف الذي ينتصر فيه لله، ويجاهد في سبيله، ويعمل على مرضاته، ويطلب المثوبة من جزيل عطاياه؟ إن الذي يذكر اللَّه في هذا الموطن، ذكرا ينبعث من قلبه، ويتحرك من وجدانه يستخف بالموت، ويلذ له طعمه، ويجد أن حياته التي يقدمها لله ليست شيئًا إلى جانب الحياة الأخرى التي هو صائر إليها، وواجد ما قدم لها.

وهذا هو الذي أمسك بالمجاهدين في سبيل اللَّه على حياض الموت، فكتبوا بدمائهم تلك الوثائق الخالدة على الزمن في التضحية والفداء»[1].

قال الزمخشري: «وفيه إشعار أن العبد لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبا، وأكثر ما يكون هما، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره»[2].

قال القاسمي: «وفي الآية إشعار بأن على العبد أن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال»[3].

وفي هذا الذكر المأمور به في الآية ثلاث احتمالات يقول ابن العربي: «الأول: اذكروا اللَّه عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يثبت. الثاني: اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم؛ فإن القلب قد يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان؛ فأمر بذكر اللَّه حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر. الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد اللَّه لكم في ابتياعه أنفسكم منكم ومثامنته لكم، وكلها مراد، وأقواها أوسطها، فإن ذلك إنما يكون عند قوة المعرفة، ونفاد القريحة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس»[4].

وهو ما رجحه القرطبي بقوله: «والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان»[5].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن المفاضلة بين الذاكر والمجاهد: «والتحقيق في ذلك أن المراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى: ذكر وجهاد، وهي أعلى المراتب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٢٦-٦٢٨).
(٢) الكشاف (٢/ ١٦٢).
(٣) محاسن التأويل (٨/ ٧١).
(٤) أحكام القرآن (٢/ ٨٦٦-٨٦٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٤).

المرتبة الثانية: ذكر بلا جهاد، فهذه دون الأولى.

المرتبة الثالثة: جهاد بلا ذكر، فهي دونهما والذاكر أفضل من هذا، وإنما وضع الجهاد لأجل ذكر اللَّه، فالمقصود من الجهاد أن يذكر اللَّه ويعبد وحده، فتوحيده وذكره وعبادته هو غاية الخلق التي خلقوا لها»[١].

وقال أيضًا: «إن الذاكر المجاهد، أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن اللَّه تعالى. فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي وأكثروا من ذكر اللَّه في أثناء القتال وتضاعيفه، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه، وإقامة سننه، وبذكر نهيه لكم عن اليأس مهما اشتد البأس، وبأن النصر بيده ومن عنده، ينصر من يشاء وهو القوي العزيز، فمن ذكر هذا، وتأمل فيه لا تهوله قوة عدوه واستعداده، لإيمانه بأن اللَّه تعالى أقوى منه -واذكروه أيضًا بألسنتكم موافقة لقلوبكم بمثل التكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما عداه، والدعاء والتضرع إليه ﷻ مع اليقين بأن لا يعجزه شيء.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ هذا الرجاء منوط بالأمرين كليهما، أي أن الثبات وذكر اللَّه تعالى هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة. أما الأول فظاهر، وقد بينا مثاله من الوقائع البشرية. وأما الثاني فأمثلته أظهر وأكثر، ومن أظهرها ما نزلت هذه الآية في سياقه، وهذه السورة بجملتها في بيان حكمه وأحكامه وسنن اللَّه فيه وهو غزوة بدر الكبرى وقد تقدم بيانه، وقد كان الكفار يمترون في كون الإيمان -ولا سيما الصحيح وهو إيمان التوحيد الخالي من الخرافات وما يستلزمه من التوكل على اللَّه تعالى في الشدائد ودعائه واستغاثته- من أسباب النصر في الحرب»[٣].

---

(١) تهذيب السنن حاشية عون المعبود (٧/ ١٧٦).

(٢) الوابل الصيب (ص: ٨٦ -٨٧).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الذكر عند القتال واستجابة الدعاء في ذلك الموقف

* عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد اللّه وكان كاتبًا له قال: كتب إليه عبد اللّه بن أبي أوفى ﷺ فقرأته: إن رسول اللّه ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس. ثم قام في الناس خطيبًا قال: «**أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا اللّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» ثم قال: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»[1].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال ابن دقيق العيد: لما كان لقاء الموت من أشقّ الأشياء على النفس، وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة، لم يُؤمَن أن يكون عند الوقوع كما ينبغي فيُكره التمني لذلك، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وعد من نفسه، ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة. انتهى»[2].

وقال أيضًا: «وفي الحديث استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار، ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم وتعليمهم بما يحتاجون إليه، وسؤال اللّه تعالى بصفاته الحسنى وبنعمه السالفة، ومراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة، والحثّ على سلوك الأدب وغير ذلك»[3].

وقال النووي: «إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس، والوثوق بالقوة، وهو نوع بغي، وقد ضمن اللّه تعالى لمن بغي عليه أن ينصره، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، وهذا يخالف الاحتياط والحزم، وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة، وهي إذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٣-٣٥٤)، والبخاري (٦/ ١٤٨-١٤٩/ ٢٩٦٥-٢٩٦٦) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٦٢-١٣٦٣/ ١٧٤٢)، وأبو داود (٣/ ٩٥-٩٦/ ٢٦٣١)، وأخرج طرفه الأخير: الترمذي (٤/ ١٦٨/ ١٦٧٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٨/ ٨٦٣٢).

(٢) فتح الباري (٦/ ١٩٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٩٤).

شك في المصلحة فيه وحصول ضرر، وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة، والصحيح الأول، ولهذا تممه ﷺ بقوله ﷺ: «**واسألوا اللّه العافية**» وقد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن، في الدين والدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين.

وأما قوله ﷺ: «**وإذا لقيتموهم فاصبروا**» فهذا حث على الصبر في القتال وهو آكد أركانه، وقد جمع اللّه سبحانه آداب القتال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

وأما قوله ﷺ: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» فمعناه ثواب اللّه، والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل اللّه، ومشي المجاهدين في سبيل اللّه، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا»[(١)].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ثنتان لا تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضًا**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

يلحم: أي: يشتبك الحرب بينهم ويلزم بعضهم بعضًا.

---

(١) شرح مسلم (١٢/ ٤٠-٤١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ٤٥-٤٦/ ٢٥٤٠) واللفظ له، وصححه ابن خزيمة (١/ ٢١٩/ ٤١٩)، والحاكم (١/ ١٩٨) من طريق موسى بن يعقوب الزمعي عن أبي حازم عن سهل بن سعد به. قال الحاكم: «هذا حديث ينفرد به موسى بن يعقوب وقد يروى عن مالك عن أبي حازم وموسى بن يعقوب ممن يوجد عنه التفرد، وله شهود منها حديث سليمان التيمي عن أنس وحديث معاوية بن قرة وحديث يزيد بن أبي مريم عن أنس». ووافقه الذهبي.

والحديث له متابعات وشواهد يتقوى بها. منها: ما أخرجه ابن حبان (٥/ ٥/ ١٧٢٠) من طريق مالك عن أبي حازم عن سهل به. انظر بقية المتابعات والشواهد في غوث المكدود (رقم ١٠٦٥). والحديث قال فيه ابن حجر في نتائج الأفكار (١/ ٣٧٩): هذا حديث حسن صحيح.

★ فوائد الحديث:

قال ابن علان: «والحديث -كما قال ابن رسلان- ظاهر في أن الدعاء منه مقبول ومردود عند اللَّه، فيقبل ما شاء ويردّ ما شاء. قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾[(١)] وهذه الآية مقيدة لقوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٢)] ولقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال أيضًا: «والحكمة في قران النداء بالجهاد ما في كل منهما من مجاهدة أعداء اللَّه، إذ في الأول جهاد الشياطين كما سبق أنه يفر عند سماع الأذان وله ضراط، وفي الثاني جهاد الكفار والمشركين، فلما تمّ استسلامه لأمر ربه وجهاده لأعدائه استحقّ أن يجاب دعوته وترحم عَبْرَته»[(٥)].

* عن قيس بن عباد قال: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يكرهون الصوت عند القتال»[(٦)].

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «فيه دليل على أن رفع الصوت حال القتال وكثرة اللغط والصراخ مكروهة، ولعل وجه كراهتهم لذلك أن التصويت في ذلك الوقت ربما كان مشعرا بالفزع والفشل، بخلاف الصمت فإنه دليل الثبات، ورباط الجأش»[(٧)].

قال ابن عطية: «إن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان إلغاطا، فأما إذا كان من الجمع عند الحملة فحسن فات في عضد العدو»[(٨)].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (٤١).
(٢) غافر: الآية (٦٠).
(٣) البقرة: الآية (١٨٦).
(٤) الفتوحات الربانية (٢/ ١٣٨).
(٥) الفتوحات الربانية (٢/ ١٣٨-١٣٩).
(٦) أخرجه: أبو داود (٣/ ١١٣-١١٤/ ٢٦٥٦)، والحاكم (٢/ ١١٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٢٣١٤).
(٧) نيل الأوطار (٧/ ٢٤٣).
(٨) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

★ **غريب الآية:**

ريحكم: أي قوتكم ونصركم، كما تقول الريح لفلان إذا كان غالبا في الأمر، وقيل: الريح الدولة، وهو قريب من الأول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا اللَّه في تلك الحال، ولا ينسوه؛ بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا اللَّه ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم اللَّه تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وقد كان للصحابة ﷺ -في باب الشجاعة والائتمار بأمر اللَّه، وامتثال ما أرشدهم إليه- ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس، والترك والصقالبة، والبربر والحُبوش، وأصناف السودان والقبط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة اللَّه، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فﷺ وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٢).

قال أبو بكر ابن العربي: «هذه الوصية هي العمدة التي يكون معها النصر، ويظهر بها الحق، ويسلم معها القلب، وتستمر معها على الاستقامة الجوارح، وذلك بأن يكون عمل المرء كله بالطاعة، في امتثال الأمر، واجتناب النهي، فإنما يقاتل المسلمون بأعمالهم لا بأعدادهم، وباعتقادهم لا بأمدادهم، فلقد فتح اللَّه الفتوح على قوم كانت حلية سيوفهم إلا الغلابى، ولذلك قال ﷺ: **«إنما تنصرون بضعفائكم»**[1] إشارة إلى أن الطاقة في الطاعة، والمنة في الهداية.

.. قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ هذا أصل عظيم في المعقول والمشروع... إذا ائتلفت القلوب على الأمر استتب وجوده، واستمر مريره، وإذا تخلخل القلب قصر عن النظر، وضعفت الحواس عن القبول، والائتلاف طمأنينة للنفس، وقوة للقلب، والاختلاف إضعاف له؛ فتضعف الحواس، فتقعد عن المطلوب فيفوت الغرض؛ وذلك قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وكنى بالريح عن اطراد الأمر ومضائه، بحكم استمرار القوة فيه والعزيمة عليه، وأتبع ذلك بالأمر بالصبر الذي يبلغ العبد به إلى كل أمر متعذر بوعده الصادق في أنه مع الصابرين»[2].

قال ابن القيم -معلقا على هذه الآية والتي قبلها-: «أمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت، وإن قلت وكثر عدوها، أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره ﷻ. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر. فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضا وصار لها أثر عظيم في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد و البلاد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٣)، والبخاري (٦/ ١١٠/ ٢٨٩٦)، والنسائي (٦/ ٣٥٢/ ٣١٧٨) بنحوه من حديث سعد بن مالك ﷺ.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٧٠).

ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، واللَّه المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أطيعوا اللَّه في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وفي غيرها، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه من شؤون القتال وغيرها، من حيث إنه هو المبين لكلام اللَّه الذي أنزل إليه على ما يريده تعالى منه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، ومنه ولاية القيادة العامة في القتال، فطاعة القائد العام هي جماع النظام الذي هو ركن من أركان الظفر، فكيف إذا كان القائد العام رسول اللَّه المؤيد من لدنه بالوحي والتوفيق، والمشارك لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور، كما ثبت لكم في هذه الغزوة ثم في غيرها. وقد كان لهم من العبرة في ذلك أن الرماة عند ما خالفوا أمره ﷺ في غزوة أحد كر المشركون عليهم، ونالوا ما نالوا منهم، بعد أن كان لهم الظهور عليهم. وأنزل اللَّه تعالى في استغرابهم لذلك ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[٢].

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ هذا النهي مساق للأمر بالثبات، وكثرة الذكر، وبطاعة اللَّه والرسول، ومتمم للغرض منه، فإن الاختلاف والتنازع مدعاة الفشل وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر، وأكثر أسبابه الضعف والجبن، ولذلك فسروه هنا بهما»[٣].

وقال ابن عاشور: «وأمّا النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا، حتّى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[٤]. وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٥]، والنهي عن التنازع أعمّ من الأمر بالطاعة لوُلاَة الأمور: لأنّهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أَوْلَى بالنهي.

---

(١) الفروسية (ص: ١٧٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٥).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٢٧-٢٨).

(٤) النساء: الآية (٨٣).

(٥) النساء: الآية (٥٩).

ولـمّا كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسَطَ القرآن القولَ فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فحذّرهم أمرين معلومًا سوءُ مَغبتهما وهما: الفشلَ، وذهاب الريح»[1].

وقال: «ثم أمرهم اللَّه بشيء يعمّ نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفًا في قوله: ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ الآية. ألاَ وهو الصبر، فقال: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه، وما هو شديد على النفس، وتلك المأمورات كلّها تحتاج إلى تحمّل المكاره، فالصبر يجمع تحمّل الشدائد والمصاعب، ولذلك كان قوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾بمنزلة التذييل. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾إيماء إلى منفعة للصبرِ إلهيةٍ، وهي إعانة اللَّه لمن صبر امتثالًا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلها»[2].

قال أبو المظفر السمعاني: «وفي الآية فضيلة عظيمة لأهل الصبر؛ فإن اللَّه تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال الشاعر:

إني رأيت في الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر»[3].

قال الرازي: «والمقصود أن أمر الجهاد مبني على الصبر فأمرهم بالصبر كما قال في آية أخرى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[4]»[5].

ومعية اللَّه تعالى للصابرين معية قرب وكلاءة ونصر، يقول ابن القيم: «المعية نوعان: عامة وهي معية العلم والإحاطة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[6] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[7]، وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٠-٣١)

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٢).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ٢٧٠).

(٤) آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٧٨).

(٦) الحديد: الآية (٤).

(٧) المجادلة: الآية (٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣] فهذه معية قرب تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ، وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة»[٤].

وقال ابن عثيمين: «الصبر حبس النفس على طاعة اللَّه، وحبسها عن معصية اللَّه، وحبسها عن التسخط على أقدار اللَّه، سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح. وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة اللَّه، ثم عن معصية اللَّه؛ لأن فيهما اختيارا: إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء ترك المحرم، وإن شاء ما تركه، ثم على أقدار اللَّه؛ لأن أقدار اللَّه واقعة شئت أم أبيت»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه

* عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن قال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[٦].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفيه أمر الولاة بالرفق واتفاق المتشاركين في ولاية ونحوها، وهذا من المهمات، فإن غالب المصالح لا يتم إلا بالاتفاق، ومتى حصل الاختلاف فات، وفيه وصية الإمام الولاة وإن كانوا أهل فضل وصلاح، كمعاذ وأبي موسى، فإن الذكرى تنفع المؤمنين»[٧].

قال الحافظ: «قوله: «**وتطاوعا**» أي: توافقا في الحكم ولا تختلفا؛ لأن ذلك يؤدي إلى اختلاف أتباعكما، فيفضي إلى العداوة ثم المحاربة، والمرجع في

---

(١) النحل: الآية (١٢٨).
(٢) البقرة: الآية (١٥٣). (٣) العنكبوت: الآية (٦٩).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٥). (٥) شرح الواسطية (١/ ٤١٥).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٧)، والبخاري (٦/ ١٩٩/ ٣٠٣٨)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٣).
(٧) شرح مسلم (١٢/ ٣٧).

الاختلاف إلى ما جاء في الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]»[2].

قال ابن بطال: «وفي الحديث الحض على الاتفاق وترك الاختلاف؛ لما في ذلك من ثبات المحبة والألفة، والتعاون على الحق، والتناصر على إنفاذه وإمضائه»[3].

وانظر بقية فوائده في سورة البقرة عند الآية (١٨٥).

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه يحدث قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلًا- عبد الله بن جبير فقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**». فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن. فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة وسبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: أُعل هبل، أُعل هبل. قال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: يا رسول الله ما

---

(١) النساء: الآية (٥٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٠٢).

(٣) شرح ابن بطال (٨/ ٢٤٧).

نقول؟ قال: «**قولوا: اللَّه أعلى وأجل**». قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قال: قالوا يا رسول اللَّه ما نقول؟ قال: «**قولوا اللَّه مولانا ولا مولى لكم**»[١].

★ غريب الحديث:

الرجالة: الرجال: جمع راجل؛ أي: ماشٍ.

تبرحوا: برح مكانه كسمع؛ أي: زال.

خلاخلهن: الخَلْخَل: حِلْيٌ، والمُخَلْخَل: موضعه من الساق.

سجال: والحرب بينهم سجال ككتاب؛ أي: سجل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٢] وأن من آثر دنياه أضر بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه. واستفيد من هذه الكائنة أخذ الصحابة الحذر من العود إلى مثلها، والمبالغة في الطاعة»[٣].

قال ابن القيم: «فصل: في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد... فمنها تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾[٤]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدّ حذرًا ويقظة، وتحرّزًا من أسباب الخذلان»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٦/ ١٩٩-٢٠٠/ ٣٠٣٩)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥).

(٢) الأنفال: الآية (٢٥).

(٣) فتح الباري (٧/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٤) آل عمران: الآية (١٥٢).

(٥) زاد المعاد (٣/ ٢١٨-٢١٩).

قال ابن بطال: «قال المهلب: التنازع و الخلاف هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة؛ لأن اللَّه تعالى قد عبر في كتابه بالخلاف الذي قضى به على عباده، عن الهلاك في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1] ثم قال: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2] فقال قوم: خلقهم للخلاف، وقال آخرون: خلقهم ليكونوا: فريق في الجنة وفريق في السعير من أجل اختلافهم، وهذا كثير في كتاب اللَّه، وقد أخبر اللَّه تعالى: أن مع الخلاف يكون الفشل والكسل فيتمكن العدو من المخالفين؛ لأنهم كانوا كلهم مدافعين دفاعا واحدا، فصار بعضهم يدافع بعضا، فتمكن العدو. وفي حديث عبد اللَّه بن جبير معاقبة اللَّه على الخلاف، وعلى ترك الائتمار للرسول، والوقوف عند قوله، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]»[4].

* * *

(١) هود: الآية (١١٨).

(٢) هود: الآية (١١٩).

(٣) النور: الآية (٦٣).

(٤) شرح البخاري (٥/ ١٩٥-١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بطرا: البطر: التكبر عن قبول الحق. وهو أيضًا: الطغيان عند النعمة.

رِئَاءً: مصدر رَاءَى والمُرَائي مَنْ يُرِي النّاسَ عمَلَهُ ليُرُوه الثناء عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا تقدُّمٌ من اللَّه -جل ثناؤه- إلى المؤمنين به وبرسوله، لا يعملوا عملا إلا لله خاصة، وطلب ما عنده، لا رئاء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلبَ رئاء الناس. وذلك أنهم أخبروا بفَوْت العِير رسولَ اللَّه ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها! ، فأبوا وقالوا: نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتتحدث بنا العرب لمكانتنا فيها، فَسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا»[1].

وقال: «فتأويل الكلام إذن: ولا تكونوا أيها المؤمنون باللَّه ورسوله في العمل بالرياء والسمعة، وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه، كالجيش من أهل الكفر باللَّه ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطرا ومراءاة الناس بزيهم وأموالهم وكثرة عددهم، وشدة بطانتهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ يقول، ويمنعون الناس من دين اللَّه، والدخول في الإسلام بقتالهم إياهم، وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان باللَّه، واللَّه بما يعملون من الرياء، والصد عن سبيل اللَّه، وغير ذلك من أفعالهم محيط، يقول: عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء، وذلك أن الأشياء كلها له متجلية، لا يعزب عنه منها شيء، فهو لهم بها معاقب، وعليها معذب»[2].

(١) جامع البيان (١٠/ ١٦).

(٢) جامع البيان (١٠/ ١٨).

قال النيسابوري: «وصفهم اللَّه بأوصاف ثلاثة: أولها: البطر: وهو الطغيان في النعمة، يقال أيضًا: شدة المرح. والتحقيق أن النعم إذا كثرت من اللَّه على العبد فإن صرفها في مرضاته، وعرف حق اللَّه فيها، فذاك هو الشكر، وإن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران، والمكاثرة على أبناء الزمان، فذاك هو البطر. وثانيها: رئاء الناس: وهو القصد إلى إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية، أو هو إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية، أو هو إظهار الطاعة مع إبطان المعصية، كما أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر. وثالثها: قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يمنعون عن قبول دين محمد ﷺ»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾أي: دفعا للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا - فقال: لا، واللَّه لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا. فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورموا في أطواء بدر مهانين أذلاء صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «ثم إنه لكي يقوم للمسلمين شاهد حسي يشهد لهم بمفعول هذه الوصاة الكريمة التي وصاهم اللَّه بها، أفرادا وجماعة فقد أراهم اللَّه ما حل بالمشركين من البلاء، وما أصيبوا به من خذلان، وأن ذلك كان لما وقع بينهم من تنازع في الرأي واختلاف في الحساب والتقدير.

وقد صحب المشركين هذا التنازع وذلك الخلاف منذ خرجوا من مكة إلى أن التقوا بالمسلمين في بدر، فكانوا شيعا وأحزابا، لكل شيعة رأيها في الموقف، وتقديرها له، ولكل حزب حسابه وتقديره. فكثر فيهم القائلون، بألا حاجة لهم في

---

(١) غرائب القرآن (٣/ ٤٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٢).

القتال بعد أن سلمت العير، ومن قائل: لا بد من القتال ثأرا لكرامة قريش وهيبتها، كما يروى عن أبي جهل حين تنادى بعض المشركين بالرجوع عن الحرب وقد سلمت لهم العير، فقال: (والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا!).

ومن بين هذين الرأيين طارت شرارات الشقاق والخصام، وتناثرت كلمات التلاحي والتنابز، فتحركت في الصدور عداوات قديمة، وانبعثت من مرقدها فتن كانت نائمة، وهكذا دخل القوم المعركة وهم على تلك الحال، من تفرق الكلمة، وتمزق الوحدة في الرأي والمشاعر، وفي هذا يقول الله ﷻ محذرا المسلمين من أن يكون منهم مثل هذا الموقف في لقاء يكون بينهم وبين عدوهم: يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما خرج هؤلاء القوم دفاعا من[1] حق، أو انتصارا لمبدأ، وإنما الذي أخرجهم هو البطر، أي الكبر، والكفر بنعمة الله، ثم ما يحدث به الناس عنهم من أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، حين يرى الناس منهم ما جمعوا من مقاتلين، وما حملوا من سلاح وعتاد، ثم ما يقع لهم من هذا التدبير الذي دبروه، وهو الوقوف في وجه تلك الدعوة التي كانت شجى في حلوقهم، وقذى في أعينهم!

هذا ما أخرج القوم للقتال، وهذا ما خرجوا له، ومن أجل هذا كان الخلاف بينهم، والتفرق في وحدتهم، والتمزق في مشاعرهم. كل يأخذ الموقف الذي يشبع غروره وكبره، ويشهد الناس منه منزلته في قومه، وكلمته المسموعة في رهطه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ فهذا هو الشعور الذي غلب على رؤساء القوم وأصحاب الكلمة فيهم أما عامتهم فكانوا تبعا لأهواء سادتهم، لا يقوم في كيان أحدهم شعور بمبدأ يقاتل عليه، وينتصر له.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فذلك هو الجرم الذي اشترك فيه القوم جميعًا، رؤساء ومرءوسين. فكانوا جميعًا جيشا مقاتلا للدعوة الإسلامية، وحصرها في أضيق الحدود. أما البطر، ومراءاة الناس فكان لونا اصطبغ به بعضهم

(١) هكذا في الأصل. ولعل الصواب: عن.

دون بعض، وغاية عمل لها أناس دون آخرين. ولهذا اختلف النظم؛ لأن البطر والرياء شأنهم دائما فعبر عنهما القرآن بالمصدر الذي يفيد الثبوت والاستمرار، وأما الصد عن سبيل الله فهو أمر جد عليهم بعد ظهور النبي ﷺ فعبر عنه بالفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»[1].

وقال ابن عاشور: «وجِيء في نهيهم عن البطَر والرئَاء بطريقة النهي عن التشبّه بالمشركين: إدماجًا للتشنيع بالمشركين وأحوالِهم، وتَكريهًا للمسلمين تلكَ الأحوالَ؛ لأنّ الأحوال الذميمة تتّضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبْح المنهي عنه. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[2] وقد تقدّم آنفًا. فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبَدْر إذْ خرجوا بطَرًا ورئاء الناس؛ لأنّ حقّ كلّ مسلم أن يريد بكلّ قول وعمل وجه اللّه، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية»[3].

قال النيسابوري: «فيه زجر عن التصنع والافتخار، ويعلم منه أن المعصية مع الانكسار أقرب إلى الخلاص من الطاعة والاستكبار»[4].

قال ابن عطية: وفيه «التهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذ القدر فيهم فيمن مضى بالقتل»[5].

وقال السعدي: «﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه اللّه تعالى، وإعلاء دين اللّه، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط اللّه وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل اللّه القويم الموصل لجنات النعيم»[6].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٢٨-٦٣٠).
(٢) الأنفال: الآية (٢١).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٢-٣٣).
(٤) غرائب القرآن (٣/ ٤٠٥).
(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٧).
(٦) تفسير السعدي (٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

★ غريب الآية:

نكص: أي: رجع إلى الخلف. والمعنى: ارتد خاسئًا مدحورًا. والنكوص: الرجوع قهقرى هاربا، قال بعضهم: هذا أصله، إلا أنه قد اتسع فيه حتى استعمل في كل رجوع إن لم يكن قهقرى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان غر الكفار وخدعهم، وقال لهم: لا غالب لكم وأنا جار لكم... ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، عندما رأى الملائكة وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فكان حاصل أمره أنه غرهم، وخدعهم حتى أوردهم الهلاك، ثم تبرأ منهم. وهذه هي عادة الشيطان مع الإنسان كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾[1]. وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾[2]، إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾. وكقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3]، وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا

(١) الحشر: الآية (١٦).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٣) النساء: الآية (١٢٠).

دلاهـم بـغـرور ثـم أسـلـمـهـم إن الـخـبـيـث لـمـن والاه غـرار»[1].

قال محمد رشيد رضا: «أي: واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته، وقال لهم بما ألقاه في هواجسهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، لا أتباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب، فأنتم أعز نفرا وأكثر نفيرا وأعظم بأسا، وإني مع هذا -أو والحال أني- جار لكم قال البيضاوي في تفسيره: وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين، وأفضل الدينين. اهـ ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: فلما قرب كل من الفريقين المقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن يلقاه في المعركة، ويصطلي نار القتال معه نكص أي: رجع القهقرى وتولى إلى الوراء وهو جهة العقبين؛ أي: مؤخر الرجلين، وأخطأ من قال من المفسرين إن المراد بالترائي التلاقي، والمراد أنه كف عن تزيينه لهم وتغريره إياهم، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشيء، وتركها بحال من ينكص عنه ويوله دبره، ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم؛ تركه إياهم وشأنهم وهو ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم، وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد اللّه المسلمين بالملائكة»[2].

قال الرازي: «في كيفية هذا التزيين وجهان: الأول: أن الشيطان زين بوسوسته من غير أن يتحول في صورة الإنسان، وهو قول الحسن والأصم. والثاني: أنه ظهر في صورة الإنسان. قالوا: إن المشركين حين أرادوا المسير إلى بدر خافوا من بني بكر بن كنانة؛ لأنهم كانوا قتلوا منهم واحدا، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصور لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو من بني بكر بن كنانة وكان من أشرافهم في جند من الشياطين، ومعه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم مجيركم من بني كنانة، فلما رأى إبليس نزول الملائكة نكص على عقبيه. وقيل: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث:

---

(١) أضواء البيان (٢/ ١٠٣).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٣١).

أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون ودفع في صدر الحارث وانهزموا[١]»[٢].

قال أبو حيان: «ويمكن أن يكون صدور هذا القول على لسان بعض الغواة من الناس، قال لهم ذلك بإغواء إبليس له، ونسب ذلك إلى إبليس لأنه هو المتسبب في ذلك القول؛ فيكون القول والنكوص صادرين من إنسان حقيقة، والجمهور على أنّ إبليس تصور لهم»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «تفسير الآية بوسوسة الشيطان وإغوائه للمشركين وتغريره بهم قبل تقابل الصفوف وترائي الزحوف وبتخليه عنهم بعد ذلك رواه ابن جرير عن ابن عباس والحسن البصري، وخرجه علماء البيان من المفسرين كالزمخشري، والبيضاوي بنحو مما ذكرنا وهو لا يخلو من تكلف في الجمل الأخيرة، إلا أن يقال: إنه لما نكص على عقبيه تبرأ منهم وقال في نفسه لا لهم، ومثل هذا الخطاب لا يتوقف على سماع المخاطبين له حتى في خطاب الناس بعضهم لبعض، ومثله قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤] قال ابن عباس: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبرا وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، ومثله قال الحسن.

أقول: معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقة بوعد اللّه بنصرهم، كما تقدم شرحه في تفسير آية: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الخ فلما تراءت الفئتان وأوشك أن يتلاحما فر الشيطان بجنوده من بين المشركين لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين، وهما ضدان لا يجتمعان، ولو اجتمعا

---

(١) هذا الحديث رواه ابن إسحاق انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٦١٢) ومن طريقه الطبري في جامع البيان (١٠/ ١٩).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٨٠).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٠٠).

(٤) الحشر: الآية (١٦).

لقضى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما، فخوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. . . وعن ابن عباس قول آخر هو أن الشيطان تمثل في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج وقال للمشركين ما قصته الآية. . . والمختار عندنا في تفسير الآية هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس من طريق ابن جريج، وهو ما علمت آنفًا، وما رواه عن الحسن أيضًا وقدمه أهل التفاسير المشهورة، وهو أن الشيطان ألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبهم الخ وتقدم»[1].

قلت: ولا مانع أن يمثل اللَّه لهم الشيطان للتغرير بهم في الإقدام على حرب المسلمين وكذلك يوسوس لهم على ما ذكر رسول اللَّه ﷺ أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم. فالأولى جمع الأقوال وربط بعضها ببعض.

وقال عبد الكريم الخطيب: «وتزيين الشيطان للمشركين، وقوله لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ هو مما وسوس لهم به في صدورهم من ضلال، وما ألقى إلى سفهائهم من غرور، حتى لقد تمثلت تلك الوسوسة خواطر تتحرك في مشاعر القوم، وحتى لقد تخلقت هذه الخواطر فكانت قولا يجري على ألسنة القوم، ويتنادون به. وأنهم لن يغلبوا.

فموقف الشيطان وأعوانه في صفوف المشركين، هو مقابل لموقف الملائكة في صفوف المؤمنين. ولكن شتان بين موقف وموقف. فالشيطان يغري بالباطل، ويمد بالضلال، ويعين بالأكاذيب، أما الملائكة، فقد طلعت على المسلمين بريح القوة، وهبت بأنسام النصر، فملأت قلوب المسلمين أمنا وطمأنينة، فثبتت من أقدامهم، وقوت من عزائمهم، وأطمعتهم في عدوهم، فكان لهم الظفر بعدوهم. وفي هذا يقول اللَّه تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] وهكذا يقضي اللَّه ﷻ بين إبليس وبين أبناء آدم. يغريه بهم، ويسلطه عليهم ليخزيه آخر الأمر، وليريه من أبناء آدم ما يزيده

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٣١-٣٤).
(٢) ص: الآيات (٧٧-٨٥).

حسرة وحزنا، فيما يرى مما لله في أبناء آدم من أصفياء وأولياء، أنزلهم منازل رضوانه، وفتح لهم أبواب جناته، يلقون فيها ما أعد لهم من نعيم مقيم. وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ﴾[١].

فإذا كان لإبليس أولياء من بني آدم، يؤدي فيهم رسالته الضالة المفسدة، فإن في أبناء آدم من يقف له بالمرصاد، ويلبسه لباس الذلة والخزي! وعلى هذا! فإن الشيطان إذ يغوي الغاوين من أبناء آدم، وإذ يدفع بهم إلى مواطن الضلال إنما يؤدي رسالته التي تخيرها لنفسه فيهم، وهو يعلم أنه على عصيان لله فيما يأتيه مع أبناء آدم من إغواء وإضلال، ولكنه -مع هذا- لا يملك من نفسه أن يردها عن هذا الاتجاه الذي اتخذته بحكم سابق، وقضاء نافذ، فهو -والحال كذلك- يؤدي رسالة الشر في أبناء آدم، كما يؤدي الأنبياء رسالة الخير فيهم، وللشيطان أولياؤه وأتباعه، كما للأنبياء أولياؤهم وأتباعهم»[٢].

* * *

(١) الحجر: الآية (٤٢).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٢-٦٣٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

★ غريب الآية:

غرّ: الغرور: الإيقاع في المضرة بإيهام المنفعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم- على قتال المشركين مع كثرتهم. ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي: أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد، التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها. يقولونه احتقارا لهم واستخفافا بعقولهم، وهم -والله- الأخفاء عقولا، والضعفاء أحلاما، فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة، التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على اللّه، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بإذن اللّه تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللّه عليه، وعلم أنه على الحق، وأن اللّه تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه، مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا تغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه»(١).

وقال محمد رشيد رضا: «قوله تعالى في المنافقين وضعفاء الإيمان ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وإنما قالوا هذا لمشاركتهم للمشركين المجاهرين بالكفر في الجهل بقوة الإيمان باللّه، وبما يستلزمه من القوى المعنوية، فلم يجدوا تعليلا لإقدام المؤمنين القليلين العادمين للقوى المادية على

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٧٦-١٧٧).

قتال المشركين المعتزين بكثرتهم وقواهم إلا الغرور بدينهم، وما كانوا مغرورين بأنفسهم؛ بل واثقين بوعد ربهم، متوكلين عليه في أمرهم، وقد بين اللَّه ذلك في الرد على أولئك المنافقين بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

قال القرطبي: «قيل: ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾: الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: الشاكون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية؛ قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفين: غر هؤلاء دينهم. وقيل هما واحد؛ وهو أولى، ألا ترى إلى قوله ﷿: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[2] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[3] وهما لواحد»[4].

وقد اختلف العلماء في تعيين هؤلاء المقصودين بهذه الآية.

قال ابن عطية: «قال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم وقلة عددهم، قالوا مشيرين إلى المسلمين غر هؤلاء دينهم؛ أي: اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به»[5].

وقيل اليهود ومنافقو المدينة، قال الشوكاني: «ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم في قلة من العدد وضعف من العدد، فأجاب اللَّه عليهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول»[6].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وقد رد اللَّه ﷻ على هؤلاء المنافقين والذين في

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٦٠).
(٢) البقرة: الآية (٣).
(٣) البقرة: الآية (٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٧).
(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٩).
(٦) فتح القدير (٢/ ٤٤٣).

قلوبهم مرض، بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم، ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا. فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهؤلاء المسلمون -وإن كانوا قلة- قد كان لهم من التوكل على الله، والثقة فيه ما يجعل من قلتهم كثرة، ومن ضعفهم قوة. فهم أعزاء أقوياء، بعزة العزيز الحكيم وقوته»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يكل إليه أمره مؤمنا إيمان إذعان واطمئنان، بأنه هو حسبه وكافيه وناصره ومعينه، وأنه قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه ولا يمتنع عليه شيء أراده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: فهو تعالى بمقتضى عزته وحكمته عند إيمانهم به وتوكلهم عليه: يكفيهم ما أهمهم، وينصرهم على أعدائهم، وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم؛ لأنه عزيز غالب على أمره، حكيم يضع كل أمر في موضعه، على ما جرى عليه النظام والتقدير في سننه، ومنه نصر الحق على الباطل؛ بل كثيرًا ما تدخل عنايته بالمتوكلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات كما حصل في غزوة بدر، وآيات الله لا نهاية لها»[2].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[3] لأنّها من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين، وللامتنان عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة التي قبلها: أنها كالعلّة لخيبة ظنون المشركين ونصرائهم، أي أنّ الله خيّب ظنونهم لأنّ المسلمين توكّلوا عليه وهو عزيز لا يغلب، فمن تمسك بالاعتماد عليه نصره، وهو حكيم يكوّن أسباب النصر من حيث يجهلها البشر»[4].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٥).
(٢) تفسير المنار (١٠/ ٣٥).
(٣) الأنفال: الآية (٤٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

⋆ غريب الآية:

أدبارهم: الأدبار: جمع دبر، وهو ما دبر من الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[1] وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لمّا وُفِّيَ وصفُ حال المشركين حقَّه، وفصّلت أحوال هزيمتهم ببدر، وكيف أمكن اللَّه منهم المسلمين، على ضُعف هؤلاء وقوة أولئك، بما شاهده كلّ حاضر حتّى ليوقن السامع أنّ ما نال المشركين يومئذ إنّما هو خذلان من اللَّه إيّاهم، وإيذان بأنّهم لاقون هلاكهم ما داموا مناوئين لله ورسوله، انتُقِل إلى وصف ما لقيه من العذاب مَنْ قُتل منهم يوم بدر، ممّا هو مغيب عن الناس، ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون، والمراد بالذين كفروا هنا الذين قتلوا يوم بدر، وتكون هذه الآية من تمام الخبر عن قوم بدر.

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين حملًا للموصول على معنى العموم، فتكون الآية اعتراضًا مستطردًا في خلال القصّة بمناسبة وَصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم، الذي عجّل لهم فيه عذاب الموت»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ إشارة إلى ما حل بالمشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس، من بلاء ونكال في يوم بدر الذي خرجوا له، وهم على تلك الحال التي كانت تستولي عليهم من الزهو

(١) القمر: الآية (٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٩-٤٠).

والخيلاء. فهاهم أولاء يتلقون الصفعات على وجوههم، والضربات على أدبارهم، كما يفعل بعبيدهم وإمائهم! فأين العزة والمنفعة؟ وأين السطو والجاه؟ لقد تعروا من هذا كله، ولبسوا ثوب الخزي والمهانة، ونزلوا إلى أسوأ مما كان عليه الأرقاء. من عبيد وإماء! وإذا كانت تلك الأيدي التي تناولتهم بالصفع على وجوههم، وتلك الأرجل التي أخذتهم بالركل على أدبارهم، أيديا خفية لا ترى؛ لأنها يد القوى السماوية التي سلطها اللَّه عليهم يومئذ -فإن هناك أيديا شوهت هذه الوجوه بضربات السيوف، وركلت هذه الأدبار بأزجة الرماح، وهي أيد رآها الناس رأي العين، وشهدوا آثارها وأفعالها في هؤلاء السادة المتكبرين. إنها أيدي أولئك المسلمين الذين استرهبهم المشركون بزهوهم وخيلائهم، وغمزهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض بقوارص الكَلِم، وسيء القول.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هو بيان للمصير الذي صار إليه أولئك المشركون الذين أذل اللَّه كبرياءهم في هذا اليوم، يوم بدر، وهو مصير مشئوم، يلقى بهم في سواء الجحيم، حطبا لجهنم، ووقودا لسعيرها»[1].

قال محمد رشيد رضا: «هذا بيان لأول ما يعرض لهم من العذاب في أول مرحلة من مراحل عالم الغيب، بعد بيان ما يكون من عذابهم وخذلانهم في الأرض، وضرب له المثل بآل فرعون، وما كان من عذابهم في الدنيا، وقد صدق خبر اللَّه الذي أوحاه إلى رسوله في سوء عاقبة المشركين في الدنيا، وسيصدق خبره عنهم في الأخرى، فلله الآخرة والأولى»[2].

قال الألوسي: «والمراد بعذاب الحريق، عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمر مما هم فيه»[3].

واختلفوا في المراد بالكفار المشار إليهم في الآية على قولين: فقيل أراد من بقي ولم يقتل يوم بدر، وقيل هي فيمن قتل يوم بدر، والصحيح ما ذكره ابن كثير بقوله: «وهذا السياق -وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٥-٦٣٦).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ١٦٠).

(٣) روح المعاني (١٠/ ١٧).

لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[1] أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرا. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله»[2].

قال ابن القيم: «وهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة»[3].

قال صديق حسن خان: «وهذا نص في أن ملائكة الموت عند قبضها لروح الكافر تضربه بما ذكر، وتقول له ما ذكر، وإن كنا محجوبين عن رؤية ذلك وسماعه»[4].

قال الألوسي: «والتعبير بـ ﴿ذُوقُوا۟﴾ قيل: للتهكم لأن الذوق يكون في المطعومات المستلذة غالبا، وفيه نكتة أخرى وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة كأنموذج الذائق، وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وإن أشعر الذوق بقلته»[5].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٩٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٧).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٧).
(٤) فتح البيان (٥/ ١٩٣).
(٥) روح المعاني (١٠/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أي: بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار، واجترحتم من معاصي اللَّه أيام حياتكم، فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذاب الحريق، وذلك لكم بأن اللَّه ليس بظلام للعبيد، لا يعاقب أحدا من خلقه إلا بجرم اجترمه، ولا يعذبه إلا بمعصيته إياه؛ لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ "أي: ذلك العذاب الذي ذقتم وتذوقون بسبب ما كسبت أيديكم في الدنيا فقدمتموه إلى الآخرة من كفر وظلم، وهو يشمل القول والعمل، سواء كان من عمل الأيدي أو الأرجل أو الحواس أو تدبير العقل، كل ذلك ينسب إلى عمل الأيدي توسعا وتجوزا، وأصله أن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: وبأن اللَّه تعالى ليس بظلام للعبيد فيكون ذلك العذاب ظلما منه على تقدير عدم وقوع سببه من كسب أيديكم، ولكن سبب ذلك منكم ثابت قطعا، كما أن وقوع الظلم منه لعبيده منتف قطعا، فتعين أن تكونوا أنتم الظالمين لأنفسكم قطعا، فلوموها فلا لوم لكم إلا عليها»[٣].

قال ابن عطية: هذا الكلام «يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا تقريعا من اللَّه ﷻ للكافرين، حيهم وميتهم»[٤].

---

(١) الأنفال: الآية (٥١).

(٢) جامع البيان (١٠/ ٢٣).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٣٩).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٤٠).

قال القاسمي: «فإن قيل: ما سر التعبير بظلام بالمبالغة، مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته، ونفي الكثرة لا ينفي أصله، بل ربما يشعر بوجوده، وبرجوع النفي للقيد؟ وأجيب بأجوبة:

منها: أنه نفي لأصل الظلم وكثرته، باعتبار آحاد من ظلم، كأنه قيل: ظالم لفلان ولفلان وهلم جرا، فلما جمع هؤلاء عدل إلى ظلام لذلك، أي لكثرة الكمية فيه.

ومنها: أنه إذا انتفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل؛ لأن من يظلم، يظلم للانتفاع بالظلم، فإذا ترك كثيره مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا . . .

ومنها: أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب، فلو كان تعالى ظالما كان ظلاما، فنفى اللازم لنفي الملزوم.

ومنها: أن نفي (الظلام) لنفي الظالم، ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله، فجعل نفي المبالغة كناية عن نفي أصله، انتقالا من اللازم إلى الملزوم.

ومنها: أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما، بليغ الظلم متفاقمه. فالمراد تنزيهه تعالى، وهو جدير بالمبالغة.

وأيضًا: لو عذب تعالى عباده بدون استحقاق وسبب، لكان ظلما عظيما، لصدوره عن العدل الرحيم. كذا في العناية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تنزيهه تبارك وتعالى عن الظلم

* عن أبي ذر، عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال: **«يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب**

(١) محاسن التأويل (٨/ ٧٦).

جميعًا. فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد اللَّه. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «وللناس في تفسير هذا الظلم ثلاثة أقوال، بحسب أصولهم وقواعدهم: أحدها: أن الظلم الذي حرمه وتنزه عن فعله وإرادته هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض، وشبهوه في الأفعال؛ ما يحسن منهما وما لا يحسن بعباده، فضربوا له من قبل أنفسهم الأمثال، وصاروا بذلك مشبهة ممثلة في الأفعال، فامتنعوا من إثبات المثل الأعلى الذي أثبته لنفسه، ثم ضربوا له الأمثال، ومثلوه في أفعاله بخلقه، كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من إثبات المثل الأعلى الذي أثبته لنفسه، ثم ضربوا له الأمثال، ومثلوه في صفاته بالجمادات الناقصة، بل بالمعدومات.

وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، ونزهوه فيها عن الشبه والمثال، فأثبتوا له المثل الأعلى، ولم يضربوا له الأمثال، فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته، وأحقهم بالإيمان به وبولايته ومحبته، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء. ثم التزم أصحاب هذا التفسير عنه من اللوازم الباطلة ما لا قبل لهم به! قالوا عن هذا التفسير الباطل: إنه تعالى إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مقدوره -تعالى- من وجوه الإعانة كان ظالما له! والتزموا لذلك أنه لا يقدر أن

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

يهدي ضالا ، كما قالوا : إنه لا يقدر أن يضل مهتديا ، وقالوا عنه أيضًا : إنه إذا أمر اثنين بأمر واحد ، وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور به ، كان ظالما ! وقالوا عنه أيضًا : إنه إذا اشترك اثنان في ذنب يوجب العقاب ، فعاقب به أحدهما ، وعفى عن الآخر كان ظالما ، . . إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة التي جعلوا لأجلها ترك تسويته بين عباده في فضله وإحسانه ظلما !

فعارضهم أصحاب التفسير الثاني ، وقالوا : الظلم المنزه عنه في الأمور الممتنعة لذاتها ، فلا يجوز أن يكون مقدورا ، ولا أنه تعالى تركه بمشيئته واختياره ، وإنما هو من باب الجمع بين الضدين ، وجعل الجسم الواحد في مكانين ، وقلب القديم محدثا ، والمحدث قديما ونحو ذلك ، وإلا فكل ما يقدره الذهن وكان وجوده ممكنا ، والرب قادر عليه ، فليس بظلم ، سواء فعله أو لم يفعله ، وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم ، وفسروا الحديث به وأسندوا ذلك ، وقووه بآيات وآثار زعموا أنها تدل عليه ، كقوله : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[1] يعني : لم تتصرف في غير ملكك ، بل إن عذبت عذبت من تملك . . . والتزم هؤلاء عن هذا القول لوازم باطلة ، كقولهم : إن اللَّه تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه وأهل طاعته ، ويخلدهم في العذاب الأليم ، ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ، ويخصهم بجنته وكرامته ، وكلاهما عدل وجائز عليه ، وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره ، فصار ممتنعا لإخباره أنه لا يفعله ؛ لا لمنافاته حكمته ، ولا فرق بين الأمرين بالنسبة إليه ، ولكن أراد هذا وأخبر به ، وأراد الآخر وأخبر به ، فوجب هذا لإرادته وخبره ، وامتنع ضده لعدم إرادته واختياره بأن لا يكون . والتزموا له أيضًا أنه يجوز أن يعذب الأطفال الذين لا ذنب لهم أصلا ، ويخلدهم في الجحيم ، وربما قالوا بوقوع ذلك . فأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير الثالث ، وقالوا : الصواب الذي دلت عليه النصوص ، أن الظلم الذي حرمه اللَّه على نفسه ، وتنزه عنه فعلا وإرادة ؛ هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها ؛ أنه لا يحمل المرء سيئات غيره ، ولا يعذب بما لم تكسب يداه ، ولم يكن سعى فيه ، ولا ينقص من حسناته ، ولا يجازي بها أو ببعضها إذا قارنها أو طرأ عليها

---

(١) المائدة : الآية (١١٨) .

ما يقتضي إبطالها، أو اقتصاص المظلومين منها. وهذا الظلم الذي نفى الله تعالى خوفه عن العبد بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[1] قال السلف والمفسرون: لا يخاف أن يحمل عليه من سيئات غيره، ولا ينقص من حسناته ما يتحمل. فهذا هو المعقول من الظلم ومن عدم خوفه. وأما الجمع بين النقيضين، وقلب القديم محدثا، والمحدث قديما؛ فمما يتنزه كلام آحاد العقلاء عن تسميته ظلما، وعن نفي خوفه عن العبد، فكيف بكلام رب العالمين؟»[2].

وقال: «وهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له، وثناء أثنى به على نفسه، والعدم المحض لا يمدح به أحد، ولا يثني به عليه، ولا يكون كمالا له، بل هو أنقص النقص، وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات»[3].

وانظر بقية فوائد الحديث في سورة يونس الآية (٤٤).

* * *

---

(١) «طه: الآية (١١٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٤٤-٥٤٧).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٠-١٠٢١).

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

★ غريب الآية:

دأب: الدَّأْبُ: العادة المستمرة دائمًا على حالة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا؛ أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات اللَّه. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب»[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: «أي: أن ما فعله اللَّه بهؤلاء المشركين الذين علوا في الأرض، وبغوا، قد فعله -سبحانه- بأمثالهم ممن علوا وبغوا.. ومن هؤلاء آل فرعون، ومن كان قبلهم من الطغاة والظالمين قد أخذهم اللَّه بذنوبهم، ولم يعصمهم من عقاب اللَّه ما كانوا عليه من جبروت وقوة، فإن قوة اللَّه لا تدفعها قوة، وبأسه لا يرده بأس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هذا، ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هو عائد إلى المشركين، لا إلى آل فرعون.. أي أن شأن المشركين كشأن آل فرعون.. قد كفروا مثل كفرهم.. والرأي عندنا أن هذا الوصف عائد على آل فرعون، حيث يبرز من هذا الوصف حال المشبه به -وهم آل فرعون- على صورة كاملة، يستغنى بها عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٨).

وصف المشركين بأية صفة بعد أن ألحقوا بآل فرعون في كل ما لهم من صفات، كان الكفر أظهر ألوانها»[١].

قال البقاعي: «وفي ذلك أي في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حث على التمرن على عدم الاكتراث بشيء يكون للنفس فيه أدنى حظ؛ ليصير ذلك خلقا، كما هو دأب رسول اللّه ﷺ، لا يضيف شيئًا من محاسنه إلا إلى خالقه، إلا إن كان مأمورا فيه بالتشريع، بل يقول: قتلهم اللّه، صرفهم اللّه، نصرنا اللّه، كفى الله»[٢].

قال الرازي: وفيها «تنبيه على أن لهم عذابا مدخرا سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن اللّه يمهل الظالم ولا يهمله

* عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال: ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٤]»[٥].

★ فوائد الحديث:

انظر فوائد الحديث: سورة هود الآية (١٠٢).

* * *

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٧).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٨٦).

(٤) هود: الآية (١٠٢).

(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه؛ وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[2] وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال الشوكاني: «والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى العقاب الذي أنزله اللَّه بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب اللَّه. والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة اللَّه في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم اللَّه وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم، ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين، فإن اللَّه فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا، ومنَّ عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر، فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه، والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ داخلة معها في التعليل؛ أي: ذلك بسبب أن اللَّه لم يك مغيرًا إلخ، وبسبب أن اللَّه سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه»[5].

---

(١) الرعد: الآية (١١).
(٢) الشورى: الآية (٣٠).
(٣) النساء: الآية (٧٩).
(٤) أضواء البيان (٢/ ١٠٤).
(٥) فتح القدير (٢/ ٤٤٦).

وقال محمد رشيد رضا: «هذا بيان لسنة عظيمة من أعظم سنن اللّٰه تعالى في نظام الاجتماع البشري، يُعلم منها بطلان تلك الشبهات التي كانت غالبة على عقول الناس من جميع الأمم، ولا يزال جماهير الناس يخدعون بها، وهي ما يتعلق بنوط سعادة الأمم وقوتها وغلبها وسلطانها بسعة الثروة، وكثرة حصى الأمة، كما قال الشاعر العربي:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

وكان من غرورهم بها أن كانوا يظنون أن من أوتيها لا تسلب منه، وأنه كما فضله اللّٰه على غيره بابتدائها، كذلك يفضله بدوامها ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1] وقد بينا غرور البشر بهذه الظواهر في مواضع من هذا التفسير. ثم ظهر أقوام آخرون يرون أن اللّٰه تعالى يحابي بعض الأمم والشعوب على بعض بنسبها، وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوة أو ما دونها، فيؤتيهم الملك والسيادة والسعادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إلى مللهم ولا سيما إذا كانوا من آبائهم، كما كان شأن بني إسرائيل في غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب بنسبهم، وكما فعل الذين اتبعوا سننهم من النصارى ثم المسلمين بالغرور في الدين، ودعوة اتباع النبيين، وبكرامات الأولياء والصالحين، وإن كانوا لهم من أشد المخالفين. فبين اللّٰه تعالى لكل قوم خطأهم بهذه الآية وبما سبق في معناها، وهو أعم منها في سورة الرعد من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2] وأثبت لهم أن نعم اللّٰه تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعا بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غيّر اللّٰه عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم، فصار الغني فقيرا، والعزيز ذليلا، والقوي ضعيفا، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم، وهو كذلك في الأفراد، إلا أنه غير مطرد فيهم لقصر أعمار كثير منهم دون تأثير

---

(١) سبأ: الآية (٣٥).

(٢) الرعد: الآية (١١).

التغيير حتى يصل إلى غايته»[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: «هو دعوة عامة للناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم؛ أن يوجهوا وجوههم إلى اللَّه، وأن يستقيموا على طريق الحق والخير، فإنهم إن فعلوا هذا أمِنُوا تلك النوازل التي تنزل بأعداء اللَّه، وتدمر ما بنوا، وتخرب ما عمروا. . فاللَّه سبحانه لا يسلُب عباده نعمة من نعمه التي فضل[٢] بها عليهم، إلا إذا أحدثوا من الأمور ما يعرضهم لانتقام اللَّه منهم، بسلب ما منحهم من فضله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وتغيير ما بأنفسهم هو تحولهم من حال سيئة إلى حال أكثر سوءا. . ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما تنطق به الألسنة، من خير أو شر، ويعلم ما تنطوي عليه القلوب، من إيمان أو كفر.

وهذه الآية إنما تعني أولا وبالذات أهل الزيغ والضلال، وتحذرهم من أن يقيموا على ما هم عليه من زيغ وضلال، فإن ذلك مؤذن بأن يبدل اللَّه نعمهم نقما، وأن يغير حالهم من سوء إلى أسوأ»[٣].

قال ابن عطية: «معنى هذه الآية الإخبار بأن اللَّه ﷻ إذا أنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها، حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم، غير اللَّه نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة اللَّه على قريش بمحمد ﷺ فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير اللَّه تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته»[٤].

هذا وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بالنعمة هنا محمد ﷺ، والمراد بالقوم قريشا، والظاهر يقول أبو حيان: «العموم في كل من أنعم اللَّه عليه من مسلم وكافر، وبر وفاجر، وأنه تعالى متى أنعم على أحد فلم يشكر بدله عنها بالنقمة»[٥].

وقال محمد رشيد رضا -نقلا عن شيخه-: «أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٤١-٤٢).

(٢) هكذا في الأصل، ولعل الصواب تفضل.

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٨).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٤١).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٥٠٢).

أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها اللَّه على أساس الحكمة البالغة. إن اللَّه لا يغير ما بقوم من عزة، وسلطان، ورفاهة، وخفض عيش، وأمن، وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال اللَّه في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط اللَّه فهلكوا وحل بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختيار الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم اللَّه بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل اللَّه بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال.

علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان، هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح؟ هل غير اللَّه ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه وبدل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون؛ بل صدقنا اللَّه وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر، وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئًا، فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية. نبذنا أوامر اللَّه ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة والإنابة إليه»[1].

إلى أن قال: «مع هذا كله نقول: إن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة كما

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٤٩-٥٠).

جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلفتوهم إلى عهد اللَّه الذي لا يخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل، ولرأيت نورا يبهر الأبصار، وأعمالا تحار فيها الأفكار. وإن الحركة التي تحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن اللَّه تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريبا، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب اللَّه عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا اللَّه عنهم، واللَّه ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الكهف: الآية (١٧).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٥٢).

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «غيَّر هؤلاء المشركون بالله، المقتولون ببدر، نعمة ربهم التي أنعم بها عليهم، بابتعاثه محمدا منهم، وبين أظهرهم، داعيا لهم إلى الهدى، بتكذيبهم إياه، وحربهم له، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: كسنة آل فرعون وعادتهم، وفعلهم بموسى نبي الله في تكذيبهم إياه، وتصديهم لحربه، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها وصنيعهم، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بعضا بالرجفة، وبعضا بالخسف، وبعضا بالريح، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ في اليم، ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ يقول: كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله من تكذيبهم رسل الله، والجحود لآياته، فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر، إذ غيروا نعمة الله عندهم بالقتل بالسيف، وأذللنا بعضهم بالإسار والسباء»[1].

قال الرازي: «إنه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ذكروا فيه وجوها كثيرة: الأول: أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول؛ لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل. والثاني: أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت، وبالثاني ما ينزل بهم في القبر في الآخرة. الثالث: أن الكلام الأول هو قوله: ﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والكلام الثاني هو قوله: ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فالأول: إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية، والثاني: إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ، والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق»[2].

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٤-٢٥).
(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٨٧-١٨٨).

قال القاسمي: «وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار في الآيتين، بتغاير التشبيهين فيهما، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد. فمعنى الأول: حال هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر، فأخذهم وآتاهم العذاب، ومعنى الثاني: حال هؤلاء كحال آل فرعون في تغييرهم النعم، وتغيير اللَّه حالهم بسبب ذلك التغيير، وهو أنه أغرقهم. وقيل: إن النظم يأباه؛ لأن وجه التشبيه في الأول كفرهم المترتب عليه العقاب، فينبغي أن يكون وجهه في الثاني قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ لأنه مثله؛ إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد التشبيه، صالحة لأن تكون وجه الشبه، فتحمل عليه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[1]. وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ فكالتعليل لحلول النكال، معترض بين التشبيهين، غير مختص بقوم، فجعله وجها للتشبيه بعيد عن الفصاحة. كذا في (العناية»)[2].

وقد ذهب بعضهم إلى تخصيص الآية بقتلى قريش وغرقى القبط، ولا معنى لذلك؛ بل الذي يظهر عموم المشبه والمشبه به[3].

قال الرازي: «وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثرا عظيما في حصول الهلاك والبوار، ثم ختم تعالى الكلام بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ والمراد منه أنهم كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاش، وأن اللَّه تعالى إنما هلكهم بسبب ظلمهم، وأقول في هذا المقام: اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم، فقد عظمت فتنتهم، وكثر شرهم، ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت، فادفع يا قهار يا جبار يا منتقم»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الكلام في هذا كالكلام في نظيره من حيث إنه شاهد حق، واقع فيما تقدم من سنة اللَّه تعالى في الأمم والدول، وإنما يخالفه في موضوع دأب القوم، وفي الجزاء عليه المشار إليهما فيما اختلف به التعبير من الآيتين، فالآية السابقة في بيان كفرهم بآيات اللَّه وهو جحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية اللَّه ووجوب إفراده

---

(١) آل عمران: الآية (٥٩).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٧٩).

(٣) أفاده أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٥٠٣).

(٤) التفسير الكبير (١٥/ ١٨٨).

بالعبادة الخ وفي تعذيب اللَّه إياهم في الآخرة، فتكرار اسم الجلالة فيها يدل على ما ذكرنا؛ لأنه متعلق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته، وفي الجزاء الدائم على الكفر به الذي يبتدئ بالموت وينتهي بدخول النار. وهذه الآية في تكذيبهم بآيات ربهم من حيث إنه هو المربي لهم بنعمه، ولهذا ذكر فيها اسم الرب مضافا إليهم بدل اسم الجلالة هناك، فيدخل في ذلك تكذيب الرسل، ومعاندتهم، وإيذاؤهم، وكفر النعم المتعلقة ببعثتهم والسابقة عليها، وفي الجزاء على ذلك بعذاب الدنيا.

فقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ كقوله في آية العنكبوت ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وحاصل المعنى أن ما يحفظه التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعادتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض، ومن عقاب اللَّه إياها هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم ولا يظلم تعالى أحدا بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة، وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم، هذا هو المطرد في كل الأمم في جميع الأزمنة. وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوي فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل، وأنذروهم العذاب إذا كفروا بها ففعلوا»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١٠/ ٥٢-٥٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمعاني: «هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[(١)] سماهم اللَّه تعالى دوابا وأنعاما؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم، وألبابهم وأسماعهم وأبصارهم»[(٢)].

وقال الألوسي: «هذا شروع في بيان أحوال سائر الكفرة، بعد بيان أحوال المهلكين منهم، ولم يقل سبحانه شر الناس إيماء إلى أنهم بمعزل عن مجانستهم؛ بل هم من جنس الدواب، وأشر أفراده، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه. وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع، لا يلويهم صارف، ولا يثنيهم عاطف، جيء به على وجه الاعتراض»[(٣)].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن شر ما يدب على وجه الأرض عند اللَّه أي في حكمه العدل على الخلق هم الكفار، في الذين جمعوا مع أصل الكفر الإصرار عليه والرسوخ فيه، بحيث لا يرجى إيمانهم جملتهم أو إيمان جمهورهم؛ لأنهم بين رؤساء حاسدين للرسول ﷺ، معاندين له، جاحدين بآيات اللَّه المؤيدة لرسالته على علم كما قال تعالى فيهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآية[(٤)]، وبين مقلدين جامدين على التقليد، لا ينظرون في الدلائل والآيات، ولا يبحثون في الحجج والبينات، حتى حملهم

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٢٧٣).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٢١).

(٤) البقرة: الآية (١٤٦).

ذلك على نقض العهود، ونكث الأيمان بحيث لا حيلة في الحياة معهم، أو في جوارهم حياة سلم وأمان كما ثبت بالتجربة.

عبر عنهم بالدواب، وهو اللفظ الذي غلب استعماله في البهائم ذوات الأربع، أو فيما يركب منها؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط؛ بل هم أضل من عجماوات الدواب؛ لأن فيها منافع للناس، وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، فإنهم لشدة تعصبهم لجنسهم قد صاروا أعداء لسائر البشر، كما قال في وصف أمثالهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] وكما قال في الآية (٢٢) من هذه السورة ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]..

وقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾فعبر عنهم بفعل الكفر دون الوصف (الكافرون) للإشارة إلى أنهم كانوا مؤمنين فعرض لهم الكفر، وهذا ظاهر في جملة اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ كما كفروا بمن قبله وهم في عرف القرآن متكافلون متشابهون، آخرهم في ذلك كأولهم، وهم أظهر في يهود المدينة الذين كانوا في عصر الرسالة المحمدية، فإنهم كانوا يعلمون أن الله سيبعث النبي الكامل الذي بشر به موسى في التوراة كما تقدم مفصلا في تفسير سورة الأعراف ومجملا في سورة البقرة وغيرها. وكانوا يعلمون أنه يبعث من العرب؛ لأن من نصوص التوراة الموجودة إلى الآن أنه تعالى يبعث لهم نبيا مثل موسى بين بني إخوتهم أي بني إسماعيل، وكانوا يطمعون في أن يكون هذا النبي ﷺ منهم، ويرون أنه يكفي في صحة خبر التوراة ظهوره بين العرب، وإن لم يكن منهم؛ لأن النبوة بزعمهم محتكرة محتجنة لبني إسرائيل، على ما اعتادوا من التحريف والتأويل.

وقال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ لا تقتضي الثبات على الكفر دائما، فعطف عليها الإخبار بأن كفرهم دائم لا يرجعون عنه في جملتهم، حتى ييأس الرسول والمؤمنون مما كانوا يرجون من إيمانهم، وهذا لا ينافي وقوع الإيمان من بعضهم وقد وقع، وهذا الخبر من أنباء الغيب، ثم أيأسهم من

---

(١) الفرقان: الآية (٤٤).

(٢) الأنفال: الآية (٢٢).

ثباتهم على السلم الواجب عليهم بمقتضى العهد بعد إيئاسهم من اهتدائهم إلى الإسلام فقال: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هذه بدل من الأولى أو عطف بيان لها، وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليها عهدا أقرهم فيه على دينهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، فنقض كل منهم عهده، فقوله تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ قيل: معناه أخذت العهد منهم..

وإنما قال: ﴿يَنقُضُونَ﴾ بفعل الاستقبال مع أنهم كانوا قد نقضوه قبل نزول الآية لإفادة استمرارهم على ذلك، وأنه لم يكن هفوة رجعوا عنها وندموا عليها كما سيأتي عن بعضهم؛ بل إنهم ينقضونه ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ وإن تكرر، وهو يصدق على عهود طوائف اليهود الذين كانوا حول المدينة في جملتهم، وهم ثلاث طوائف»[١].

وفي الآية من الفوائد تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير، والكلب العقور على الكافرين، الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ[٢].

وتقرير هذا التفضيل من وجوه: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أحدها أن البهيمة لا سبيل لها إلى كمال وصلاح أكثر مما تصنعه، والإنسان له سبيل لذلك، فإذا لم يبلغ صلاحه وكماله الذي خلق له، بان نقصه وخسرانه من هذا الوجه. وثانيها: أن البهائم لها أهواء وشهوات: بحسب إحساسها وشعورها، ولم تؤت تمييزا وفرقانا بين ما ينفعها ويضرها، والإنسان قد أوتي ذلك. وهذا الذي يقال: الملائكة لهم عقول بلا شهوات، والبهائم لها شهوات بلا عقول، والإنسان له شهوات وعقل، فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة، أو مثل الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه، وثالثها أن هؤلاء لهم العقاب والنكال، والخزي على ما يأتونه من الأعمال الخبيثة، فهذا يقتل، وهذا يعاقب، وهذا يقطع، وهذا يعذب ويحبس، هذا في العقوبات المشروعة، وأما العقوبات المقدرة فقوم أغرقوا، وقوم أهلكوا بأنواع العذاب، وقوم ابتلوا بالملوك الجائرة: تحريقا، وتغريقا، وتمثيلا، وخنقا، وعمى. والبهائم في أمان من ذلك. ورابعها: أن لفسقة

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٥٤-٥٦).

(٢) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ٥٤١).

الجن والإنس في الآخرة من الأهوال والنار والعذاب والأغلال وغير ذلك مما أمنت منه البهائم، ما بين فضل البهائم على هؤلاء إذا أضيف إلى حال هؤلاء»[(١)].

قال القاسمي: «دلت الآية على جواز تحقير العصاة والاستخفاف بهم، حيث سماهم تعالى دواب، وأخبر أنهم شر الدواب»[(٢)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن شر الدواب عند اللّه الذين كفروا، الذين عاهدت منهم يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربا لك كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ثم ينقضون عهودهم ومواثيقهم، كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون اللّه، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم»[(٣)].

قال ابن عاشور: «وعن ابن عباس وقتادة: أن المراد بهم قريظة، فإنهم عاهدوا النبي ﷺ أن لا يحاربوه، ولا يعينوا عليه عدوه، ثم نقضوا عهدهم، فأمدوا المشركين بالسلاح والعدة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب، وأمدوهم بالسلاح والأدراع. والأظهر عندي أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين، وأخصها المنافقون، فقد كانوا يعاهدون النبي ﷺ، ثم ينقضون عهدهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾[(٤)] الآية، وقد نقض عبد اللّه بن أبي ومن معه عهد النصرة في أحد، فانخزل بمن معه وكانوا ثلث الجيش، وقد ذكر في أول سورة براءة عهد فرق من المشركين. وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأن الكفر غلب في اصطلاح القرآن على المشركين»[(٥)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «﴿عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يدعهم إلى أن يعاهدهم بما عاهدوه عليه؛ بل إنهم هم الذين جاءوا إلى النبي يعرضون عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥١-٣٥٢).
(٢) محاسن التأويل (٨/ ٨٠).
(٣) جامع البيان (١٠/ ٢٥).
(٤) التوبة: الآية (١٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٠/ ٤٨).

عهدهم بالأمان والموادعة بينهم وبينه، وأن النبي صلوات اللّه وسلامه عليه أجابهم إلى ذلك، وقَبِل منهم العهد الذي أعطوه..

وفي نقضهم لهذا العهد الذي جاءوا هم به من تلقاء أنفسهم، وأعطوه عن رضى واختيار في نقضهم لهذا العهد، الذي هو في الواقع عهدهم، خيانة لأنفسهم، فوق أنه خيانة للعهد من حيث هو عهد، يجب الوفاء به على أي حال. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ بعد وصفهم بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ في هذا إشارة إلى أنهم متحللون من كل قيد يمسك بهم على خلق فاضل، ويقيمهم على مبدأ كريم. إنهم لا يتقون أي محظور تحظره الشرائع السماوية، أو تجرمه القوانين الوضعية والمواضعات الخلقية.

والمراد بهؤلاء الذين ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه الرسول، هم جماعات اليهود الذين كانوا بالمدينة، يثيرون الفتن، ويذيعون المنكر، ويحيكون الدسائس، وينتهزون الفرصة المواتية لينالوا من النبي والمؤمنين ما يريدون من شر. ثم إن هذا الحكم هو حكم عام، يقيمه المسلمون دائما فيما بينهم وبين الكافرين»[(١)].

قال القاسمي: «قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يَنقُضُونَ﴾ أي: يستمرون على النقض، والحال أنهم لا يتقون العار فيه؛ لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقي نقض العهد، حتى يسكن الناس إلى قوله، ويثقون بكلامه. فبين اللّه ﷻ أن من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو شر من الدواب»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان إثم من عاهد ثم غدر

* عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**أربع خلال من كن فيه كان منافقًا خالصًا: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها**»[(٣)].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٤). (٢) محاسن التأويل (٨/ ٨٠-٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩)، والبخاري (٦/ ٣٤٣/ ٣١٧٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥)، وفي الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: «وقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾(١)، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾(٢)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: **«لكلّ غادر لواء يوم القيامة يُعرف به»**(٤)، وفي رواية: **«إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غدرة فلان»**، وخرّجاه أيضًا من حديث أنس بمعناه(٥). وخرّج مسلم من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: **«لكلّ غادر لواء عند استه يوم القيامة»**(٦).

والغدر حرام في كل عهد بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافرًا، ولهذا في حديث عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ: **«من قتل نفسًا معاهدًا بغير حقها لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**(٧) خرّجه البخاري.

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئًا. وأما عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشدّ، ونقضها أعظم إثمًا»(٨).

* عن علي رضي الله عنه قال: ما كتبنا عن النبي ﷺ إلا القرآن، وما في هذه الصحيفة، قال النبي ﷺ: **«المدينة حرام ما بين عائر إلى كذا، فمن أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه عدل ولا صرف. وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة**

---

(١) الإسراء: الآية (٣٤). (٢) النحل: الآية (٩١).

(٣) آل عمران: الآية (٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦)، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٨)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٥)، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٢)، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٧)، ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٧).

(٦) مسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨).

(٧) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٣١/ ٣١٦٦)، والنسائي (٨/ ٣٩٤/ ٤٧٦٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٩٦/ ٢٦٨٦).

(٨) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨٧-٤٨٨).

والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. ومن والى قومًا بغير إذن مواليه فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»[١].

★ غريب الحديث:

ما بين عائر: عائر، وفي بعض الروايات عير: جبل في المدينة.

أخفر: أصله: خفر ومنه: خفرت الرجل أجرته وحفظته، وخفرته إذا كنت له خفيرًا؛ أي: حاميًا وكفيلًا، وأخفرت الرجل: إذا نقضت عهده وذمامه، والهمزة فيه للإزالة؛ أي: أزلت خِفارته.

★ فوائد الحديث:

قال ابن قدامة: «وجملته أن الأمان إذا أعطي أهل الحرب، حرُم قتلهم ومالهم والتعرض لهم. ويصحّ من كل مسلم بالغ عاقل مختار، ذكرًا كان أو أنثى، حرًا كان أو عبدًا. وبهذا قال الثوري، والأوزاعي، والشافعي، وإسحاق، وابن القاسم، وأكثر أهل العلم. وروي ذلك عن عمر بن الخطاب، ﷺ. وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف: لا يصحّ أمان العبد، إلا أن يكون مأذونًا له في القتال؛ لأنه لا يجب عليه الجهاد، فلا يصح أمانه كالصبي، ولأنه مجلوب من دار الحرب، فلا يؤمَن أن ينظر لهم في تقديم مصلحتهم. ولنا ما روى علي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا، فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل**». ولأنه مسلم مكلف فصح أمانه كالحر. وما ذكروه من التهمة يبطل بما أذن له في القتال، فإنه يصح أمانه وبالمرأة فإن أمانهم يصح في قولهم جميعًا»[٢].

وقال: «ولا يصح أمان كافر، وإن كان ذميًّا؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم**». فجعل الذمة للمسلمين، فلا تحصل لغيرهم، ولأنه متهم على الإسلام وأهله، فأشبه الحربي»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٨١)، والبخاري (٦/ ٣٤٤/ ٣١٧٩)، ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٥/ ١٣٧٠)، والترمذي (٤/ ١٨١-٣٨٢/ ٢١٢٧)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٦/ ٤٢٧٨).

(٢) المغني (١٣/ ٧٥-٧٦).

(٣) المغني (١٣/ ٧٧).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «كيف أنتم إذا لم تجتبوا دينارًا ولا درهمًا؟ فقيل له: وكيف ترى ذلك كائنًا يا أبا هريرة؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده، عن قول الصادق المصدوق. قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمة اللَّه وذمة رسوله ﷺ، فيشد اللَّه ﷻ قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم»[1].

★ فوائد الحديث:

في الحديث «التوصية بالوفاء لأهل الذمة لما في الجزية التي تؤخذ منهم من نفع المسلمين، وفيه التحذير من ظلمهم، وأنه متى وقع ذلك نقضوا العهد فلم يجتب المسلمون منهم شيئًا فتضيق أحوالهم»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢)، والبخاري (٦/ ٣٤٤/ ٣١٨٠) تعليقًا.

(٢) الفتح (٦/ ٣٤٥).

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

تثقفنهم: الثَّقْفُ: الظفر والإدراك بحذق. يقال: ثَقِفْتُهُ وأَثْقَفْتُهُ، إذا أدركته إدراكًا بحذق، وثقفته أي: أدركته ببصري بحذق، ثم تجوز به فيستعمل في مجرد الإدراك.

فشَرِّدْ: التشريد في اللغة التبديد والتفريق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فإما تلقين في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة فتأسرهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ يقول: فافعل بهم فعلا يكون مشردا من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عهد وعقد، والتشريد: التطريد والتبديد والتفريق، وإنما أمر بذلك نبي اللَّه ﷺ أن يفعل بالناقض العهد بينه وبينهم إذا قدر عليهم فعلا يكون إخافة لمن وراءهم ممن كان بين رسول اللَّه ﷺ وبينه عهد، حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف اللَّه صفتهم في هذه الآية من نقض العهد»[1].

قال البقاعي: «ولما أيأسه من تقواهم بما اشتملوا عليه من تكرير النقض الناشئ عن غاية الحسد، وصلابة الرقاب، وقساوة القلوب، والقساوة على الكفر، أمره بما يوهن قواهم، ويحل عراهم من إلباس اليأس بإنزال البأس كما جرت عادته سبحانه أنه يوصيه بالرفق ببعض الناس لعلمه أن عمله يزكو لبنيانه على أحسن أساس، فقال مؤكدًا لأجل ما جبل عليه ﷺ من محبة الرفق: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أي: تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ أي: التي من شأنها أن يحارب فيها المبطل، ويربح

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٥).

ويرحب المحق المجمل[1] ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾أي: فنكل بهم تنكيلًا يصدع ويفرق عن محاربتك من وراءهم ممن هو على مثل رأيهم في المنافرة لك ولا تتركنهم أصلًا؛ لأن أتباعك أمهر منهم وأحذق، فهم لذلك أثبت وأمكن، فإذا أوقعت بهم ذلك لم يجسر عليك أحد بعده اتعاظًا بهم واعتبارًا بحالهم؛ ومادة شرد بكل ترتيب تدور على النفوذ، فإن كان على قصد وسنن فهو رشد ويلزمه الاجتماع، وإن كان على غير سنن وجامع استقامة فهو شرود، ودرشة، أي لجاجة..

ولما ذكر الحكم، ذكر ثمرته بأداة الترجي إدارة له على الرجاء فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: المشردين والمشرد بهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ ما سبق من أيام اللَّه فيعلموا أن هذه أفعاله، وهؤلاء رجاله، فينفعهم ذلك فلا ينقضوا عهدًا بعده، ولقد فعل بهم النبي ﷺ ذلك، فإنهم إن كانوا بني قريظة فقد ضربهم ﷺضربة لم يفلت منهم مخبر؛ بل ضرب أعناقهم في حفائر في سوق المدينة، وكانوا نحوا من سبعمائة على دم واحد، إلا من أسلم منهم وهم يسير، وسبى ذراريهم، ونساءهم وغنم أموالهم، وإن كانوا قينقاع فقد نزل بساحتهم بعد نقضهم، وإظهارهم غاية الاستخفاف والعناد، فلم يكبتهم اللَّه أن جعلهم في قبضته، وما بقي إلا ضرب أعناقهم، كما وقع لبني قريظة، فسأله فيهم عبد اللَّه بن أبي المنافق، وألح عليه ﷺ في أمرهم وكان يألفه ويتألف به، فتركهم له ﷺ، وأجلاهم من المدينة، وكانت واقعتهم أول وقائع اليهود بالمدينة، وإن كانوا بني النضير فقد نقضوا أيضًا فأحاط بهم، ومناهم المنافقون الغرور، فقذف اللَّه الرعب في قلوبهم، فسألوه ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم ففعل، ثم أتم اللَّه الأمر فيهم في خيبر ووادي القرى وغيرهما إلى أن لم يدع منهم في جزيرة العرب فريقا إلا ضربه بالذل، وأجرى عليه الهوان والصغار، ووقائعه فيهم مشهورة الخبر معروفة في السير»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «هو الجزاء الذي أمر اللَّه ﷻ نبيه الكريم أن يلقى به هؤلاء الكافرين، الذين لا يؤمنون باللَّه أبدا، والذين ينقضون عهدهم مع النبي، ويلقونه في الجبهة المحاربة له كلما سنحت الفرصة لهم، سواء أكان ذلك

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣١٠-٣١٢).

بأشخاصهم، أم بأموالهم وأسلحتهم، يمدون بها أعداء المسلمين. فهؤلاء الذين يقفون من النبي ودعوته هذا الموقف اللئيم المخادع، لا عهد لهم، ولا ذمة لهم عند النبي والمسلمين، ما داموا قد غدروا ونكثوا. فليس لهم عند النبي والمسلمين إذا ظفروا بهم في الحرب، أو أمكنتهم أيديهم منهم في أي موقف -ليس لهم إلا الضربة القاصمة القاضية، وإلا البلاء ينصب عليهم انصبابا، ينالهم في أنفسهم، وأموالهم وأهليهم، وذلك ليكونوا عبرة لغيرهم، ومثلا سائرا في الناس، لكل من ينقض العهد مع النبي والمسلمين.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

والتعبير بالظفر بهم، ووقوعهم ليد النبي بقوله تعالى: ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾إشارة إلى أن الحرب ليست كلها انتقاما، واستئصالا للمغلوب، وإنما هي -في صميمها- إصلاح له، وحيدة به عن طريق الضلال والغواية الذي يركبه إلى طريق الحق والهدى المدعو إليه. إذ كثيرًا ما تنتهي الحرب بين المسلمين وأعدائهم، وإذا أعداد وفيرة من هؤلاء الأعداد، قد تحولوا إلى أولياء، ودخلوا في دين اللّه، وكانوا من عباده المؤمنين.

وهذا هو السر في التعبير بكلمة ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ بدلا من كلمة تظفر بهم. إذ الثقاف هو من يتولى إصلاح الرماح، وتقويمها، بما يقتطع من أجزائها وأطرافها، وبما يسوي من نتوئها. فالحرب في الإسلام أشبه بالثقاف للرماح، غايتها الإصلاح والتقويم، ولكن الحرب هنا مع هذا الصنف من الناس الذين يغدرون بالنبي، وينصبون المكايد له بالخديعة والختل، إذ يجيئون إليه موادعين مسالمين، ثم ينقلبون ذئابا محاربين، هؤلاء لا يرجى لهم إصلاح، ولا يتوقع منهم خير ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾أبدا. وإذن فليس لهم إلا الضربة القاضية التي لا تبقي منهم على دار ولا ديار، حتى يكونوا في ذلك عبرة لغيرهم. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾أي: فرق بهذا الذي تأخذهم به من بلاء ونكال، كل مجتمع للضلال وتبييت السوء للمسلمين ممن ينتظرون ما وراء كيد هؤلاء الكافرين بالمؤمنين.

فكل من تحدثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التي نزلت بهؤلاء الخائنين سيجد أمام ناظريه مثلا حيا لما ينتظره من بلاء ونكال في هذا الذي أخذ به هؤلاء القوم، وبهذا تنحل عزائم الذين يدبرون الشر للمسلمين، ويتشتت

جمعهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، إذ الضمير في كل من ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ راجع إلى هؤلاء الذين يأتون بعد هؤلاء الذي نكل بهم النبي وضربهم الضربة القاضية، ففي الضربة التي حلت بهؤلاء موعظة وذكرى لهؤلاء الذين لم يظهروا بعد على طريق الغدر والخيانة»[١].

قال السعدي: «وهذه من فوائد العقوبات والحدود المترتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرا لمن عملها أنه لا يعاودها، ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب، أن الكافر -ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر- أنه إذا أعطي عهدا، لا يجوز خيانته وعقوبته»[٢].

وقال ابن عاشور: «وقد أمر اللَّه رسوله ﷺ في هذا الأمر بالإغلاظ على العدوّ لما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم؛ لأنّهم استحقّوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم؛ لأنّه يصدّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرَّ الناكثين الخائنين. فلا تخالف هذه الشدّة كونَ الرسول ﷺ أرسل رحمة للعالمين؛ لأنّ المراد أنّه رحمة لعموم العالمين وإن كان ذلك لا يخلو من شدّة على قليل منهم كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٥-٦٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨١).

(٣) البقرة: الآية (١٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فانبذ: النّبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ولذل، يقال: نبذته نبذ النعل الخلق.

على سواء: أي على حكم العدل والإنصاف. ومنه قيل للوسط سواء لاعتداله بين الجهات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده، وينقض عقده ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر؛ ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم؛ حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به، فيحاربه قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد. فإن قال قائل: وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين؟ قيل: إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت، وإنما معناه: إذا ظهرت آثار الخيانة من عدوك، وخفت وقوعهم بك، فألق إليهم مقاليد السلم، وآذنهم بالحرب، وذلك كالذي كان من بني قريظة، إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ، ومحاربتهم معه بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ على المسالمة ولن يقاتلوا رسول الله ﷺ، فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك موجبا لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم، فكذلك حكم

كل قوم أهل موادعة للمؤمنين، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذي ظهر لرسول الله ﷺ وأصحابه من قريظة منها، فحق على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء، ويؤذنهم بالحرب»[1].

وقال السعدي: «أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ عهدهم؛ أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخف منهم؛ بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضًا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم؛ بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته»[2].

قال الرازي: «أما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به، فهاهنا لا حاجة إلى نبذ العهد، كما فعل رسول اللّه ﷺ بأهل مكة، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم ذمة النبي ﷺ، وصل إليهم جيش رسول اللّه ﷺ بمر الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة»[3].

قال القاسمي: «دلت الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحة، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم أمارة الخيانة، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر، وأن يعلمهم بذلك، لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد»[4].

قال السعدي: «ودل مفهومها على أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم؛ بل يجب الوفاء إلى أن

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٦-٢٧).
(٢) تفسير السعدي (٣/ ١٨١-١٨٢).
(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٠).
(٤) محاسن التأويل (٨/ ٨٢).

تتم مدته»[١].

قال ابن عطية: «وتقتضي قوة هذا اللفظ الحض على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «والحكمة في هذا النبذ لعهد من ذكر؛ بل العلة أن الإسلام لا يبيح لأهله الخيانة مطلقا، فكيف تقع من أكمل البشر الذي كان يلقبه أهل وطنه منذ تمييزه بالأمين؟، ثم بعثه اللّٰه ليتمم مكارم الأخلاق ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ بنقض عهودهم مع الناس، ولا يغير ذلك، فالخيانة مبغوضة عند اللّٰه بجميع صورها ومظاهرها، فلا وسيلة إذا لاتقاء ضرر خيانة المعاهدين من الكفار إذا ظهرت أماراتها منهم، مع عدم إباحة معاملتهم بمثلها مع بقاء العهد من جهتنا، وعدم جواز حسبانه.. إلا نبذ عهدهم جهرا، وقد تكون هذه الوسيلة مانعة من خيانة العقلاء منهم الذين يتقون عاقبة نقض العهد إذا كانوا ضعفاء لا يتجرؤون على الخيانة، إلا إذ كانوا آمنين من معاملة الرسول والمؤمنين لهم معاملة الأعداء المحاربين، ومناجزتهم إياهم القتال.. وفي هذه الآية والآثار الواردة في معناها من مراعاة الحق والعدل في الحرب ما انفرد به الإسلام دون الشرائع السابقة، وقوانين المدنية اللاحقة. ومع هذه الفضائل والمزايا كلها يطعن دعاة النصرانية وغيرهم من مكابري الحق في هذا الدين، وفي أخلاق من أنزل اللّٰه تعالى عليه هذه الأحكام الشريفة وقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز نبذ العهد إذا خشي من أعدائه النقض

* عن سليم بن عامر -رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٢).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٥٤٣).

(٣) القلم: الآية (٤).

(٤) تفسير المنار (١٠/ ٥٨-٥٩).

برذون وهو يقول: اللَّه أكبر اللَّه أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، فرجع معاوية»**[1].

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: **«أو ينبذ إليهم على سواء»** يعني: **«يعلمهم أنه يريد أن يغزوهم، وأن** الصلح الذي كان بينهم قد ارتفع، فيكون الفريقان في ذلك على السواء»[2].

قال الخطابي: «وفيه دليل على أن العهد الذي يقع بين المسلمين وبين العدو ليس بعقد لازم لا يجوز القتال قبل انقضاء مدته، ولكن لا يجوز أن يفعل ذلك إلا بعد الإعلام به والإنذار فيه، ويشبه أن يكون عمرو إنما كره مسير معاوية إلى ما يتاخم بلاد العدو والإقامة بقرب دارهم من أجل أنه إذا هادنهم إلى مدة وهو مقيم في وطنه، فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة كالمشروط مع المدة المضروبة في أن لا يغزوهم فيها فيأمنونه على أنفسهم. فإذا كان مسيره إليهم في أيام الهدنة حتى ينيخ بقرب دارهم كان إيقاعه بهم قبل الوقت الذي يتوقعونه، فكان ذلك داخلًا عند عمرو في معنى الغدر»[3].

* عن عبد اللَّه بن عمر ﵄ عن النبي ﷺ قال: **«إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**[4].

* وفي رواية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: **«ولا غادر أعظم غدرًا من أميرِ عامّة»**[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١١١ و ١١٣)، وأبو داود (٣/ ١٩٠/ ٢٧٥٩)، والترمذي (٤/ ١٢١-١٢٢/ ١٥٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٣-٢٢٤/ ٨٧٣٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١١/ ٢١٥/ ٤٨٧١).

(٢) معالم السنن (٢/ ٢٧٥).

(٣) معالم السنن (٢/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦)، والبخاري (١٠/ ٦٨٩/ ٦١٧٧-٦١٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٦٠/ ١٧٣٥[١٠])، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦) ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨[١٦]).

★ **غريب الحديثين:**

لواء: اللواء الراية العظيمة يمسكها صاحب جيش أو صاحب دعوة الجيش.

★ **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «هذا منه ﷺ خطاب للعرب بنحو ما كانت تفعل؛ وذلك أنهم يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليشهروا به الوفي، فيعظموه ويمدحوه، والغادر فيذموه ويلوموه بغدره. وقد شاهدنا هذا فيهم عادة مستمرة إلى اليوم، فمقتضى هذا الحديث: أن الغادر يفعل به مثل ذلك ليشهر بالخيانة والغدر، فيذمه أهل الموقف، ولا يبعد أن يكون الوفي بالعهد يرفع له لواء يعرف به وفاؤه وبره، فيمدحه أهل الموقف، كما يرفع لنبينا محمد ﷺ لواء الحمد فيحمده كل من في الموقف»(١).

قال القاضي عياض: «وفي هذا كله دليل على قبح الغدر ووعيد شديد، لاسيما في معاهدة العدو»(٢).

فيه أن الغدر حرام في كل ملة لم تختلف فيه شريعة»(٣)، لاسيما من صاحب الولاية العامة»(٤).

قال القرطبي: «قوله: «**ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**»: يعني أن الغدر في حقه أفحش، والإثم عليه أعظم منه على غيره لعدم حاجته إلى ذلك، وهذا كما قاله ﷺ في الملك الكذاب(٥). . وأيضًا فلِمَا في غدر الأئمة من المفسدة، فإنهم إذا غدروا وعلم ذلك منهم، لم يأمنهم العدو على عهد ولا صلح، فتشتد شوكته ويعظم ضرره، ويكون ذلك منفرا من الدخول في الدين، وموجبا لذم أئمة المسلمين»(٦).

* * *

---

(١) المفهم (٣/ ٥٢٠). (٢) إكمال المعلم (٦/ ٣٩).

(٣) أفاده ابن العربي في عارضة الأحوذي (٧/ ٧٦).

(٤) أفاده النووي في شرح مسلم (١٢/ ٣٨).

(٥) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر» أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٣)، ومسلم (١/ ١٠٢-١٠٣/ ١٠٧)، والنسائي (٥/ ٩١/ ٢٥٧٤).

(٦) المفهم (٣/ ٥٢١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سبقوا: أي فَاتُوا اللَّه تعالى؛ لأن السبق: تقدم الشيء لطالب اللحوق به.

يعجزون: العجز: القصور عن إدراك الشيء، وعدم القدرة عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه ﷺ: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا سبقوا؛ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[3]»[4].

وقال عبد الكريم الخطيب: «هو تطمين لقلوب المسلمين، ودفع لوساوس الخوف التي تطرقهم وهم يعطون من أنفسهم الوفاء لعدوهم بالعهد الذي بينهم وبينه، على حين أنه يغدر بهم، ويباغتهم بهذا الغدر، فكيف يحاربهم العدو بسلاح ثم يحرم عليهم محاربته بهذا السلاح؟ فليطمئن المسلمون، وليعلموا أن هؤلاء الذين خانوا العهد لم يسبقوا بتلك الخيانة إلى أخذ فرصة في المسلمين؛ لأنهم -وقد فعلوا ما فعلوا من خيانة- قد تعرضوا لبغض اللَّه وغضبه. واللَّه لا يحب الخائنين، وحسبهم هذا خسرانا وبلاء!»[5].

قال السعدي: «وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة

---

(١) العنكبوت: الآية (٤).
(٢) النور: الآية (٥٧).
(٣) آل عمران: الآيتان (١٩٦و١٩٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٠).
(٥) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٧).

التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات، ولم يكونوا بغيره بالغيها»[١].

قال صديق حسن خان: «وفيه تسلية للنبي ﷺ فيمن فاته من المشركين، ولم ينتقم منهم، فأعلمهم الله أنهم لا يعجزونه»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «في هذه الآية دليل على أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع المخالفين من أعدائه المخالفين له في الدين، وما حرمه من الخيانة لهم فيها، وما شرعه من العدل والصراحة في معاملتهم -ليس عن ضعف ولا عن عجز؛ بل عن قوة وتأييد إلهي، وقد نصر الله تعالى المسلمين على اليهود الخائنين الناقضين لعهدهم، وثبت بهذا أن قتال المسلمين لهم، وإجلاءهم لبقية السيف منهم من جوار عاصمة الإسلام، ثم من مهده ومعقله الحجاز كان عدلا وحقا»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٢).

(٢) فتح البيان (٥/ ٢٠٠).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

أعدوا: الإعداد من العدد كالإسقاء من السقي، فأعددت لك كذا: جعلته بحيث تتناوله حين حاجتك إليه وتعده، وله عدة: أي شيء كثير من مال وسلاح وغيرهما، والعدة أيضًا: الاستعداد يقال: كونوا على عدة، وأخذ للأمر عدته وعتاده بمعنى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «علم من الآيات التي قبل هذه أن أهل الكتاب من اليهود الذين عقد النبي ﷺ معهم العهود التي أمنهم بها على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فقد خانوه ونقضوا عهده وساعدوا عليه أعداءه من المشركين الذين أخرجوه هو ومن آمن به من ديارهم ووطنهم ثم تبعوهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه لأجل دينهم، وأنه بذلك صار جميع أهل الحجاز الذين كفروا بما جاء به من الحق حربا له، المشركون وأهل الكتاب سواء، فناسب بعد ذلك أن يبين تعالى للمؤمنين ما يجب عليهم في حال الحرب التي كانت أمرا واقعا لم يكونوا هم المحدثين له ولا البادئين بالعدوان فيه، كما أنه سنة من سنن الاجتماع البشري في المصارعة بين الحق والباطل، والقوة والضعف، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾. أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب التي علموا أن لا مندوحة عنها لدفع العدوان والشر ولحفظ الأنفس ودعاية الحق والعدل والفضيلة بأمرين: أحدهما: إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة. وثانيهما: مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها»[٢].

---

(١) الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٦٨-٦٩).

وقال السعدي: «أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي، والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير»[1].

وقال ابن العربي: «أمر اللَّه ﷻ بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد في تقدمة التقوى؛ فإن اللَّه تعالى لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في الوجوه، وحفنة من تراب؛ كما فعل رسول اللَّه ﷺ، ولكنه أراد أن يبلي بعض الناس ببعض، بعلمه السابق وقضائه النافذ؛ فأمر بإعداد القوى والآلة في فنون الحرب التي تكون لنا عدة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بأمداد الملائكة العليا»[2].

وقال القاسمي: «دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام كان الإسلام عزيزا عظيما أبيّ الضيم، قويّ القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابا متتالية وهم سادة الأمم، وقادة شعوب، وزمام الحول والطول، وقطب روحي العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوة. وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو. أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ١٨٣).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٧٢).

فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به. قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي -والعياذ بالله- على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وبالله الهداية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب الرمي، وبيان فضيلته

* عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ يقول: سمعت النبي ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشوكاني: «قال القرطبي: إنما فسر القوة بالرمي وإن كانت القوة تظهر بإعداد غيره من آلات الحرب، لكون الرمي أشد نكاية في العدو له؛ لأنه قد يرمي رأس الكتيبة فيصاب فينهزم من خلفه اهـ. وكرر ذلك للترغيب في تعلمه وإعداد آلاته. وفيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعلم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية في إعدادها؛ ليتمرن بذلك على الجهاد، ويتدرب فيه ويروض أعضاءه»[3].

قال النووي: «هذا تصريح بتفسيرها أي: الآية- ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا، وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى، وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السلاح، وكذا المسابقة بالخيل وغيرها كما سبق في بابه، والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك»[4].

وقال صديق حسن خان بعد أن ذكر أقوالًا في معنى القوة: «وقيل: كل ما هو آلة

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٨٥-٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٦-١٥٧)، ومسلم (٣/ ١٥٢٢/ ١٩١٧) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٢٩-٣٠/ ٢٥١٤)، والترمذي (٥/ ٢٥٢/ ٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠/ ٢٨١٣).

(٣) نيل الأوطار (٨/ ٨٥).

(٤) شرح مسلم (١٣/ ٥٦).

يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها، وقوله ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**» لا ينفي كون غير الرمي ليس من القوة، فهو كقوله: «**الحج عرفة**»[(١)] وقوله: «**الندم توبة**»[(٢)] فهذا لا ينفي اعتبار غيره؛ بل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله، فكذا هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب، وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات، كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية، كل ذلك مأمور به لأنه من فروض الكفايات»[(٣)].

ويزيد ابن جرير هذا المعنى وضوحا فيقول: «ولا وجه لأن يقال: عني بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة، وقد عم اللّه الأمر بها. فإن قال قائل: فإن رسول اللّه ﷺ قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**»، قيل له: إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة؛ لأنه إنما قيل في الخبر: «**ألا إن القوة الرمي**» ولم يقل دون غيرها، ومن القوة أيضًا السيف، والرمح، والحربة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم»[(٤)].

قال ابن القيم: «إن منفعة الرمي ونكايته في العدو فوق منفعة سائر آلات الحرب، فكم من سهم واحد هزم جيشا، وإن الرامي الواحد ليتحاماه الفرسان، وترعد منه أبطال الرجال. هذا وإن السهم تريد ترسله إلى عدوك فيكفيك مؤنته على البعد، وقد علم بالتجربة أن الرامي الواحد إذا كان جيد الرمي، فإنه يأخذ الفئة من الناس الذين لا رامي معهم ويطردهم جميعًا. ولهذا عند أرباب الحروب أن كل سهم مقام رجل، فإذا كان مع الرجل مائة سهم عد بمائة رجل، والخصم يخاف من النشاب أضعاف خوفه من السيف والرمح، وإذا كان راجل واحد رام أمكنه أن يأخذ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥/ ١٩٤٩)، والترمذي (٥/ ١٩٨/ ٢٩٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والنسائي (٥/ ٢٨٢/ ٣٠١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣/ ٣٠١٥)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٥٧/ ٢٨٢٢) وابن حبان (الإحسان ٩/ ٢٠٣/ ٣٨٩٢)، والحاكم (١/ ٤٦٤) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٧٧/ ٦١٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٣) ووافقه الذهبي، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (ص: ١٥٢١).

(٣) فتح البيان (٥/ ٢٠١-٢٠٢).

(٤) جامع البيان (١٠/ ٣٢).

مائة فارس لا رامي فيهم ويغلبهم، ومائة فارس لا يغلبون راميا واحدا . . ولهذا ألقى اللّه من الرعب لصاحب الرمي عند خشخشة النشاب والجعبة ما لم يلقه لصاحب السيف والرمح، وهذا معلوم بالمشاهدة، حتى إن الألف ليفزعون من رام واحد، ولا يكادون يفزعون من ضارب سيف واحد، فصوت الرامي المجيد في الجيش خير من فئة»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه، وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول: «**ألا إن القوة الرمي**» قالها ثلاثا، وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث «**الحج عرفة**»، بمعنى أن كلا منهما أعظم الأركان في بابه، وذلك أن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق، أو طيارة، أو بندقية، أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفا في عصره ﷺ، فإن اللفظ يشمله، والمراد منه يقتضيه ولو كان قيده بالسهام المعروفة في ذلك العصر فكيف وهو لم يقيده؟ وما يدرينا لعل اللّه تعالى أجراه على لسان رسوله مطلقا ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به فيه - وهناك أحاديث أخرى في الحث على الرمي بالسهام؛ لأنه كرمي الرصاص في هذه الأيام، على أن لفظ الآية أدل على العموم؛ لأنه أمر بالمستطاع موجه إلى الأمة في كل زمان ومكان، كسائر خطابات التشريع حتى ما كان منها واردا في سبب معين. ومن قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها والبنادق والدبابات والطيارات والمناطيد وإنشاء السفن الحربية بأنواعها، ومنها الغواصات التي تغوص في البحر، ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب بدليل ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب، وقد ورد أن الصحابة استعملوا المنجنيق مع رسول اللّه ﷺ في غزوة خيبر

---

(١) الفروسية (ص: ٢٤).

وغيرها . وكل الصناعات التي عليها مدار المعيشة من فروض الكفاية كصناعات آلات القتال .

وقد أدرك بعض هذه الآلات الحربية السيد الألوسي من المفسرين المتأخرين ، فقال بعد إيراد بعض الأحاديث الواردة في الرمي ما نصه : وأنت تعلم أن الرمي بالنبال اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو ؛ لأنهم استعملوا الرمي بالبندق والمدافع ولا يكاد ينفع معهما نَبْل . وإذا لم يقابلوا بالمثل عمَّ الداء العضال ، واشتد الوبال والنكال ، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال ، فالذي أراه -والعلم عند اللَّه تعالى- تعين تلك المقابلة على أئمة المسلمين ، وحماة الدين ، ولعل فضل ذلك الرمي يثبت لهذا الرمي لقيامه مقامه في الذب عن بيضة الإسلام ، ولا أرى ما فيه من النار للضرورة الداعية إليه إلا سببا للفوز بالجنة إن شاء اللَّه تعالى ، ولا يبعد دخول مثل هذا الرمي في عموم قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ اهـ .

وأقول : قد جزم العلماء قبله بعموم نص الآية . قال الرازي بعد أن أورد ثلاثة أقوال في تفسيرها منها الرمي الوارد في الحديث : قال أصحاب المعاني : الأولى أن يقال : إن هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، ثم ذكر حديث الرمي وأنه كحديث «الحج عرفة»[1] . وأنا لا أدري سببًا لالتجاء الألوسي في المسألة إلى الرأي والاجتهاد ، واكتفائه بدخول هذه الآلات في عموم نص الآية بعدم الاستبعاد ، إلا أن يكون بعض المعممين في عصره حرموا استعمال هذه الآلات النارية بشبهة أنها من قبيل التعذيب بالنار الذي منعه الإسلام كما يشير إليه قوله : ولا أرى ما فيه من النار الخ .

نعم إن الإسلام دين الرحمة ، قد منع من التعذيب بالنار كما كان يفعل الظالمون والجبارون من الملوك بأعدائهم كأصحاب الأخدود الملعونين في سورة البروج ، ولكن من الجهل والغباوة أن يُعَدَّ حرب الأسلحة النارية للأعداء الذين يحاربوننا بها من هذا القبيل ؛ بأن يقال : إن ديننا دين الرحمة يأمرنا أن نحتمل قتالهم إيانا بهذه المدافع ، وأن لا نقاتلهم بها رحمة بهم مع العلم بأن اللَّه تعالى أباح لنا في التعامل

(١) أخرجه : أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥/ ١٩٤٩)، والترمذي (٥/ ١٩٨/ ٢٩٧٥)، وقال : «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٥/ ٢٨٢/ ٣٠١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣/ ٣٠١٥)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٥٧/ ٢٨٢٢) وابن حبان (الإحسان : ٩/ ٢٠٣/ ٢٨٩٢)، والحاكم (١/ ٤٦٤) ووافقه الذهبي .

فيما بيننا أن نجزي على السيئة بمثلها عملًا بالعدل، وجعل العفو فضيلة لا فريضة فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1] الخ الآيات. وقال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[2] أفلا يكون من العدل؛ بل فوق العدل في الأعداء أن نعاملهم بمثل العدل الذي نعامل به إخواننا أو بما ورد بمعنى الآية في بعض الآثار: قاتلوهم بمثل ما يقاتلونكم به؟ وهم ليسوا أهلا للعدل في حال الحرب.

نعم ورد في الحديث الصحيح النهي عن تحريق الكفار الحربيين بالنار ولكن هذا ليس منه، على أن علماء السلف وفقهاء الأمصار اختلفوا في حكمه فأباحه بعضهم مطلقًا، وبعضهم عند الحاجة الحربية كإحراق سفن الحرب ولو لم يكن جزاء بالمثل والجزاء أولى»[3].

* عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: **«ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان»**. قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: **«مالكم لا ترمون؟»** قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: **«ارموا فأنا معكم كلكم»**[4].

★ غريب الحديث:

ينتضلون: أي: يرتمون بالسهام.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال المهلب: يستفاد منه أن من صار السلطان عليه في جملة المناضلين له أن لا يتعرض لذلك، كما فعل هؤلاء القوم حيث أمسكوا لكون النبي ﷺ مع الفريق الآخر، خشية أن يغلبوهم فيكون النبي ﷺ مع من وقع عليه الغلب، فأمسكوا عن ذلك تأدبًا معه انتهى. وتعقب بأن المعنى الذي أمسكوا له لم ينحصر

---

(١) الشورى: الآيتان (٤٠و٤١).

(٢) النحل: الآية (١٢٦).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٦٩-٧٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٠)، والبخاري (٦/ ١١٣/ ٢٨٩٩).

في هذا؛ بل الظاهر أنهم أمسكوا لما استشعروا من قوة قلوب أصحابهم بالغلبة حيث صار النبي ﷺ معهم، وذلك من أعظم الوجوه المشعرة بالنصر»[١].

وقال: «فيه التنويه بذكر الماهر في صناعته ببيان فضله وتطييب قلوب من هو دونه. وفيه حسن خلق النبي ﷺ ومعرفته بأمور الحرب»[٢].

* عن أبي أسيد الساعدي قال: لما كان يوم بدر قال لنا رسول اللَّه ﷺ: «**إذا أكثبوكم فارموهم واستَبْقُوا نبلكم**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

أكثبوكم: يقال: كثب وأكثب: إذا قارب، والكثب: القرب.

استَبْقُوا: يقال: استبقاه: أراد بقاءه.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فالمعنى: إذا دنوا منكم. وقد استشكل بأن الذي يليق بالدنو المطاعنة بالرمح والمضاربة بالسيف، وأما الذي يليق برمي النبل فالبعد، وزعم الداودي أن معنى «**أكثبوكم**»: كاثروكم، قال: وذلك أن النبل إذا رمي في الجمع لم يخطئ غالبًا، ففيه ردع لهم، وقد تعقب هذا التفسير بأنه لا يعرف، وتفسير الكثب بالكثرة غريب، والأول هو المعتمد، وقد بينته رواية أبي داود حيث زاد في آخره: «**واستبقوا نبلكم**» وفي رواية له: «**ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**» فظهر أن معنى الحديث الأمر بترك الرمي والقتال حتى يقربوا؛ لأنهم إذا رموهم على بعد قد لا تصل إليهم وتذهب في غير منفعة، وإلى ذلك الإشارة بقوله: «**واستبقوا نبلكم**» وعرف بقوله: «**ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**» أن المراد بالقرب المطلوب في الرمي قرب نسبي بحيث تنالهم السهام، لا قرب قريب بحيث يلتحمون معهم»[٤].

* عن عبد اللَّه بن شداد قال: سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول: ما رأيت النبي ﷺ يُفَدِّي

---

(١) فتح الباري (٦/ ١١٤). (٢) فتح الباري (٦/ ١١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٨)، والبخاري (٧/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٣٩٨٤-٣٩٨٥) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ١١٨/ ٢٦٦٣).

(٤) فتح الباري (٦/ ١١٥).

رجلًا بعد سعد، سمعته يقول: «**ارم فداك أبي وأمي**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

فداك: يقال: فداه: إذا أعطى فداءه وأنقذه، وفدَّاه بنفسه وفداه: إذا قال له: جعلت فداك.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وفيه فضيلة الرمي والحث عليه والدعاء لمن فعل خيرًا»[(٢)].

* عن فقيم اللخمي قال لعقبة بن عامر: تختلف بين هذين الغرضين، وأنت كبير يشق عليك. قال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول اللَّه ﷺ لم أعانيه، قال الحارث: فقلت لابن شماسة: وما ذاك؟ قال: إنه قال: «**من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى**»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

أعانيه: معاناة الشيء: ملابسته ومباشرته، والقوم يعانون مالهم: أي: يقومون عليه.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه، وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر»[(٤)].

قال الشوكاني: «وفي ذلك إشعار بأن من أدرك نوعًا من أنواع القتال التي ينتفع بها في الجهاد في سبيل اللَّه، ثم تساهل في ذلك حتى تركه كان آثمًا إثمًا شديدًا؛ لأن ترك العناية بذلك يدلّ على ترك العناية بأمر الجهاد، وترك العناية بالجهاد يدلّ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٩٢ و١٢٤)، والبخاري (٦/ ١١٦/ ٢٩٠٥)و(٧/ ٤٥٥/ ٤٠٥٨-٤٠٥٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٧٦/ ٢٤١١-٢٤١٢)، والترمذي (٥/ ٦٠٨/ ٣٧٥٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٦-٥٧/ ١٠٠١٨-١٠٠٢٢)، وابن ماجه (١/ ٤٧/ ١٢٩).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ١٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٨)، ومسلم (٣/ ١٥٢٢-١٥٢٣/ ١٩١٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠-٩٤١/ ٢٨١٤).

(٤) شرح مسلم (١٣/ ٥٦).

على ترك العناية بالدين؛ لكونه سنامه وبه قام»[١].

* عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من رمى بسهم في سبيل اللَّه فبلغ العدو، أخطأ أو أصاب كان له كعدل رقبة**»[٢].

* عن عطاء بن أبي رباح قال: رأيت جابر بن عبد اللَّه وجابر بن عمير الأنصاري يرميان، قال: فأما أحدهما فجلس فقال له صاحبه: أكسلت؟ قال: نعم، فقال أحدهما للآخر: أما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**كل شيء ليس من ذكر اللَّه فهو لغو لا يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعلم الرجل السباحة**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

الغرضين: رمية السهم إلى الهدف.

⋆ فوائد الحديثين:

تقدم الكلام على معنى الحديثين في الآية (١٧) من سورة الأنفال.

* * *

---

(١) نيل الأوطار (٨/ ٨٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٨٦)، والنسائي (٦/ ٣٣٥/ ٣١٤٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠/ ٢٨١٢)، والحاكم (٢/ ٩٦) من طريقين، صحح الأولى على شرط الشيخين ووافقه الذهبي واعتبر الثانية شاهدًا للحديث الأول.
والحديث أخرجه بلفظ: «من رمى العدو بسهم في سبيل اللَّه فهو له عدل محرر»، أو «... فله درجة»: أبو داود (٤/ ٢٧٤/ ٣٩٦٥)، والترمذي (٤/ ١٤٩/ ١٦٣٨) وقال: «حديث صحيح»، والنسائي (٦/ ٣٣٤-٣٣٥/ ٣١٤٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٤٦١٥).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٢/ ٩٨٣٨)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٩٣/ ١٧٨٥)، وفي الأوسط (٩/ ٦٩/ ٨١٤٣)، والبزار (كشف الأستار ٢/ ٢٧٩-٢٨٠/ ١٧٠٤).
وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٦٩) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والكبير والبزار ورجال الطبراني رجال الصحيح خلا عبدالوهاب بن بخت وهو ثقة».
وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٩) وقال: «رواه الطبراني في الكبير وإسناده جيد».

قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1]

★ غريب الآية:

رباط الخيل: أصل الربط: العَقْدُ في الأعيان، والمعنى: احتباس الخيل للقتال، والرباط من الخيل الخمس فما فوقها، جمع ربُط. ومربط الخيل ومرابطها وهي ارتباطها بإزاء العدو.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به، قال ابن محيريز: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف، وإناث الخيل عند الشتات والغارات. وقيل: ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو. وقيل: لفظ الخيل عام يتناول الفحول والإناث، فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل اللَّه. ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الأجر، واستحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث كثيرة لا يسع المقام بسطها، وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات»[2].

قال محمد رشيد رضا: «والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها، إذا فاجأها العدو على غرة قاومه الفرسان، لسرعة حركتهم وقدرتهم على الجمع بين القتال وإيصال أخباره من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها. ولذلك عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها»[3].

قال القرطبي: «إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها التي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العُدّة وحصون الفرسان، وبها يجال في الميدان،

---

(١) الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) فتح البيان (٥/ ٢٠٢).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٦٩).

خصّها بالذكر تشريفًا، وأقسم بغبارها تكريمًا فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾[(١)] الآية. ولما كانت السهام من أنجع ما يُتعاطى في الحروب والنكاية في العدو، وأقربها تناولًا للأرواح، خصّها رسول اللَّه بالذكر لها والتنبيه عليها»[(٢)].

هذا وقد اختلف الناس في الرماية وركوب الخيل أيهما أفضل، وذهب إلى كل واحد منها طائفة، **قال ابن القيم**: «وفصل النزاع بين الطائفتين أن كل واحد منهما يحتاج في كماله إلى الآخر، فلا يتم مقصود أحدهما إلا بالآخر.. والرمي أنفع في البعد، فإذا اختلط الفريقان بطل الرمي حينئذ، وقامت سيوف الفروسية من الضرب والطعن والكر والفرّ. وأما إذا تواجه الخصمان في البعد فالرمي أنفع وأنجع، ولا تتم الفروسية إلا بمجموع الأمرين، والأفضل منهما ما كان أنكى في العدو، وأنفع للجيش، وهذا يختلف باختلاف الجيش ومقتضى الحال واللَّه أعلم»[(٣)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أمر باتخاذ القوة، والعمل على بنائها، والتوسل إليها بوسائلها، ومن أهم تلك الوسائل (الخيل). إذ كانت في هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية. فحيث كانت الخيل، وكان فرسانها كانت القوة والمنعة.

وفي التعبير عن (الخيل) بقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ إشارة إلى الإكثار من الخيل، وإعدادها للحرب، وتدريبها على القتال، وحبسها على هذا المجال، فلا تتخذ لغرض آخر؛ بل تكون دائما مرصودة للقاء العدو، مهيأة للاشتباك معه في أية لحظة. إنها مرابطة كما يرابط المجاهدون على الثغور لحماية المسلمين، وسد الثغور التي ينفذ منها العدو إليهم!»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة ربط الخيل للجهاد في سبيل الله

* عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر،**

---

(١) العاديات: الآية (١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٧).
(٣) الفروسية (ص: ٢٥).
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٨).

وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل اللَّه فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها انقطع طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك أجر، ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا ثم لم ينس حق اللَّه في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر». وسئل رسول اللَّه ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]»[2].

★ **غريب الحديث:**

الطيل: الحبل يطول فيه للدابة، وهو مكسور الأول.

مرج: المرج: الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرج فيها الدواب؛ أي: تخلّى لتمرج مختلطة كيف شاءت.

روضة: الروضة: هو الموضع الذي يستنقع فيه الماء.

فاستنت: الاستنان أن تلج في عدوها في إقبالها وإدبارها.

شرفًا: الشرف: ما ارتفع من الأرض.

نواءً: أي: معاداة، وأصله من ناء إليك ونوْت إليه؛ أي: نهض إليك ونهضت إليه.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «وفي هذا الحديث من الفقه: أن الأعيان لا يؤجر المرء في اكتسابها، إنما يؤجر في استعمال ما ورد الشرع بعمله من النية التي تزكو بها

---

(١) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٣)، والبخاري (٥/ ٥٨/ ٢٣٧١) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٨٠/ ٩٨٧)، والترمذي (٤/ ١٤٨/ ١٦٣٦)، والنسائي (٦/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٣٥٦٥). وفي الباب عن ابن مسعود وخباب وزياد بن مسلم وغيرهم ﷺ.

الأعمال، إذا نوى بها صاحبها وجه اللَّه والدار الآخرة، وما يقربه من ربه إذا كان ذلك على سنة، ألا ترى أن الخيل أجر لمن اكتسبها، ووزر على من اكتسبها -على ما جاء به الحديث- وهي جنس واحد، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] وقال اللَّه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2] وقال ﷻ: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3] وفيه أن الحسنات تكتب للمرء إذا كان له فيها سبب، وإن لم يقصد قصدها، تفضلا من اللَّه تعالى على عباده المومنين، ورحمة منه بهم، وليس هذا حكم اكتساب السيئات إن شاء اللَّه، يدلك على ذلك أنه لم يذكر في هذا الحديث حركات الخيل وتقلبها في سيئات المفتخر بها، كما ذكر ذلك في حسنات المحتسب المريد بها البر؛ ألا ترى أنها لو قطعت حبلها نهارًا، فأفسدت زرعا أو رمحت فقتلت أو جنت، أن صاحبها بريء من الضمان عند جميع أهل العلم. ويبين ذلك أيضًا قوله في هذا الحديث: **«ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات»** وفي هذا دليل على أن المسلم إذا صنع شيئًا يريد به اللَّه ﷻ، فكل ما كان بسبب منه وإليه، كان له حكمه في الأجر واللَّه أعلم»[4].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[5].

★ غريب الحديث:

نواصيها: الناصية: مقدم الرأس، وشعر مقدم الرأس إذا طال.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من احتبس فرسًا في سبيل اللَّه إيمانًا باللَّه وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»**[6].

* عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند كل**

---

(١) محمد: الآية (٣١).
(٢) هود: الآية (٧).
(٣) الأعراف: الآية (١٢٩).
(٤) فتح البر (٨/ ٢٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣و٢٨و٤٩و٥٧و١٠١و١٠٢و١١٢)، والبخاري (٦/ ٦٧/ ٢٨٤٩) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٩٢/ ١٨٧١)، والنسائي (٦/ ٥٣١/ ٣٥٧٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٧).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاري (٦/ ٧١/ ٢٨٥٣)، والنسائي (٦/ ٥٣٤/ ٣٥٨٤).

سحر بدعوتين: اللهم خولتني من خولتني من بني آدم وجعلتني له فاجعلني أحب أهله وماله إليه أو من أحب ماله وأهله إليه»[١].

★فوائد الأحاديث:

قال العيني: «ومعنى قوله: «معقود»: ملازم لها كأنه معقود فيها، وهو من باب الاستعارة المكنية؛ لأن الخير ليس بمحسوس حتى تعقد عليه الناصية، ولكنهم يدخلون المعقول في جنس المحسوس ويحكمون عليه بما يحكم على المحسوس مبالغة في اللزوم، وذكر الناصية تجريد للاستعارة، والنواصي: جمع ناصية، وهي قصاص الشعر، وهو الشعر المسترسل على الجبهة، وخص النواصي بالذكر لأن العرب تقول غالبًا: فلان مبارك الناصية، فيكنى بها عن الإنسان. وقوله: الخيل.. إلى آخره لفظه عام، والمراد به الخصوص؛ لأنه لم يرد إلا بعض الخيل بدليل قوله: الخيل لثلاثة، فبين أنه أراد الخيل الغازية في سبيل اللَّه، لا أنها على كل وجوهها، ذكره ابن المنذر. وقال غيره: الخير هنا: المال، قال: ﷺ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[٢]. قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[٣]: إنه أراد به الخيل.

وفيه الحث على ارتباط الخيل في سبيل اللَّه تعالى، يريد أن من ارتبطها كان له ثواب ذلك، فهو خير آجل، وهو ما يصيبه على ظهرها من الغنائم، وفي بطونها من النتائج خير عاجل»[٤].

قال القرطبي: «وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل على قولين: المنع، وبه قال أبو حنيفة. والصحة، وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وهو أصح لهذه الآية، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه في سبيل اللَّه، وقوله ﷺ في حق خالد: «**وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا فإنه قد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله**» الحديث[٥]... ولأنه مال ينتفع به في وجه قربة فجاز أن يوقف كالرِّباع»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦٢)، والنسائي (٦/ ٥٣٢-٥٣٣/ ٣٥٨١)، وصححه الحاكم (٢/ ٩٢) ووافقه الذهبي.

(٢) البقرة: الآية (١٨٠). (٣) ص: الآية (٣٢).

(٤) عمدة القاري (١٠/ ١٦٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢)، والبخاري (٣/ ٤٢٢/ ١٤٦٨)، ومسلم (٢/ ٦٧٦-٦٧٧/ ٩٨٣)، وأبو داود (٢/ ٢٧٣-٢٧٥/ ١٦٢٣)، والنسائي (٥/ ٣٤/ ٢٤٦٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٦).

قال ابن حزم: «والتحبيس وهو الوقف جائز في الأصول من الدور والأرضين بما فيها من الغراس والبناء إن كان، وفي الأرجاء وفي المصاحف والدفاتر، ويجوز أيضًا في الجيش والسلاح والخيل في سبيل اللَّه ﷻ في الجهاد فقط لا في غير ذلك»[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يمن الخيل في شقرها**»[2].

★ **غريب الحديث:**

شقرها: حمرة صافية مع ميل البشرة إلى البياض.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**كان رسول اللَّه ﷺ يكره الشكال من الخيل**»[3].

★ **غريب الحديث:**

الشكال من الخيل: هو أن تكون ثلاث قوائم منه محجلة، وواحدة مطلقة، تشبيهًا بالشكال الذي يشكل به الخيل؛ لأنه يكون في ثلاث قوائم غالبًا.

* عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**خير الخيل الأدهم الأقرح، المحجل الأرثم، طلق اليد اليمنى، فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشِّية**»[4].

★ **غريب الحديث:**

أدهم: الأدهم: الأسود.

الأقرح: ما كان في جبهته قرحة بالضمّ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرّة.

---

(١) المحلى (٩/ ١٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٢)، وأبو داود (٣/ ٤٨/ ٢٥٤٥)، والترمذي (٤/ ١٧٦/ ١٦٩٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث شيبان».

(٣) أخرجه: مسلم (٣/ ١٤٩٤/ ١٨٧٥) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٤٨-٤٩/ ٢٥٤٧)، والترمذي (٤/ ١٧٧/ ١٦٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٢٨-٥٢٩/ ٣٥٦٨-٣٥٦٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٣/ ٢٧٩٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٠٠)، والترمذي (٤/ ١٧٦/ ١٦٩٦-١٦٩٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (٢/ ٩٣٣/ ٢٧٨٩) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٥٣١/ ٤٦٧٦)، والحاكم (٢/ ٩٢) وقال: «هذا حديث غريب صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

المحجل: هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد، ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين؛ لأنهما مواضع الأحجال، وهي الخلاخيل والقيود.

الأرثم: هو الذي أنفه أبيض وشفته العليا.

كميت: الكميت من الخيل: ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

★ فوائد الأحاديث:

قال النووي: «قال العلماء: إنما كرهه -أي: الشكول من الخيل- لأنه على صورة المشكول. وقيل: يحتمل أن يكون قد جرب ذلك الجنس فلم يكن فيه نجابة. قال بعض العلماء: إذا كان مع ذلك أغرّ زالت الكراهة لزوال شبهة الشكال»[1].

فيه استحباب هذه الأنواع من الخيل كما بوّب على ذلك أبو داود في سننه على أحاديث الباب قائلًا: «باب فيما يستحبّ من ألوان الخيل»[2].

* * *

(١) شرح مسلم (١٣/ ١٨).

(٢) سنن أبي داود (٣/ ٤٧).

قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «أي: تخيفون بذلك أعداء اللَّه وأعداءكم من اليهود وقريش وكفار العرب»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وعدو اللَّه وعدوهم: هم المشركون، فكان تعريفهم بالإضافة لأنها أخصر طريق لتعريفهم، ولما تتضمنه من وجه قتالهم وإرهابهم، ومن ذمهم، أن كانوا أعداء ربهم، ومن تحريض المسلمين على قتالهم، إذ عُدوا أعداءً لهم، فهم أعداء اللَّه لأنهم أعداء توحيده، وهم أعداء رسوله ﷺ؛ لأنهم صارحوه بالعداوة، وهم أعداء المسلمين؛ لأن المسلمين أولياء دين اللَّه والقائمون به وأنصاره..

والإرهاب: جعل الغير راهبا، أي خائفا، فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناء للمسلمين، وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم، فيكون الغزو بأيديهم: يغزون أعداءهم متى أرادوا، وكان الحال أوفق لهم، وأيضًا إذا رهبوهم تجنبوا إعانة الأعداء عليهم»[(٣)].

قال الألوسي: «وفي الآية إشارة إلى عدم تعين القتال؛ لأنه قد يكون لضرب الجزية ونحوه مما يترتب على إرهاب المسلمين بذلك»[(٤)].

قال البقاعي: «والآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب «**اعقلها وتوكل**»[(٥)] والمعنى: لا تظنوا أن الكفار فاتونا وأفلتوا من عذابنا بامتناعهم منكم، فإنهم في قبضتنا أينما توجهوا وحيثما حلوا، فسوف نهلكهم ولا يعجزوننا، ومع ذلك

---

(١) الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٥٦-٥٧).

(٤) روح المعاني (١٠/ ٢٦).

(٥) أخرجه: ابن حبان (الإحسان ٢/ ٥١٠/ ٧٣١)، والحاكم (٣/ ٦٢٣) وسكت عنه. من حديث عمرو بن أمية الضمري ﷺ، قال الذهبي: «سنده جيد»، وفي الباب عن أنس بن مالك ﷺ.

فلا يحملنكم الاتكال على قوتنا على ترك أسباب مغالبتهم، بما أعطيناكم من القوى؛ بل ابذلوا جهدكم وطاقتكم في إعداد مكايد الحرب وما يتعلق بالرمي من القوة، وبالخيل من الطعن والضرب والفروسية؛ لنلقي بذلك رعبكم في قلوب عدوكم القريب والبعيد، من تعلمونه ومن لا تعلمونه»[١].

قال الرازي: «ثم إنه تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء. فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة: أولها: أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام. وثانيها: أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية. وثالثها: أنه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان. ورابعها: أنهم لا يعينون سائر الكفار. وخامسها: أن يصير ذلك سببًا لمزيد الزينة في دار الإسلام»[٢].

وقال السعدي: «وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[٣].

* * *

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣١٥).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ١٩٢).

(٣) تفسير السعدي (٣/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

اختلف أهل التفسير في هؤلاء الآخرين ومن هم، فقال بعضهم: هم بنو قريظة، وقال آخرون: هم من فارس، وقيل: هم المنافقون، وهو الذي رجحه الرازي وأبو حيان وابن كثير رحمهم اللَّه تعالى.

قال الرازي: «الأصح أنهم هم المنافقون، والمعنى: أن تكثير أسباب الغزو كما يوجب رهبة الكفار، فكذلك يوجب رهبة المنافقين، فإن قيل: المنافقون لا يخافون القتال، فكيف يوجب ما ذكرتموه من الإرهاب؟ قلنا: هذا الإرهاب من وجهين: الأول: أنهم إذا شاهدوا قوة المسلمين وقوة آلاتهم وأدواتهم انقطع عنهم طمعهم من أن يصيروا مغلوبين، وذلك يحملهم على أن يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم، ويصيروا مخلصين في الإيمان، والثاني: أن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات، ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين المسلمين، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك هذه الأفعال المذمومة»[2].

وقال ابن كثير: «ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[3]»[4].

قال الرازي: «إن المسلم كما يعاديه الكافر فكذلك قد يعاديه المسلم أيضًا، فإذا كان قوي الحال كثير السلاح، فكما يخافه أعداؤه من الكفار، فكذلك يخافه كل من يعاديه مسلما كان أو كافرا»[5].

قال محمد رشيد رضا: «وقال السهيلي: المراد كل من لا تعرف عداوته،

---

(١) الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) التوبة: الآية (١٠١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٣).

(٥) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٣).

والمعنى أنه عام فيهم وفي غيرهم من الأقوام الذين أظهرت الأيام بعد ذلك عداوتهم للمسلمين في عهد الرسول ﷺ، ومن بعده كالروم، وعجيب ممن ذكر الفرس في تفسيرها ولم يذكر الروم الذين كانوا أقرب إلى جزيرة العرب، بل قال بعضهم ما معناه: إنه يشمل من عادى جماعة المسلمين وأئمتهم من المسلمين أنفسهم، وقاتلهم كالمبتدعة الذين خرجوا على الجماعة وقاتلوهم أو أعانوا أعداءهم عليهم... والمختار عندنا أن العبارة تشمل كل من ظهرت عداوته بعد ذلك لجماعة المسلمين من أعداء اللّه ورسوله ومن المبتدعين في دينه الكارهين لجماعة المسلمين»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١٠/ ٧٢-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «ثم إنه تعالى حض في هذا المقام على إنفاق المال وغيره مما يعين على القتال، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ومهما تنفقوا من شيء نقدا كان أو غيره، قليلا كان أو كثيرًا في إعداد المستطاع من القوة، والمرابطة في سبيل الله، يعطكم الله جزاءه وافيا تاما. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: والحال أنكم لا تنقصون من جزائه شيئًا، أو لا يلحقكم في هذه الحالة ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم؛ لأن القوي المستعد لمقاومة المعتدين بالقوة قلما يعتدي عليه أحد، فإن اعتدى عليه فقلما يظفر به المعتدي وينال منه ما يعد به ظالما له، فأنتم ما ظلمتم بإخراجكم من دياركم وأموالكم إلا لضعفكم، وسيأتي التذكير بذلك الظلم في بيان الإذن الأول للمسلمين بالقتال، فهذا مبني على أن إعداد المستطاع من القوة على الجهاد والمرابطة في سبيل الله لا يمكن القيام به إلا بإنفاق المال الكثير، فلهذا رغب الله سبحانه عباده المؤمنين بالإنفاق في سبيله، ووعدهم بأن كل ما ينفقونه فيها يوف إليهم؛ أي: يجزون عليه جزاء وافيا، إما في الدنيا والآخرة كليهما، وإما في الآخرة فقط، كما أمر الله رسوله أن يقول للمنافقين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[1] الآية، .. فيجب على الأمة بذل ما يكفي للإعداد المذكور في الآية؛ فإن لم يبذلوا طوعا وجب على الإمام الحق العادل إلزام الأغنياء ذلك بحسب استطاعتهم؛ لوقاية الأمة والملة، كما قال في سياق أحكام القتال من سورة البقرة: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2] فسبيل الله

---

(١) التوبة: الآية (٥٢). (٢) البقرة: الآية (١٩٥).

هنا وهنالك هو الجهاد الواقي لأهل الحق من بغي أهل الباطل -وإن كان لفظه عاما يشمل كل ما يوصل إلى مرضاته ومثوبته من أعمال البر»[١].

وقال صديق حسن خان: «﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في الجهاد وإن كان يسيرا حقيرا، وقيل: هو أمر عام في كل وجوه الخيرات والطاعات، ويدخل فيه نفقة الغزو دخولا أوليا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره وجزاؤه في الآخرة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا، ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل اللَّه أي من ثوابها؛ بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾[٢].

والتعبير عنه بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة الثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى»[٣].

* * *

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٧٥-٧٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٥).

(٣) فتح البيان (٥/ ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾[1]

★ غريب الآية:

جَنَحُوا: مالوا وأصله من جنحت السفينة أي: مالت بأحد جانبيها، وجانباها جناحاها.

يخدعوك: الخدع من الخداع وهو الفساد ثم عبر به عن المكر والكيد لما فيهما من الفساد، وقيل: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، ومنه المخدع لموضع خفي في البيت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإما تخافن من قوم خيانة وغدرا فانبذ إليهم على سواء وآذنهم بالحرب، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية وإما بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه»[2].

وقال أيضًا: «وإن يرد يا محمد هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة، وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم خداعك والمكر بك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ يقول: فإن اللَّه كافيكهم وكافيك خداعهم إياك؛ لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمن أن يجعل كلمته العليا، وكلمة أعدائه السفلى»[3].

قال السعدي: «في ذلك فوائد كثيرة: منها أن طلب العافية، مطلوب في كل وقت فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم .

(١) الأنفال: الآيتان (٦١-٦٢).
(٢) جامع البيان (١٠/ ٣٣).
(٣) جامع البيان (١٠/ ٣٥).

ومنها: أن في ذلك استجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم، وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فكل من له عقل وبصيرة، إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له.

فصار السلم، عونا للمسلمين على الكافرين. ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين وانتهاز الفرصة. فأخبر الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره»[1].

قال القرطبي: «وقد اختلف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا، فقال قتادة وعكرمة: نسخها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[2] ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3] نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا لا إله إلا الله.

ابن عباس: الناسخ لها ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[4].

وقيل: ليست بمنسوخة؛ بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية، وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن بعده من الأئمة كثيرًا من بلاد العجم؛ على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه، وهم قادرون على استئصالهم. وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيرًا من أهل البلاد على مال يؤدونه؛ من ذلك خيبر، رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف، قال ابن إسحاق: قال مجاهد: عني بهذه الآية قريظة؛ لأن الجزية تقبل منهم، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء. وقال السدي وابن زيد معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم، ولا نسخ فيها»[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٥-١٨٦).
(٢) التوبة: الآية (٥).
(٣) التوبة: الآية (٣٦).
(٤) محمد: الآية (٣٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٧).

قال مكي بن أبي طالب القيسي: «وقيل الآية محكمة غير منسوخة، وأن اللَّه أمر نبيه في الأنفال أن يميل إلى الصلح إن مالوا إليه وابتدأوه بذلك، ونهاه في سورة محمد ﷺ أن يبتدئ بطلب الصلح منهم قبل أن يطلبوا هم ذلك منه، فالآيتان محكمتان على معنيين مختلفين لا ينسخ أحدهما الآخر»[١].

قال ابن العربي: «عقد الصلح ليس بلازم للمسلمين، وإنما هو جائز باتفاقهم أجمعين؛ إذ يجوز من غير خلاف للإمام أن يبعث إليهم، فيقول: نبذت إليكم عهدكم، فخذوا مني حذركم، وهذا عندي إذا كانوا هم الذين طلبوه؛ فإن طلبه المسلمون لمدة لم يجز تركه قبلها إلا باتفاق»[٢].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمر في الآية المتقدمة بالصلح، ذكر في هذه الآية حكما من أحكام الصلح، وهو أنهم إن صالحوا على سبيل المخادعة، وجب قبول ذلك الصلح؛ لأن الحكم يبنى على الظاهر؛ لأن الصلح لا يكون أقوى حالا من الإيمان، فلما بنينا أمر الإيمان عن الظاهر لا عن الباطن، فهاهنا أولى، ولذلك قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ المراد من تقدم ذكره في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ فإن قيل: أليس قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أظهر نقض ذلك العهد، وهذا يناقض ما ذكره في هذه الآية؟ قلنا: قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ محمول على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها، وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل في قلوبهم نوع نفاق وتزوير، إلا أنه لم تظهر أمارات تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة؛ بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسالمة وترك المنازعة، ثم إنه تعالى لما ذكر ذلك، قال﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: فاللَّه يكفيك وهو حسبك»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم مهادنة الكفار

* عن عوف بن مالك قال: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: **اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذ**

(١) الناسخ المنسوخ (ص: ٣٠٠).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٧٦).
(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٤-١٩٥).

فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا»[١].

★ غريب الحديث:

موتان: الموت الكثير الوقوع.

قعاص: القُعاص، بالضمّ: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت.

بني الأصفر: يعني الروم؛ لأن أباهم الأول كان أصفر اللون.

غاية: أي: راية، سميت بذلك لأنها غاية المتّبع، إذا وقفت وقف.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفي هذه -أي الآية- إشارة إلى أن احتمال طلب الصلح خديعة لا يمنع من الإجابة إذا ظهر للمسلمين بل يعزم ويتوكل على الله»[٢].

قلت: وقد ثبت تفسير هذه الهدنة المعدودة في هذا الحديث من أشراط الساعة بأحسن الوجوه وأبسطها، فعن حسان بن عطية، قال: مال مكحول وابن أبي زكرياء إلى خالد بن معدان، وملت معهم، فحدثنا عن جبير بن نفير عن الهدنة قال: قال جبير: انطلق بنا إلى ذي مخبر رجل من أصحاب النبي ﷺ، فأتيناه، فسأله جبير عن الهدنة، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«ستصالحون الروم صلحًا آمنًا فتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائكم، فتنصرون، وتغنمون، وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة»**[٣].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٧٧/ ٣١٧٦).

(٢) فتح الباري (٦/ ٣٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٤٨١/ ٤٢٩٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٩/ ٤٠٨٩) وقال البوصيري: «إسناده حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان: ١٥/ ١٠١-١٠٣/ ٦٧٠٨-٦٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٤٢١) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أيدك: مَكَّنَكَ وقَوَّاكَ. والأَيْدُ: القوة. والأيْد والأيّد ذوا القوة الشديدة.

ألف: أصل التأليف: الجمع. والمعنى: جمع بين قلوبهم في محبة اللَّه ﷻ، والألفة اجتماع مع التئام يقال: ألف المكان يألفه إلفا إذا أحبه ولم يطب نفسا بفراقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلية أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن اللَّه الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث، والمراد بالمؤمنين المهاجرون والأنصار.

فإن قلت: إذا كان اللَّه قد أيده بنصره، فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: التأييد والنصر من اللَّه ﷻ وحده، لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة، وبأسباب ظاهرة معلومة، فأما الذي يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة، وأما الذي يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن أسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون، واللَّه تعالى هو مسبب الأسباب، وهو الذي أقامهم لنصره»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلقد نصرك اللَّه من

---

(١) فتح البيان (٥/ ٢٠٦).

قبل، ورد عنك بأس القوم الظالمين، فلم تغنهم كثرتهم من اللَّه شيئًا . وقد نصرك اللَّه كذلك بالمؤمنين الذين لم ترهبهم كثرة العدو وقوته؛ بل لقد ألقوا بأنفسهم في حومة القتال، وهم على نية الاستشهاد في سبيل اللَّه. فكانوا جندا من جنود اللَّه معك.

وفي عطف (المؤمنين) على قوله تعالى: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾تكريم لهؤلاء المؤمنين الذين اجتمعوا إلى النبي، وقاتلوا تحت رايته، وأنهم قوة من قوى الحق، وجند من جنود اللَّه، ينصر بهم من يشاء من عباده»[١].

وقال ابن جرير: «يريد -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرق والتشتت على دينه الحق، فصيرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتا، وإخوانا بعد أن كانوا أعداء. وقوله: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعًا من ذهب وورق وعرض ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن اللَّه جمعها على الهدى، فائتلفت واجتمعت تقوية من اللَّه لك، وتأييدا منه، ومعونة على عدوك، يقول -جل ثناؤه-: والذي فعل ذلك وسببه لك، حتى صاروا لك أعوانا وأنصارا، ويدا واحدة على من بغاك سوءا، هو الذي إن رام عدو منك مراما يكفيك كيده، وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه»[٢].

وقال الزمخشري: «التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول اللَّه ﷺ من الآيات الباهرة؛ لأنّ العرب -لما فيهم من الحمية والعصبية، والانطواء على الضغينة في أدنى شيء، وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا- لا يكاد يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول اللَّه ﷺ، واتحدوا، وأنشؤوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم اللَّه من ألفتهم وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب. فهو يقلبها كما شاء. ويصنع فيها ما أراد، وقيل: هم الأوس والخزرج، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ودق جماجمهم، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٥١-٦٥٢).

(٢) جامع البيان (١٠/ ٣٥-٣٦).

وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه، فأنساهم اللَّه تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة، وتصافوا، وصاروا أنصارًا، وعادوا أعوانًا، وما ذاك إلا بلطيف صنعه، وبليغ قدرته»[١].

وقال الرازي: «إن النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة، وحميتهم عظيمة، حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة، قاتل عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا، وعادوا أعوانا، وقيل: هم الأوس والخزرج، فإن الخصومة كانت بينهم شديدة، والمحاربة دائما، ثم زالت الضغائن وحصلت الألفة والمحبة، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية، والمخالصة التامة مما لا يقدر عليها إلا اللَّه تعالى، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد ﷺ»[٢].

قال أيضًا: «دلت هذه الآية على أن القوم كانوا قبل شروعهم في الإسلام ومتابعة الرسول في الخصومة الدائمة والمحاربة الشديدة، يقتل بعضهم بعضا، ويغير بعضهم على البعض، فلما آمنوا باللَّه ورسوله واليوم الآخر، زالت الخصومات، وارتفعت الخشونات، وحصلت المودة التامة والمحبة الشديدة»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أنه لولا نعمة اللَّه عليهم بالإيمان وأخوته التي هي أقوى عاطفة ومودة من أخوة الأنساب والأوطان، لما أمكنك يا محمد أن تؤلف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، ولو أنفقت جميع ما في الأرض من الأموال والمنافع في سبيل هذا التأليف، أما الأنصار فلأن الأضغان الموروثة، وأوتار الدماء المسفوكة، وحمية الجاهلية الراسخة لا تزول بالأعراض الدنيوية العارضة، وإنما تزول بالإيمان الصادق الذي هو مناط سعادة الدنيا والآخرة، وأما المهاجرون فلأن التأليف بين غنيهم وفقيرهم، وسادتهم ومواليهم، وأشرافهم ودهمائهم على ما كان فيهم من كبرياء الجاهلية

---

(١) الكشاف (٣/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٥).

(٣) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٦).

وجمع كلمتهم على احتمال عداوة بيوتهم وعشائرهم وحلفائهم في سبيل اللَّه لم يكن كله مما يمكن نيله بالمال وآمال الدنيا -ولم يكن في يد الرسول ﷺ شيء منهما في أول الإسلام، ولكن صار بيده في المدينة شيء عظيم منهما بنصر اللَّه له في قتال المشركين واليهود جميعًا- وأما مجموع المهاجرين والأنصار فقد كان اجتماعهما لولا فضل اللَّه وعنايته مدعاة التحاسد والتنازع لما سبق لهما من عصبية الجاهلية، وما كان لدى المهاجرين من مزية قرب الرسول والسبق إلى الإيمان به، وما لدى الأنصار من المال والقوة وإنقاذ الرسول والمهاجرين جميعًا من ظلم قومهم، ومن المنة عليهم بإيوائهم ومشاركتهم في أموالهم، وفي هذا وذاك من دواعي التغاير والتحاسد ما لا يمكن أن يزول بالأسباب الدنيوية، فهو تعالى يقول للرسول لست أنت المؤلف بينهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بهدايتهم إلى هذا الإيمان بالفعل الذي دعوتهم إليه بالقول ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] وإنما عليك البلاغ، وهداية الدعوة والبيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] بالدعاية، وتدعو اللَّه أنت ومن آمن معك بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالفعل والتوفيق والعناية. وهذا ثناء من اللَّه ﷻ على صحابة رسوله تفند مطاعن الرافضة الضالة الخاسرة فيهم»[3].

وقال أيضًا: «وقد ختم اللَّه تعالى هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لأنه تعليل لكفاية اللَّه لرسوله شر خداع الأعداء، وتأييده بنصره وبالمؤمنين، لا للتأليف بين المؤمنين، فإن العمدة في الكلام هو الكفاية والتأييد، وهو المناسب لكونه تعالى هو العزيز أي الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين، ولا كيد الماكرين، الحكيم في أفعاله كنصره الحق على الباطل، وفي أحكامه كتفضيله الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب كما تقدم، ولو كان تعليلا للتأليف بين المؤمنين وحده لكان الأنسب أن يعلل بقوله: (إنه رءوف رحيم) على أن هذا التأليف في هذا المقام ما كان إلا بعزة اللَّه وحكمته في إقامة هذا الدين»[4].

---

(١) القصص: الآية (٥٦). (٢) الشورى: الآية (٥٢).
(٣) تفسير المنار (١٠/ ٨١-٨٢).
(٤) تفسير المنار (١٠/ ٨٣).

وقال البقاعي: «ثم علل نفوذ فعله وأمره فيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي؛ لأنه لولا عزته التي تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء، وحكمته التي يتقن بها ما أراد، بحيث لا يمكن لأحد أن يغير شيئًا منه لما تألفوا بعد أن كان قبل[١] كل أحد من فريقيهم للآخر أشهى من لذيذ الحياة وصافي العيش، لما بينهم من الإحن التي لا تزال تثور فتغلي لها الصدور حتى تفور بقتل الأحباب من الوالدين والأولاد، والقهر بأنواع الأذى، مع المجاورة المقتضية لدوام التحاسد وإثارة الضغائن، وكذا فعل سبحانه بجميع العرب بعدما كان بينهم من القتل المنتشر مع ما لهم من الحمية والأنفة الحاملة على الانتقام.

والذي أمدك بهذه الألطاف حي لا يموت، باق على ما كان عليه من القدرة والقوة، فهو الكفيل بحراستك ممن يريد خداعك، فإذا أمركم بأمر فامتثلوه غير مفكرين في عاقبته، فإنه قد بينه بعزته، وأتقنه بحكمته، وستعلمون»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن تأليف القلوب نعمة من الله

* عن عبد اللَّه بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء اللَّه على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم اللَّه بي، وكنتم متفرقين فألفكم اللَّه بي، وعالة فأغناكم اللَّه بي؟**» كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمن. قال: «**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول اللَّه ﷺ؟**» قال: كلما قال شيئًا قالوا اللَّه ورسوله أمن. قال: «**لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة، لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها. الأنصار شعار، والناس دثار. إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[٣].

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: قتل.

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣١٨-٣١٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢)، والبخاري (٨/ ٥٩/ ٤٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩/ ١٠٦١).

★ **غريب الحديث:**

العالة: الفاقة والفقر.

شعار: بالكسر: ما ولي الجسد من الثياب.

الدثار: بالكسر: كل ما كان من الثياب فوق الشعار.

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث «حسن أدب الأنصار في تركهم المماراة، والمبالغة في الحياء، وبيان أن الذي نقل عنهم إنما كان عن شبانهم لا عن شيوخهم وكهولهم».

«وفيه مناقب عظيمة لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم»[(١)].

قوله: «**فألفكم الله بي**»: **قال القرطبي**: «أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين. وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنى متقارب»[(٢)].

قال ابن الملقن: «وأحسن الصحابة ﷺ الأدب في جوابهم، وحسن خطابهم مع اعترافهم بالحق وترك المماراة لا جرم أعقبهم الله ﷻ من حسن أدبهم شكر رسوله لهم وثناءه عليهم، فسبحان من اجتباهم! وامتن عليهم بصحبته ونصرته. والأمر كما ذكروا، فالمنة في ذلك لله ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾[(٣)]»[(٤)].

❁ عن ابن مسعود ﷺ قال: «لما أنزلت هذه الآية: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: هم المتحابون في الله»[(٥)].

---

(١) الفتح (٨/ ٦٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٤٢).
(٣) الحجرات: الآية (١٧).
(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ١٠٨).
(٥) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٢/ ١١٢١٠) واللفظ له، وابن المبارك في الزهد (١/ ٣٣٤/ ٣٤٧)، والبزار: (كشف الأستار ٣/ ٥٠/ ٢٢١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٧)، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان (١٤)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٩٠٣١) وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٨-٣٢٩) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧-٢٨) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم وهو ثقة». كذا في المجمع والصواب: «سلم بن جنادة».

★ **فوائد الحديث:**

قال صديق حسن خان: «هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد اللَّه بهم رسوله ﷺ، وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف تأليف اللَّه تعالى بينهم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «لا يوجد سبب للتوحيد والتعاون بين البشر كالتآلف والتحاب، ولا يوجد سبب للتحاب والتآلف كأخوة الإيمان... وقد ورد من الأحاديث في التحاب في اللَّه ما ينبئ بشأن هذه الفضيلة ويرغب فيها، واتفق حكماء البشر غابرهم وحاضرهم على أن المحبة أعظم الروابط بين البشر، وأقوى الأسباب لسعادة الاجتماع الإنساني وارتقائه، واتفقوا أيضًا على أن المحبة إذا فقدت لا يحل محلها شيء في منع الشر، والوقوف عند حدود الحق، إلا فضيلة العدل. ولما كانت المحبة وهبية غير اختيارية، وكان العدل من الأعمال الكسبية، جعل الإسلام المحبة فضيلة، والعدل فريضة»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المؤمن مألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «أي هو محل ومظنة للإلف، ومن شأنه ذلك، لحسن خلقه، وكرم طبعه، ومحبته لغيره، مثل ما يحب لنفسه»[4].

---

(١) فتح البيان (٥/ ٢٠٧).
(٢) تفسير المنار (١٠/ ٨٢).
(٣) أخرجه: أحمد وابنه عبد اللَّه (٢/ ٤٠٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٦-٢٣٧)، والحاكم (١/ ٢٣). كلهم من حديث أبي صخر، عن أبي حازم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، إلا الحاكم فقد سقط من سنده أبو صالح.
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة»، وتعقبه الذهبي بقوله: «علته انقطاعه، فإن أبا حازم هذا هو المديني لا الأشجعي، ولم يلق أبو صخر الأشجعي، ولا المديني لقي أبا هريرة.
وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٧٨٧) متعقبا قول الذهبي: «قد وصله أحمد وابنه عبد اللَّه بذكر أبي صالح بين المديني وأبي هريرة كما سبق، وهما ثقتان حجتان، وتابعهما أبو الشيخ، فزالت بذلك العلة، وثبت الحديث والحمد لله».
وللحديث شاهد من حديث سهل بن سعد الساعدي (انظر الصحيحة حديث رقم ٤٢٥) وآخر من حديث جابر بن عبد اللَّه (انظر الصحيحة حديث رقم ٤٢٦).
(٤) حاشية المسند (١٥/ ١٠٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «لما أمر اللَّه تعالى رسوله في الآية (٦١) أن يجنح للسلم إذا جنح لها الأعداء، وكان جنوح الأعداء لها مظنة الخداع والمكر كما تقدم قريبا في تفسيرها، وعده ﷻ في الآية (٦٢) بأن يكفيه أمرهم إذا هم أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب، أو غيرها من الإيذاء والشر، وامتن عليه بما يدل على كفايته إياه وهو تأييده له بنصره وبالمؤمنين إذ سخرهم له، وألف بين قلوبهم باتباعه. ثم إنه تعالى وعده بكفايته له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم عليه في حال الحرب كحال السلم، وفي كل حال، وجعل هذا الوعد تمهيدا لما بعده من أمره بتحريضهم على القتال عند الحاجة إليه من بدء العدو بالحرب، أو خيانتهم في الصلح، أو نقضهم للعهد، أو غير ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن اللَّه تعالى هو كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيره، وكاف لمن أيدك بهم من المؤمنين. فالحسب في تلك الآية كفاية خاصة به ﷺ في حال خاصة، وفي هذه كفاية عامة له ولمن اتبعه من المؤمنين في كل حال من قتال أو صلح يفي به العدو أو يخون، وفي غير ذلك من الشؤون. ويحتمل أن يكون العطف على معنى: وحسبك من اتبعك من المؤمنين، أي فإنه ينصرك بهم. ولكن مقتضى كمال التوحيد هو الأول وهو كفاية اللَّه تعالى له ولهم. .

أقول: وهذا المعنى قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وأبطل مقابله. فاحتمال عطف من اتبعه من المؤمنين على اسم الجلالة باطل من حيث المعنى كما قال»[1].

قال شيخ الإسلام: «فكل من اتبع الرسول من جميع المؤمنين فاللَّه حسبه وهذا معنى كون اللَّه معه. والكفاية المطلقة مع الاتباع المطلق، والناقصة مع الناقص»[2].

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٨٣-٨٥).

(٢) منهاج السنة (٨/ ٤٨٧).

وقال أيضًا: «ومن قال إن اللَّه والمؤمنين حسبك فقد ضل؛ بل قوله من جنس قول الكفرة فإن اللَّه وحده هو حسب كل مؤمن به؛ والحسب الكافي كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «وهذا وعد من اللَّه لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء. فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلابد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها»[3].

* * *

(١) الزمر: الآية (٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٥٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

حَرِّض المؤمنين: أي: حثهم وحضهم. والحارض الذي قارب الهلاك؛ لأن التحريض: الحثُّ على الشيء بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه، كأنه من حرضه أي: أزال عنه الحرض. قال الزجاج: وتأويل التعريض في اللغة أن تحُثَّ الإنسان حَثًّا يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران»[2].

قال السعدي: «أي: حثهم واستنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم، وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد، ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة، والصبر، وما يترتب على ذلك، من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة، المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[3]»[4].

وقال البقاعي: «والتحريض الحث على حضور الشيء، فحرض على القتال حث على الطيران إلى الجهاد بتعاطي أسبابه، والاستعداد لحضوره حتى يصير المحثوث كأنه حاضر، متى قيل: ياصباحاه! طار إلى المنادي، وكان أول حاضر إلى النادي؛ لأنه لا مانع له من شيء من الأشياء، بل استعداده استعداد الحاضر في الصف»[5].

---

(١) الأنفال: الآية (٦٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٦).
(٣) النساء: الآية (١٠٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٧).
(٥) نظم الدرر (٨/ ٣٢١).

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى: يا أيها النبي ﷺ حرض المؤمنين على القتال، ورغبهم فيه لدفع عدوان الكفار، وإعلاء كلمة الحق والعدل وأهلها على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما؛ لأنه من ضرورات الاجتماع البشري وسنة التنازع في الحياة والسيادة كما تقدم بيانه في تفسير هذا السياق، ويشير إليه هنا اختيار التحريض على ما هو في معناه العام كالتحضيض والحث، كأنه يقول: حثهم على ما يقيهم أن يكونوا حرضا أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم لهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «والأمر بتحريض النبي للمؤمنين على القتال، إنما جاء بعد أن أمروا بأن يعدوا لقتال ما استطاعوا من عدد الحرب ووسائل القتال، من صلاح، وعتاد، وخيل، وذلك بعد أن أعدوا الرجال الذين راضوا أنفسهم على الجهاد في سبيل اللَّه، ووطنوها على الاستشهاد ابتغاء مرضاة اللَّه.

فإذا جاء النبي بعد هذا يحرض المؤمنين على القتال، ويستحثهم له، ويغريهم به، وجد قلوبا صاغية إليه، ونفوسا مستجيبة لما يندبهم له، إذ كان إنما يدعو مؤمنين استجابوا للحرب، ويستحث جنودا أعدوا أنفسهم للحرب، ورصدوها للدفاع عن دين اللَّه، وملئوا أيديهم بالسلاح، كما ملئوا قلوبهم بالإيمان»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحريض على القتال

* عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**». قال: بخ بخ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ**» قال: لا واللَّه يا رسول الله! إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[3].

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٨٧). (٢) التفسير القرآني (٥/ ٦٦٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٦-١٣٧)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩-١٥١١/ ١٩٠١) واللفظ له.

★ **غريب الحديث:**

بخ: هي كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء وتكرّر للمبالغة، وهي مبنية على السكون، فإن وصلت جرّت ونوّنت، فقلت: بخٍ بخٍ.

قرنه: أي: جعبته.

رجاءة: قال النووي: «هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة «رجاءة» بالمد ونصب التاء، وفي بعضها «رجاء» بلا تنوين، وفي بعضها بالتنوين ممدودان بحذف التاء، وكله صحيح معروف في اللغة. ومعناه: والله ما فعلته لشيء إلا لرجاء أن أكون من أهلها».

* عن أنس ﷺ يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: **«اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة»**. فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا[1]

★ **غريب الحديث:**

الخندق: حفير حول أسوار المدن.

★ **فوائد الحديثين:**

فيه مشروعية الحضّ على القتال والمبالغة في الحث عليه. وقد كان النبي ﷺ يحرض أصحابه عند صفّهم ومواجهة العدوّ[2].

قال الحافظ: «إن في مباشرته ﷺ الحفر بنفسه تحريضًا للمسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك»[3].

قال العيني: «وفي قوله ﷺ: «اللهم إن العيش عيش الآخرة» تحريضهم على ما هم فيه لكونه من الجهاد»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٠)، والبخاري (٦/ ٥٧/ ٢٨٣٤)، ومسلم (٣/ ١٤٣١/ ١٨٠٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٤/ ٨٣١٧).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٩٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٧).

(٤) عمدة القاري (١٠/ ١٥٠-١٥١).

وقال: «وفيه من الفوائد أن للحفر في سبيل اللَّه، وتحصين الديار، وسد الثغور منها أجر كأجر القتال، والنفقة فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى سبعمائة ضعف. وفيه استعمال الرجز والشعر إذا كانت فيه إقامة النفوس وإثارة الأنفة والمعرة»[1].

* * *

(١) عمدة القاري (١٠/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

★ غريب الآية:

ضعفًا: الضعف يقابل القوة. قال الخليل: بالضم في البدن وبالفتح في العقل والرأي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلا، ﴿صَٰبِرُونَ﴾ عند لقاء العدو، يحتسبون أنفسهم، ويثبتون لعدوهم ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾، من عدوهم ويقهروهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾، عند ذلك ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾، منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، يقول: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب؛ لأنهم لم يفقهوا أن اللَّه مُوجبٌ لمن قاتل احتسابًا، وطلب موعود اللَّه في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم. ثم خفف -تعالى ذكره- عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾؛ يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾، عند لقائهم للثبات لهم ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ منهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟﴾ منهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني: بتخلية اللَّه إياهم لغلبتهم، ومعونته إياهم ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، لعدوهم وعدو اللَّه، احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه، بالعون منه

له، والنصر عليه»[١].

وقال السعدي: «وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين -في أول الأمر- أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم إذا غلب على ظنهم الضرركما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر لازم، وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل»[٢].

قال الرازي: «الذي استقر عليه حكم التكليف عليه بمقتضى هذه الآية أن كل

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٣٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٨٨-١٨٩).

مسلم بالغ مكلف وقف بإزاء مشركَيْن، عبدا كان أو حرا فالهزيمة عليه محرمة ما دام معه سلاح يقاتل به، فإن لم يبق معه سلاح فله أن ينهزم، وإن قاتله ثلاثة حلت له الهزيمة، والصبر أحسن»[1].

وقال أيضًا: «إنه تعالى بين العلة في هذه الغلبة، وهو قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وتقرير هذا الكلام من وجوه: «الوجه الأول: أن من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالمعاد، فإن غاية السعادة والبهجة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية، ومن كان هذا معتقده فإنه يشح بهذه الحياة ولا يعرضها للزوال، أما من اعتقد أنه لا سعادة في هذه الحياة، وأن السعادة لا تحصل إلا في الدار الآخرة، فإنه لا يبالي بهذه الحياة الدنيا، ولا يلتفت إليها ولا يقيم لها وزنا، فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح، ومتى كان الأمر كذلك، كان الواحد من هذا الباب يقاوم العدد الكثير من الباب الأول.

الوجه الثاني: أن الكفار إنما يعولون على قوتهم وشوكتهم، والمسلمون يستعينون بربهم بالدعاء والتضرع، ومن كان كذلك كان النصر والظفر به أليق وأولى»[2].

وقال الشوكاني: «وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرًا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال، وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين، بل مثل نصفهم بل مثلهم، وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر»[3].

وقال أيضًا: «وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه»[4].

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ٢٠٢). (٢) التفسير الكبير (١٥/ ١٩٩).
(٣) فتح القدير (٢/ ٤٥٤).
(٤) فتح القدير (٢/ ٤٥٥).

وقال محمد رشيد رضا: «ومعنى هذا التعليل أن هذه النسبة العشرية بين الصابرين منكم وبينهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب، وما يجب أن تكون وسيلة له من المقاصد العالية في الإيجاب والسلب، وما يقصد بها من سعادة الدنيا والآخرة، ومرضاة اللَّه ﷻ في إقامة سننه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والآداب العالية، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه ووعوده تعالى فيها بإعداد كل ما يستطاع من قوة مادية، ومرابطة دائمة، ومن قوة معنوية كالصبر والثبات وعدم الفرار من الزحف إلا تحيزا إلى فئة أو تحرفا لقتال، وذكر اللَّه تعالى واستمداد نصره في تلك الحال، ومن كون غاية القتال عند المؤمن إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة الدنيوية، أو الشهادة والسعادة الأخروية، وغير ذلك مما مر أكثره في هذا السياق، وهو كاف في تفسير القرآن بالقرآن. وذلك كله بخلاف حال الكافرين ولا سيما منكري البعث والجزاء كمشركي العرب في ذلك العهد، وكذلك اليهود الذين غلبت عليهم المطامع المادية وحب الشهوات، فأغراض الفريقين من القتال حقيرة خسيسة مؤقتة يصرفهم عن الصبر والثبات فيها اليأس من حصولها، وهم أحرص من المؤمنين على الحياة لعدم إيمان المشركين منهم بسعادة الآخرة، ولغرور أهل الكتاب بحصولها لهم بنسبهم، وشفاعة أنبيائهم وإن لم يسعوا لها سعيها»[1].

وقال: «والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين، وأفقه بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم، وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب في كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين. وهكذا كان المسلمون في قرونهم الأولى والوسطى بهداية دينهم على تفاوت علمائهم وحكامهم في ذلك، حتى إذا ما فسدوا بترك هذه الهداية التي سعدوا بها في دنياهم، فكانوا أصحاب ملك واسع، وسيادة عظيمة دانت لهم بها الشعوب الكثيرة، زال ذلك المجد والسؤدد، ونزع منهم أكثر ذلك الملك، وما بقي منه فهو على شفا جرف هار، وإنما بقاؤه بما يسمى في عرف علماء العصر بحركة الاستمرار، إذ صاروا أبعد عن العلم والفقه الذي فضلوا به غيرهم من المشركين ومن أهل الكتاب

(١) تفسير المنار (١٠/ ٨٨).

جميعًا، ثم انتهى المسخ والخسف بأكثر الذين يتولون أمورهم إلى اعتقاد منافاة تعاليم الإسلام للملك والسيادة، والقوة والعلوم والفنون التي هي قوامها، فصاروا يتسللون من الإسلام أفرادا، ثم صرح جماعات من زعمائهم ورؤسائهم بالكفر به والصد عنه جهارا، ولكن بعد أن صار علماؤهم يعادون أكثر تلك العلوم والفنون التي أرشدهم إليها القرآن، وأوجب منها من يتوقف عليه الجهاد في سبيل اللَّه والعمران»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾» قال: فلما خفف اللَّه عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم»[2].

★ فوائد الحديث:

قال النحاس: «هذا شرح بيّن حسن أن يكون هذا تخفيفًا لا نسخًا؛ لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ، ولم يرفع حكم الأول؛ لأنه لم يقل فيه: لا يقاتل الرجل عشرة، بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له، ونظير هذا إفطار الصائم في السفر، لا يقال إنه نسخ الصوم وإنما هو تخفيف ورخصة والصيام له أفضل»[3].

وقال القرطبي: «وحديث ابن عباس يدلّ على أن ذلك فرض، ثم لما شق عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد للإثنين فخفف عليهم، فكتب عليهم أن لا يفر مائة من مائتين، فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ وهذا حسن»[4].

والصواب من القول في ذلك أن الآية منسوخة وهو الذي رجحه الطبري وقرره

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٨٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٩٨/ ٤٦٥٣)، وأبو داود (٣/ ١٠٥-١٠٦/ ٢٦٤٦).

(٣) الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٤٥).

ابن عطية وردّ على من خالف في ذلك حيث قال: «وتظاهرت الروايات عن ابن عباس وغيره من الصحابة بأن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضًا من اللَّه ﷻ على المؤمنين، ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للإثنين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو النسخ؛ لأنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف، إذ هذا من نسخ الأثقل بالأخف، وذهب بعض الناس إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للإثنين، وروي أيضًا هذا عن ابن عباس، قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي، قال مكي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يأثم وأجزأه.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحًا من أن يقال نسخ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى، وهذه الآية التخفيف فيها على النسخ للثبوت للعشرة، وسواء كان الثبوت للعشرة فرضًا أو ندبًا هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نسخ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال له نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول وهو غيره، وذكر في ذلك خلافًا.

قال القاضي أبو محمد: والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيدًا لا بإطلاق»[1].

قال أبو بكر الجصاص: «في هذه الآية دلالة على بطلان من أبى وجود النسخ في شريعة النبي ﷺ وإن لم يكن قائله معتدا بقوله؛ لأنه قال تعالى ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ والتخفيف لا يكون إلا بزوال بعض الفرض الأول أو النقل عنه إلى ما هو أخف منه، فثبت بذلك أن الآية الثانية ناسخة للفرض الأول، وزعم القائل بما ذكرنا من إنكار النسخ لأنه ليس في الآية أمر، وإنما فيه الوعد بشريطة، فمتى وفى بالشرط أنجز الوعد، وإنما كلف كل قوم من الصبر على قدر استطاعتهم، فكان على الأولين ما ذكر من

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥٥٠).

مقاومة العشرين للمائتين، والآخرون لم يكن لهم من نفاذ البصيرة مثل ما للأولين، فكلفوا مقاومة الواحد للاثنين، والمائة للمائتين، قال: ومقاومة العشرين للمائتين غير مفروضة، وكذلك المائة للمائتين، وإنما الصبر مفروض على قدر الإمكان، والناس مختلفون في ذلك على مقادير استطاعتهم، فليس في الآية نسخ زعم.

قال أبو بكر: هذا كلام شديد الاختلال والتناقض، خارج عن قول الأمة سلفها وخلفها، وذلك لأنه لا يختلف أهل النقل والمفسرون في أن الفرض كان في أول الإسلام مقاومة الواحد للعشرة، ومعلوم أيضًا أن قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ وإن كان لفظه لفظ الخبر فمعناه الأمر، كقوله تعالى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[2] وليس هو إخبارا بوقوع ذلك، وإنما هو أمر بأن لا يفر الواحد من العشرة، ولو كان هذا خبرا لما كان لقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ معنى؛ لأن التخفيف إنما يكون في المأمور به لا في المخبر عنه، ومعلوم أيضًا أن القوم الذين كانوا مأمورين بأن يقاوم الواحد منهم العشرة من المشركين داخلون في قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلا محالة قد وقع النسخ عنهم فيما كانوا تعبدوا به من ذلك، ولم يكن أولئك القوم قد نقصت بصائرهم، ولا قل صبرهم، وإنما خالطهم قوم لم يكن لهم مثل بصائرهم ونياتهم، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فبطل بذلك قول هذا القائل بما وصفنا، وقد أقر هذا القائل أن بعض التكليف قد زال منهم بالآية الثانية، وهذا هو معنى النسخ والله أعلم بالصواب»[3].

وقال الحافظ: «واستدل بهذا الحديث على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار، وتحريم الفرار عليه منهما، سواء طلباه أو طلبهما، سواء وقع ذلك وهو واقف في الصف مع العسكر أو لم يكن هناك عسكر، وهذا هو ظاهر تفسير ابن عباس، ورجحه ابن الصباغ من الشافعية، وهو المعتمد»[4].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٣٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٢٨).
(٣) أحكام القرآن (٣/ ٧١).
(٤) فتح الباري (٨/ ٣٩٨-٣٩٩).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أسرى: الأسير: من أُخِذَ في الحرب. وأصل الأَسْرِ: الشَّدُّ بالإِسَار، وهو القِدُّ ويسمى الأخيذ أسيرا ومأسورا لشده بذلك، ثم أطلق على كل من أخذ بقوة وإن لم يشد به.

يُثْخِنُ: يكثر قتل العدو والمحارب. والإثخان: تكثير الشيء وتطبيقه بعضه على بعض. ومنه ثوب ثخين أي متركب الغزل قوي النسج والإثخان مشتق من الثخانة وهي الغلظ والكثافة في الأجسام، ثم يستعار ذلك في كثرة القتل والجراحات، فيقال: أثخنته الجراح أي أثقلته حتى أثبتته. والإثخان القهر.

عرض الدنيا: أي متاعها سمي بذلك لقلة ثباته واستقراره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن، والأسر في كلام العرب الحبس... وإنما قال اللّه -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ يعرفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسرا... ﴿تُرِيدُونَ﴾ يقول للمؤمنين من أصحاب رسول اللّه ﷺ: تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأسركم المشركين، وهو ما عرض للمرء منها من مال ومتاع، يقول: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطعمها، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾ يقول: واللّه يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته بقتلكم إياهم، وإثخانكم في الأرض، يقول لهم: واطلبوا ما يريد اللّه لكم، وله اعملوا لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم، من الرغبة

في الدنيا وأسبابها، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقول: إن أنتم أردتم الآخرة لم يغلبكم عدو لكم؛ لأن اللّه عزيز لا يقهر ولا يغلب، وإنه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره أمر خلقه»[١].

قال ابن كثير: «وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل -كما فعل ببني قريظة- وإن شاء فادى بمال -كما فعل بأسرى بدر- أو بمن أسر من المسلمين- كما فعل رسول اللّه ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «ومعنى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء إلا بعد أن يثخن في الأرض، أي حتى يعظم شأنه فيها، ويغلظ ويكثف بأن تتم له القوة والغلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سببا لضعفه أو قوة أعدائه، وهو في معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: (حتى يظهر على الأرض)، وقول البخاري: (حتى يغلب في الأرض)..

وأقول: إن من المجربات التي لا شك فيها أن الإثخان في قتل الأعداء في الحرب سبب من أسباب الإثخان في الأرض، أي التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها، وقد يحصل هذا الإثخان بدون ذلك أيضًا، يحصل بإعداد كل ما يستطاع من القوى الحربية، ومرابطة الفرسان، والاستعداد التام للقتال الذي يرهب الأعداء كما تقدم في تفسير ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣] وما هو ببعيد. وقد يجتمع السببان فيكمل بهما إثخان العزة والسلطان. كما أن الإسراف في القتل قد يكون سببا لجمع كلمة الأعداء واستبسالهم. وأما قوله تعالى في سورة محمد ﷺ التي تسمى سورة القتال أيضًا ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩١).

(٣) الأنفال: الآية (٦٠).

﴿الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[١] الآية، فهو في إثخان القتلى الذي يطلب في معركة القتال بعد الإثخان في الأرض، فإذا التقى الجيشان فالواجب علينا بذل الجهد في قتل الأعداء دون أخذهم أسرى لئلا يفضي ذلك إلى ضعفنا ورجحانهم علينا، إذا كان هذا القتل قبل أن نثخن في الأرض بالعزة والقوة التي ترهب أعداءنا حتى إذا أثخناهم في المعركة جرحا وقتلا وتم لنا الرجحان عليهم فعلا، رجحنا الأسر المعبر عنه بشد الوثاق؛ لأنه يكون حينئذ من الرحمة الاختيارية، وجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها، لا ضراوة بسفك الدماء، ولا تلذذا بالقهر والانتقام، ولذلك خيرنا اللَّه تعالى فيهم بين المنّ عليهم وإعتاقهم بفك وثاقهم وإطلاق حريتهم، -وإما بفداء أسرانا عند قومهم ودولتهم إن كان لنا أسرى عندهم- بمال نأخذه منهم، ولم يأذن لنا في هذه الحال بقتلهم، فقد وضع الشدة في موضعها والرحمة في موضعها. وإذا كان بيننا وبين دولة عهد يتضمن اتفاقا على الأسرى وجب الوفاء به، وبطل التخيير بينه وبين غيره»[٢].

قال القرطبي: «هذه الآية نزلت يوم بدر عتابًا من اللَّه ﷻ لأصحاب نبيه ﷺ. والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان. ولهم هذا الإخبار بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾[٣]. والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجهًا بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية. هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره»[٤].

وقال أيضًا: «إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾[٥]؟ فالجواب: أن التوبيخ وقع أوّلًا لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك.. فلما تحصّل الأسارى وسِيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول اللَّه ﷺ القتل في النضر وعقبة وغيرهما وجعل يرتئي في سائرهم نزل التخيير من اللَّه ﷻ؛ فاستشار رسول اللَّه ﷺ أصحابه حينئذ، فمَرَّ عمر على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر

(١) محمد: الآية (٤).
(٢) تفسير المنار (١٠/ ٩٦-٩٧).
(٣) الأنفال: الآية (٦٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٤٥-٤٦).
(٥) الأنفال: الآية (٦٨).

المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء. ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر. وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير. فلم ينزل بعد على هذا شيء من تعنيت والله أعلم»[١].

قال القاسمي: «قال القاضي: في الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ، ولكن لا يقرون عليه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأسارى

* عن أبي زميل قال: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: **«ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»** فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قلت: لا. والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيبا لعمر) فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر. ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: **«أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة»** (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٣] فأحل الله الغنيمة لهم[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٤٨-٤٩).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٩٩).

(٣) الأنفال: الآيات (٦٧-٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠-٣١ و٣٢-٣٣)، ومسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٥/ ١٧٦٣)، وأخرجه أبو داود (٣/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٦٩٠) مختصرًا، والترمذي (٥/ ٢٥١-٢٥٢/ ٣٠٨١) دون ذكر محل الشاهد.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عاشور: «ومعنى قوله: «**هَوِيَ رسولُ اللَّه ما قال أبو بكر**»: أنّ رسول اللَّه أحبّ واختار ذلك؛ لأنّه من اليسر والرحمة بالمسلمين إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسول اللَّه ﷺ ما خُيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا[(١)].
وروي أنّ ذلك كان رغبة أكثرهم وفيه نفع للمسلمين، وهم في حاجة إلى المال.
ولمّا استشار رسول اللَّه ﷺ أهلَ مشُورته تعيّن أنّه لم يُوح اللَّه إليه بشيء في ذلك، وأنّ اللَّه أوْكل ذلك إلى اجتهاد رسوله عليه الصلاة والسلام فرأى أنْ يستشير الناس ثم رجّح أحد الرأيين باجتهاد، وقد أصاب الاجتهادَ، فإنّهم قد أسلم منهم حينئذ سُهيل بن بيضاء وأسلم من بعدُ العباسُ وغيره، وقد خفي على النبي ﷺ شيء لم يعلمه إلّا اللَّه وهو إضمار بعضهم بعد الرجوع إلى قومهم أن يتأهّبوا لقتال المسلمين من بعد.

وربّما كانوا يضمرون اللحاق بفل المشركين من موضع قريب ويعودون إلى القتال فينقلب انتصار المسلمين هزيمة كما كان يومَ أُحُد، فلأجل هذا جاء قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾»[(٢)].

وقال ابن القيم: «وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث، ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من اللَّه بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر أولا، ولموافقة اللَّه له آخرا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأى ما يستقر عليه حكم اللَّه آخرا، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة. قالوا: وأما بكاء النبي ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٤و١١٦)، والبخاري (٦/ ٧٠٢/ ٣٥٦٠)، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٥٨٧) من حديث عائشة ﵂.
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٣).

فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يرد ذلك رسول اللَّه ﷺ ولا أبو بكر، وإن أراده بعض الصحابة فالفتنة كانت تعم ولا تصيب من أراد ذلك خاصة كما هزم العسكر يوم حنين بقول أحدهم: «لن نغلب اليوم من قلة»، وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم، فهزم الجِيش بذلك فتنة ومحنة، ثم استقر الأمر على النصر والظفر، واللَّه أعلم»[1].

وقد تعقبه محمد رشيد رضا بقوله: «أقول: إن في هذا الكلام على حسنه وكثرة فوائده مغالطات غير مقصودة، وبعدا عن معنى الآيتين يجب بيانه لتحرير الموضوع، وإظهار علو أحكام القرآن وحكمه، وكونها فوق اجتهاد جميع المجتهدين؛ لأنها كلام رب العالمين، وما صرف المحقق ابن القيم عن فقهها وبيان علوها وفوقيتها إلا توجيه ذكائه ومعارفه إلى تفضيل اجتهاد أبي بكر على اجتهاد عمر لإجماع أهل السنة على كونه أفضل منه، وإن كانوا لم يختلفوا في أنه يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل أو الأفضل، فكيف وقد اختاره الرسول بعد العلم بموافقة جمهور الصحابة له ما عدا عمر وكذا عبداللَّه بن رواحة وسعد بن أبي وقاص في بعض الروايات. وهذا الجمهور هو الذي كان يريد من الفداء عرض الدنيا لفقرهم، وحاشا رسول اللَّه ﷺ وصديقه الأكبر من إرادة ذلك لذاته، ولا يقدح في مقامهما إرادتهما لمواساة الجمهور وتعويض شيء مما فاتهم من عير أبي سفيان بعد ما كان من بلائهم في القتال على جوعهم، وعدم استعدادهم له، وليس هذا الذنب من الفتن التي يعم بها العذاب، كما أشار إليه ابن القيم وهو مما لا يمكن وقوعه مع وجوده ﷺ.

والتحقيق في المسألة الذي تدل عليه الآيتان دلالة واضحة تؤيدها الروايات الواردة في موضوعها، وكذا آية سورة محمد عليه الصلاة والسلام أن رأي عمر هو الصواب الذي كان ينبغي العمل به في مثل الحال التي كان عليها المسلمون مع أعدائهم في وقت غزوة بدر. وأما رأي الصديق: فهو الذي تقتضي الحكمة والرحمة العمل به بعد الإثخان في الأرض بالغلب والسلطان، ولكن كان من قدر اللَّه تعالى أن نفذ رسول اللَّه ﷺ رأي أبي بكر لأنه رأى أن جمهور المسلمين يوافقه

(١) زاد المعاد (٣/ ١١١).

فيه وإن كان للكثيرين منهم قصد دون قصده الذي بنى عليه رأيه وهو إرادتهم للمال لحاجتهم الدنيوية إليه كما صرحت به الآية الكريمة، وفي الحديث الذي تقدم أنه ﷺ هوى رأي أبي بكر ولم يهو رأي عمر، وعندي أن أسباب هواه لرأي أبي بكر حرصه ﷺ على إرضاء الجمهور لعذرهم الذي بيناه آنفا في إرادتهم لعرض الدنيا، وتغليبه ﷺ للرحمة على العقوبة إذا لم يكن في الرحمة إضاعة لحد من حدود اللَّه ولا مخالفة لأمره تعالى، ورجاء إيمانهم كلهم أو بعضهم، وكان من حكمة اللَّه تعالى ورحمته في هذا القدر أن بين لرسوله وللمؤمنين سنته تعالى في التغالب بين الأمم، وما ينبغي لأنبيائه وأتباعهم في حالتي الضعف والإثخان في الأرض وسائر ما دلت عليه الآيات من الأحكام الحربية والسياسية والتشريعية»[1].

وقال ابن عاشور: «وقد نصب اللَّه على نفع الآخرة أمارات، هي أمارات أمره ونهيه، فكلّ عرض من أعراض الدنيا ليس فيه حظّ من نفع الآخرة، فهو غير محبوب لله تعالى، وكلّ عرض من الدنيا فيه نفع من الآخرة ففيه محبّة من اللَّه تعالى، وهذا الفداء الذي أحبّوه لم يكن يَحفّ به من الأمارات ما يدلّ على أنّ اللَّه لا يحبّه، ولذلك تعيّن أنّ عتاب المسلمين على اختيارهم إيّاه حين استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام إنّما هو عتاب على نوايا في نفوس جمهور الجيش حين تخيّروا الفداء، أي أنهم مَا راعوا فيه إلا محبّة المال لنفع أنفسهم فعاتبهم اللَّه على ذلك لينبّههم على أنّ حقيقًا عليهم أن لا ينسوا في سائر أحوالهم وآرائهم الالتفات إلى نفع الدين وما يعود عليه بالقوة، فإنّ أبا بكر قال لرسول اللَّه ﷺ عند الاستشارة: «**قومك وأهلك استبقهم لعلّ اللَّه أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك**» فنظر إلى مصلحة دينية من جهتين، ولعلَّ هذا الملحظ لم يكن عند جمهور أهل الجيش»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (١٠/ ١١٢-١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

★ غريب الآية:

حلالا: الحلال: هو ما ارتفع عن تعاطيه الحظر، وهو: المباح. ويقابله الحرام وهو الممنوع منه.

طيبًا: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس من الأطعمة والأشربة وغيرها، وفي الشرع ما كان متناولا من حيث ما يجوز وبقدر ما يجوز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يقول: لولا قضاء من اللّه سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن اللّه محل لكم الغنيمة، وأن اللّه قضى فيما قضى، أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول اللّه ﷺ ناصرا دين اللّه لنالكم من اللّه بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل...

وقال آخرون: معنى ذلك: لولا كتاب من اللّه سبق لأهل بدر أن لا يعذبهم لمسهم عذاب عظيم...

وقال آخرون: معنى ذلك: لولا كتاب من اللّه سبق أن لا يؤاخذ أحدا بفعل أتاه على جهالة لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم...

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قد بيناه قبل، وذلك أن قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ خبر محصور على معنى دون معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت مما قد سبق في كتاب اللّه أنه لا يؤاخذ بشيء منها

هذه الأمة، وذلك ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم. وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى، وقد عم اللَّه الخبر بكل ذلك بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه... قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين من أهل بدر: فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين حلالا بإحلاله لكم طيبا، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يقول: وخافوا اللَّه أن تعودوا أن تفعلوا في دينكم شيئًا بعد هذه من قبل أن يعهد فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة، وأخذتموهما من قبل أن يحلا لكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وتأويل الكلام: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا، إن اللَّه غفور رحيم، واتقوا اللَّه، ويعني بقوله: إن اللَّه غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده، رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها»[١].

قال الجصاص: «فيه إباحة الغنائم وقد كانت محظورة قبل ذلك... وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ قد اقتضى وقوع ملك الغنائم لهم إذا أخذوا، وإن كان المذكور في لفظ الآية هو الأكل، وإنما خص الأكل بذلك لأنه معظم منافع الأملاك، إذ به قوام الأبدان وبقاء الحياة، وأراد بذلك تمليك سائر وجوه منافعها، وهو كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[٢] فخص اللحم بذلك والمراد جميع أجزائه؛ لأنه مبتغى منافعه ومعظمها في لحومه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾[٣] فخص البيع بالحظر في تلك الحال، والمراد سائر ما يشغل عن الصلاة، وكان وجه تخصيصه أنه معظم منافع التصرف في ذلك الوقت؛ فإذا كان معظمه محظورا، فما دونه أولى بذلك، وذلك في مفهوم اللفظ، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[٤] فخص الأكل بالذكر ودل به على حظر الأخذ والإتلاف من غير جهة الأكل، فهذا حكم اللفظ إذا ورد في مثله، ولولا قيام الدلالة وكون المعنى معقولا من اللفظ على الوجه الذي ذكرنا لما كانت إباحة الأكل موجبة للتمليك،

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٤٤-٤٨).
(٢) المائدة: الآية (٣).
(٣) الجمعة: الآية (٩).
(٤) النساء: الآية (١٠).

ولذلك قال أصحابنا فيمن أباح لرجل أكل طعامه أنه ليس له أن يتملكه ولا يأخذه، وإنما له الأكل فحسب، ولكنه لما كان في مفهوم خطاب الآية التمليك على الوجه الذي ذكرنا أوجب التمليك، وقد قال اللّه تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[1] فجعل الأربعة الأخماس غنيمة لهم، وذلك يقتضي التمليك، وكذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ لما أضاف الغنيمة إليهم، فقد أفاد تمليكها إياهم بإطلاقه لفظ الغنيمة فيه، ثم عطفه الأكل عليها لم ينف ما تضمنه من التمليك كما لو قال كلوا مما ملكتم، لم يكن إطلاق لفظ الأكل مانعا من صحة الملك، ويدل على ذلك دخول الفاء عليه، كأنه قال: قد ملكتكم ذلك فكلوا»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم إنه تعالى أباح لهم أكل ما أخذوه من الفداء، وعدَّه من جملة الغنائم التي أباحها لهم في أول هذه السورة، وفي قوله في أول هذا الجزء ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الخ فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ أي: وإذا كان اللّه تعالى قد سبق منه كتاب في أنه لا يعذبكم أو يقتضي أن لا يعذبكم بهذا الذنب الذي خالفتم به سنته وهدي أنبيائه؛ فكلوا مما غنمتم من الفدية حالة كونه حلالا بإحلاله لكم الآن طيبا في نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالميتة ولحم الخنزير، واجعلوا باقيه في المصالح التي بينت لكم في قسمة الغنائم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في العود إلى أكل شيء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين، من قبل أن يحله اللّه لكم. وقال ابن جرير في تفسير هذه الجملة: وخافوا اللّه أن تعودوا أن تفعلوا في دينكم شيئًا بعد هذا من قبل أن يحل لكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال: غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده، رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها. اهـ

وفسر بعضهم الاسمين الكريمين هنا بما يقتضيه المقام من مغفرته تعالى لذنبهم بأخذ الفداء، وإيثار جمهورهم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان في الأرض أولا، لإعزاز الحق وأهله، بإذلال الشرك وكبت حزبه، ومن رحمته بهم بإباحة ما أخذوا والانتفاع به. والأقرب تفسيره بأنه غفور للمتقين، رحيم بهم»[3].

---

(١) الأنفال: الآية (١٤).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٧٣-٧٤).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ١٠٧-١٠٨).

وقال البقاعي: «﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال في جميع ذلك، فلا تغلوا، ولا تنازعوا، ولا تقدموا إلا على ما يبيحه لكم الرسول ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾أي: المتصف بالجلال والإكرام ﴿غَفُورٌ﴾ أي: لمن يعلم من قبله أنه من أهل التقوى ﴿رَحِيمٌ﴾ أي: له، فلأجل ما علم في قلوبكم من الخير غفر لكم فلم يعذبكم بتسرعكم إلى إسار من لم يأمركم به الرسول ﷺ للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمكم فأحسن إليكم فأحل لكم الغنائم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[١] تعرف حسن تعليل الأمر بالتقوى بالمغفرة والرحمة، ويجوز أن يكون علة للأكل؛ أي: كلوا، فإن اللّه قد غفر لكم ما عاتبكم عليه، وفائدة الأمر بالتقوى التحذير من العود اعتمادًا على سعة الحلم، وأيضًا فقد تقدم تهديد ومغفرة فناسب أن يدلهم على أن علة المغفرة التقوى، فكان ترجمة ذلك أنه لما رهبهم بمس العذاب عند أخذ الفداء لولا سبق الكتاب، رغبهم بأنه كلما صدهم عن جنابه صارف ذنب فردهم إليه عاطف تقوى، أسبل عليهم ذيل المغفرة والرحمة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خصوصية هذه الأمة بالغنائم وغيرها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها**»، قال سليمان الأعمش: فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بست:**

---

(١) الأنفال: الآية (٢٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٢)، والترمذي (٥/ ٢٥٣-٢٥٤/ ٣٠٨٥) واللفظ له، وقال: «حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٢/ ١١٢٠٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١١/ ١٣٤/ ٤٨٠٦).

أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[١].

* عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «فيه اختصاص هذه الأمة بحل الغنيمة، وكان ابتداء ذلك من غزوة بدر. وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فأحل الله لهم الغنيمة، وقد ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن عباس، وقد قدمت في أوائل فرض الخمس أن أول غنيمة خمست غنيمة السرية التي خرج فيها عبد الله بن جحش، وذلك قبل بدر بشهرين، ويمكن الجمع بما ذكر ابن سعد أنه ﷺ أخر غنيمة تلك السرية حتى رجع من بدر فقسمها مع غنائم بدر»[٣].

وقال: «وفيه أن من مضى كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد من الله على هذه الأمة ورحمها لشرف نبيها عنده فأحل لهم الغنيمة، وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى. ودخل في عموم أكل النار الغنيمة والسبي، وفيه بعد لأن مقتضاه إهلاك الذرية ومن لم يقاتل من النساء، ويمكن أن يستثنوا من ذلك، ويلزم

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١١-٤١٢)، ومسلم (١/ ٣٧١/ ٥٢٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١٠٤-١٠٥/ ١٥٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠). وفي الباب عن عوف بن مالك وحذيفة وأبي هريرة وابن عباس وأبي موسى وأبي ذر وابن عمر ﷺ.

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٧٥).

استثناؤهم من تحريم الغنائم عليهم، ويؤيده أنهم كانت لهم عبيد وإماء فلو لم يجز لهم السبي لما كان لهم أرقاء»[١].

قال المناوي: «والمراد بإحلالها له أنه جعل له التصرف فيها كما شاء، وقسمتها كما أراد، ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أو المراد اختصاصه بها هو وأمته دون الأنبياء، فإن منهم من لم يؤذن له بالجهاد فلم يكن له غنائم، ومنهم المأذون الممنوع منها فتجيء نار فتحرقه إلا الذرية؛ ويرجح الثانية قوله: «**ولم تحل**» يجوز بناؤه للفاعل وللمفعول «**لأحد**» من الأمم السابقة؛ وفائدة التقييد بقوله: «**قبلي**» التنبيه على المخصوص عليه من الأنبياء وأنه أفضلهم حيث خص بما لم يخصوا»[٢].

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) فيض القدير (١/ ٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أُخِذ منهم من الفداء ما أخذ ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ يقول: إن يعلم اللَّه في قلوبكم إسلامًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم من الفداء ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي اللَّه وأصحابه، وكفرِكم باللَّه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لذنوب عباده إذا تابوا ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة!»[(١)].

قال الرازي: «واختلف المفسرون في أن الآية نازلة في العباس خاصة، أو في جملة الأسارى. قال قوم: إنها في العباس خاصة، وقال آخرون: إنها نزلت في الكل، وهذا أولى؛ لأن ظاهر الآية يقتضي العموم من ستة أوجه: أحدها: قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾، وثانيها: قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، وثالثها: قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، ورابعها: قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، وخامسها: قوله: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، وسادسها: قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، فلما دلت عليه هذه الألفاظ الستة على العموم فما الموجب للتخصيص؟ أقصى ما في الباب أن يقال: سبب نزول هذه الآية هو العباس، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٢)].

قال ابن عاشور: وفي ذلك «ترغيب لهم في الإسلام في المستقبل، ولذلك قيل لهم هذا القول قبل أن يفارقوهم»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٤٨-٤٩).

(٢) التفسير الكبير (١٥/ ٢١١-٢١٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٠).

وقال محمد رشيد رضا: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ أي قل للذين في تصرف أيديكم من الأسرى -وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر من الأسارى- الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إن كان اللَّه تعالى يعلم أن في قلوبكم إيمانا كامنا بالفعل أو بالاستعداد الذي سيظهر في إبانه -أو كما يدعي بعضكم بلسانه، واللَّه أعلم بما في قلوبكم. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: يعطكم إذ تسلمون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فيه من الغنائم وغيرها من نعم الدين التي وعدهم اللَّه بها. . ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ما كان من الشرك وما ترتب عليه من السيئات. فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي ما في الدنيا من شيء، فلقد أعطاني اللَّه خيرا مما أخذ مني مائة ضعف وأرجو أن يكون غفر لي اللَّه. وقد أخذ هذا من قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لمن تاب من كفره ومن ذنبه بالأولى، رحيم بالمؤمنين. والمراد بهذه الرحمة الخاصة التي تشمل سعادة الآخرة، وأما الرحمة العامة فقد وسعت كل شيء. وهذا ترغيب لهم في الإسلام ودعوة إليه»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذا عزاء ومواساة من اللَّه ﷻ لهؤلاء الأسرى الذين أصيبوا في أهليهم بمن قتل منهم في بدر، وهاهم أولاء يصابون في أموالهم بما يؤخذ منهم من فدية. وفي هذا العزاء ما يذهب بكثير مما في نفوسهم من أسى ومرارة، وما في قلوبهم من ضغينة وحقد على الإسلام والمسلمين، إذ يرون في هذا العزاء الإلهي دعوة إلى التصالح والتفاهم والالتقاء بالإسلام، والمواخاة للمسلمين، وأن اللَّه ﷻ ليس رب المسلمين وحدهم؛ بل هو ربهم، ورب العباد جميعًا، ورب كل شيء، وخالق كل شيء، وأن الإسلام ليس من حظ هؤلاء المسلمين الذين آمنوا باللَّه ورسوله، وكان لهم من اللَّه هذا النصر الذي رأوه بأعينهم رأي العين في بدر؛ بل إنه حظ مشاع بين الناس جميعًا، من سبق منهم ومن لم يسبق، وأن الناس جميعًا مدعوون إليه في كل وقت إلى يوم القيامة!

وعلى هذا التقدير، وبهذا الحساب -تكون معركة بدر ليست نصرا للمسلمين

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١١٨).

الذين قاتلوا فيها، وإنما هي نصر للإسلام، ونصر لكل مسلم دخل أو يدخل في الإسلام؛ لأنها ليست لحساب شخص أو قبيلة، وإنما هي لحساب هذا الدين الذي يرتفع بمبادئه فوق الأشخاص والقبائل، ويتخطى بشريعته حدود المكان والزمان.

وفي قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ في هذا يسأل عنه وهو: كيف يعلق علم اللّه تعالى بما في قلوبهم على شرط؟ وهو ﷻ يعلم ما في القلوب قبل أن توجد القلوب وأصحاب القلوب؟

والجواب -كما قلنا في أكثر من مرة- أن تعليق علم اللّه بأفعال العباد لا يعني بحال ما هو واقع في علم اللّه مما سيفعله العباد، ولكن المراد بهذا التعليق هو العلم الواقع على الأفعال حال وقوع هذه الأفعال من المكلفين، فعلم اللّه سبحانه بهذه الأفعال علم متصل بها في جميع أحوالها وأزمانها، فهو عالم بها قبل أن تحدث وتقع من أصحابها، وعالم بها بعد أن تقع وتحدث، وتعليق علم اللّه سبحانه بحدوثها ووقوعها هو إلفات لأصحابها، وإلى علم اللّه بهم وبأفعالهم وهم متلبسون بها، ومحاسبون عليها.

وفي قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو وعد كريم لمن ينظر لنفسه من هؤلاء الأسرى، ويخلص بها إلى اللّه، ويدخل في دين اللّه، وعندئذ سيشارك المسلمين فيما سيفتح اللّه به عليهم، وما يقع لأيديهم من عنائهم. وأكثر من هذا، فإن اللّه ﷻ سيقبلهم في المقبولين من عباده، ويغفر لهم ما كان منهم من عداوة للإسلام، وأذى للمسلمين»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي موسى: «أن العلاء بن الحضرمي ﷺ بعث إلى رسول اللّه ﷺ من البحرين بثمانين ألفًا فما أتى رسول اللّه ﷺ مال أكثر منه، لا قبلها ولا بعدها، فأمر بها ونثرت على حصير، ونودي بالصلاة، فجاء رسول اللّه ﷺ يميل على المال قائما، فجاء الناس وجعل يعطيهم وما كان يومئذ عدد ولا وزن، وما كان إلا قبضًا،

---

(١) التفسير القرآني (٥/ ٦٨٠-٦٨١).

فجاء العباس فقال: يا رسول الله! إني أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر، ولم يكن لعقيل مال، أعطني من هذا المال، فقال رسول اللَّه ﷺ: خذ، فحثى في خميصة كانت عليه ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، ارفع علي، فتبسم رسول اللَّه ﷺ وهو يقول: أما أحد ما وعد اللَّه فقد أنجز لي ولا أدري الأخرى ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا خير مما أخذ مني ولا أدري ما يصنع بالمغفرة»[١].

★ غريب الحديث:

خميصة: كساء أسود معلم الطرفين، ويكون من خز أو صوف، فإن لم يكن معلما فليس بخميصة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «فيه دليل على أن مال الفيء مما يعطى منه الغني والفقير؛ لأن العباس كان من أغنى قريش وأكثرهم مالا؛ ولكنه ادعى المغرم، وقد عرف سببه وهو: مفاداة نفسه، ومفاداة عقيل ابن عمه، وكانا وقعا في أسارى بدر ففدى العباس نفسه وعقيلا. قيل: إنه فدى بثمانين أوقية ذهب، وقيل: بألف دينار»[٢].

قال ابن حجر: «في هذا الحديث بيان كرم النبي ﷺ وعدم التفاته إلى المال قل أو كثر، وأن الإمام ينبغي له أن يفرق مال المصالح في مستحقيها ولا يؤخره»[٣].

* * *

(١) أخرجه: الحاكم (٣/ ٣٢٩-٣٣٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وذكره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم (١/ ٦٧٩/ ٤٢١) من رواية أنس ﷺ، والبيهقي (٦/ ٣٥٦).

(٢) فتح الباري (٣/ ١٥٩).

(٣) فتح الباري (١/ ٦٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا قول أمر أن يقوله للأسرى ويورد معناه عليهم، والمعنى إن أخلصوا فعل بهم كذا، وإن أبطنوا خيانة ما رغبوا أن يؤتمنوا عليه من العهد فلا يسرهم ذلك ولا يسكنوا إليه. فإن اللَّه بالمرصاد لهم الذي خانوه قبل بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بينها لهم إدراكا، يحصلونها بهم فصار كعهد متقرر، فجعل جزاؤهم على خيانتهم إياه، أن مكن منهم المؤمنين، وجعلهم أسرى في أيديهم. وقوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان؛ أي: عليم بما يبطنونه من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم به»[1].

قال أبو حيان: «وقيل: الضمير في: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ عائد على الذين قيل في حقهم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾؛ أي: وإن يريدوا خيانتكم في إظهار الصلح، والجمهور على أن الضمير في ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ عائد على الأسرى»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾بما يظهر بعضهم من الميل إلى الإسلام، أو دعوى إبطال الإيمان، أو الرغبة عن قتال المسلمين من بعد، وهذا مما اعتيد من البشر في مثل تلك الحال، فلا تخف ما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال، ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ باتخاذ الأنداد والشركاء له، وبغير ذلك من الكفر بنعمه ثم برسوله، وقال بعض المفسرين: إن خيانتهم لله تعالى هي ما كان من نقضهم لميثاقهم الذي أخذه على البشر بما ركب فيهم من العقل وما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية على الوجه الذي تقدم بيانه في آية أخذه تعالى الميثاق على بني آدم من سورة الأعراف (١٧٢)، فلتراجع.

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥٥٥).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥١٧).

﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ الإمكان من الشيء والتمكين منه واحد أي فمكنك أنت وأصحابك منهم، بنصره إياك عليهم ببدر على التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم، وعدد أصحابك وعددهم، وكذلك يمكنك ممن يخونك من بعد، كما مكنك ممن خانه من قبل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما سيكون من أمرهم، حكيم في نصر المؤمنين، وإظهارهم عليهم.

ويؤخذ من الآيتين ما يجب على المؤمنين من ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة خيانتهم إذا ثبتوا على الكفر والطغيان، وعادوا إلى البغي والعدوان، وفيه بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين، ما داموا قوامين بأسباب النصر المادية والمعنوية، والعلمية والعملية»[1].

قال ابن عاشور: «وفيه تقرير للمنة على المسلمين التي أفادها قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ فكمل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم، ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن اللَّه يمكن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة؛ أي: أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك لأن اللَّه ينصركم عليهم ثاني مرة. والخيانة نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هو وعيد لأولئك الذين لم يستجيبوا لهذا النداء الكريم، وهذا الصفح الجميل من رب العالمين، فأمسكوا على ما في قلوبهم من عداوة وضغينة، وطووا صدورهم على الثأر والانتقام، فهؤلاء إن يخونوا الرسول فإنهم قد خانوا اللَّه من قبل، بأن كفروا به، وهو ربهم، وخالقهم، ورازقهم، فإذا خانوا الرسول بعد هذا، فليس ذلك بالشيء الغريب عليهم، فكفرهم بنعم المنعم عليهم طبيعة فيهم، وهم بهذه الخيانة لله قد جنوا على أنفسهم، فأمكن اللَّه منهم، أي انتقم اللَّه

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١١٨-١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٨١).

منهم، وساقهم إلى ما هم فيه من أسر. ولو أنهم لم يخونوا اللَّه، واستجابوا لدعوة الإيمان لعافاهم اللَّه من هذا البلاء، فإن ظلوا على ما هم عليه من خيانة لله، وخيانة للرسول، فسيرون من البلاء والنكال أكثر مما رأوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقضي فيهم، وما يأخذهم به من عقاب»[1].

* * *

---

(١) التفسير القرآني (٥/ ٦٨١-٦٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هاجروا: الهجرة: فراق الوطن إلى بلد غيره. والمقصود: من ترك مكة إلى المدينة.

جاهدوا: الجهاد: استفراغ الوسع والطاقة في قتال العدو.

ءاوَوْا: يقال: أَوَى غيْرَهُ إليه، إذا ضمّه إليه في مأواه، والمأوى اسم للمكان الذي يؤوى إليه.

أولياء: جمع ولي، وهو النصير والمعين والمؤيد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر اللَّه ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا اللَّه ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول اللَّه ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على القرابة، حتى نسخ اللَّه تعالى ذلك بالمواريث. . وقد أثنى اللَّه ورسوله[1] على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

(١) هكذا في الأصل، ولعله سهو من المصنف.

﴿ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[١] الآية وقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[٢] الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣] الآية، وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك. . . وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال. . . وقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما»[٤].

قال العلامة السعدي: «فهذه الموالاة الإيمانية وقد كانت في أول الإسلام لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٥]. فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا فأقرب قراباته من ذوي الأرحام كما دلّ عليه عموم الآية الكريمة»[٦].

---

(١) التوبة: الآية (١٠٠).
(٢) التوبة: الآية (١١٧).
(٣) الحشر: الآيتان (٨و٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٥-٩٧).
(٥) الأنفال: الآية (٧٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٩٥-١٩٦).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى قسم المؤمنين في زمان الرسول ﷺ إلى أربعة أقسام، وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه ﷺ ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلى الدين، ثم انتقل من مكة إلى المدينة، فحين هاجر من مكة إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين منهم من وافقه في تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها؛ بل بقي هناك.

أما القسم الأول: فهم المهاجرون الأولون، وقد وصفهم بقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإنما قلنا: إن المراد منهم المهاجرون الأولون؛ لأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ﴾وإذا ثبت هذا ظهر أن هؤلاء موصوفون بهذه الصفات الأربعة: أولها: أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد ﷺ، ولم يتمردوا، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يفيد هذا المعنى.

والصفة الثانية: قوله: ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾[1] جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى تركوا الأديان القديمة لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية تركوا الأقارب والخلان والأوطان والجيران لمرضاة الله تعالى.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾أما المجاهدة بالمال، فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء، وأيضًا فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضًا كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس، فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

وأما الصفة الرابعة: فهي أنهم كانوا أول الناس إقدامًا على هذه الأفعال

(١) النساء: الآية (٦٦).

والتزامًا لهذه الأحوال، ولهذه المسابقة أثر عظيم في تقوية الدين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[2]، وإنما كان السبق موجبًا للفضيلة؛ لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، فيصير ذلك سببًا للقوة أو الكمال، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3] وقال ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[4].

ومن عادة الناس أن دواعيهم تقوى بما يرون من أمثالهم في أحوال الدين والدنيا، كما أن المحن تخف على قلوبهم بالمشاركة فيها، فثبت أن حصول هذه الصفات الأربعة للمهاجرين الأولين يدل على غاية الفضيلة ونهاية المنقبة، وأن ذلك يوجب الاعتراف بكونهم رؤساء المسلمين وسادة لهم.

وأما القسم الثاني: من المؤمنين الموجودين في زمان محمد ﷺ فهم الأنصار، وذلك لأنه ﷺ لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه، فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال في خدمة رسول الله ﷺ وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود البتة، ويجب أن يكون حال المهاجرين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار لوجوه:

أولها: أنهم هم السابقون في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب.

وثانيها: أنهم تحملوا العناء والمشقة دهرًا دهيرًا، وزمانًا مديدًا من كفار قريش وصبروا عليه، وهذه الحال ما حصلت للأنصار.

وثالثها: أنهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران، ولم يحصل ذلك للأنصار. ورابعها: أن فتح الباب في قبول الدين والشريعة من

---

(١) الحديد: الآية (١٠). (٢) التوبة: الآية (١٠٠).

(٣) المائدة: الآية (٣٢).

(٤) جزء من حديث جرير بن عبد الله ﷺ أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧)، والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣)، وأخرجه مختصرا مقتصرا على موطن الشاهد أحمد (٤/ ٣٥٧)، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣).

الرسول ﷺ إنما حصل من المهاجرين، والأنصار اقتدوا بهم وتشبهوا بهم، وقد ذكرنا أنه ﷺ قال: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**» فوجب أن يكون المقتدي أقل مرتبة من المقتدى به، فجملة هذه الأحوال توجب تقديم المهاجرين الأولين على الأنصار في الفضل والدرجة والمنقبة، فلهذا السبب أينما ذكر اللّه هذين الفريقين قدم المهاجرين على الأنصار، وعلى هذا الترتيب ورد ذكرهما في هذه الآية. . .

القسم الثالث: من أقسام مؤمني زمان الرسول ﷺ وهم المؤمنون الذين ما وافقوا الرسول في الهجرة وبقوا في مكة، وهم المعنيون بقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾. .

القسم الرابع: من مؤمني زمان محمد ﷺ هم الذين لم يوافقوا الرسول في الهجرة إلا أنهم بعد ذلك هاجروا إليه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[1]»[2].

وقال أيضًا: واختلفوا في المراد بهذه الولاية، فنقل الواحدي عن ابن عباس والمفسرين كلهم، أن المراد هو الولاية في الميراث، وقالوا: جعل اللّه تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة، وكان القريب الذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل أنه لم يهاجر، ولم ينصر، واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى؛ لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه في مواضع من هذا الكتاب، ويقال: السلطان ولي من لا ولي له، ولا يفيد الإرث، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] ولا يفيد الإرث، بل الولاية تفيد القرب، فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظما لبعض، مهتما بشأنه، مخصوصا بمعاونته ومناصرته، والمقصود أن يكونوا يدا واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جاريًا مجرى حبه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى، كان حمله على الإرث بعيدا عن دلالة اللفظ، لاسيما وهم يقولون: إن ذلك الحكم صار منسوخا بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ

---

(١) الأنفال: الآية (٧٥).
(٢) تفسير الرازي (١٥/ ٢١٤-٢٢٠).
(٣) يونس: الآية (٦٢).

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخا بآية أخرى مذكورة معه، وهذا غاية البعد، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه، إلا أن دعوى الإجماع بعيد»[2].

قال ابن عاشور: «وفي نفي ولاية المهاجرين والأنصار لهم، مع السكوت عن كونهم أولياء للذين كفروا، دليل على أنهم معتبرون مسلمين، ولكن اللّٰه أمر بمقاطعتهم حتى يهاجروا، وليكون ذلك باعثا لهم على الهجرة»[3].

قال أبو حيان: «خص الاستنصار بالدين لأنه بالحمية والعصبية في غير الدين منهي عنه، و«على» تقتضي الوجوب، ولذلك قدره الزمخشري فواجب عليكم أن تنصروهم»[4].

قال أبو بكر بن العربي: «إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين؛ فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن بأن لا يبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم، إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم كذلك. قاله مالك وجميع العلماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال والعدة والعدد، والقوة والجلد»[5].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير للمسلمين لئلا يحملهم العطف على المسلمين على أن يقاتلوا قوما بينهم وبينهم ميثاق، وفي هذا التحذير تنويه بشأن الوفاء بالعهد وأنه لا ينقضه إلا أمر صريح في مخالفته»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم لبعض

* عن أسامة بن زيد ﷺ أنه قال: يا رسول الله! أين تنزل في دارك بمكة؟ فقال:

---

(١) الأنفال: الآية (٧٥).
(٢) التفسير الكبير (١٥/ ٢١٦-٢١٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٦).
(٤) البحر المحيط (٤/ ٥١٧).
(٥) أحكام القرآن (٢/ ٨٨٧-٨٨٨).
(٦) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٧).

«وهل ترك عقيل من رباع أو دور؟» وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي رضي الله عنهما شيئًا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يرث المؤمن الكافر، قال ابن شهاب: وكانوا يتأولون قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الآية[1].

★ **غريب الحديث:**

الرباع: المنزل المشتمل على أبيات. وقيل: هو الدار.

★ **فوائد الحديث:**

قول ابن شهاب: وكانوا يتأولون؛ قال العيني: أي: السلف كانوا يفسرون الولاية في هذه الآية بولاية الميراث»[2].

وقال أيضًا: «وفيه على أن المسلم لا يرث الكافر، وفقهاء الأمصار على ذلك»[3].

* عن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٢-٢٠٣)، والبخاري (٣/ ٥٧٤/ ١٥٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٩٨٤/ ١٣٥١)، وأبو داود (٢/ ٥١٤/ ٢٠١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩١٢/ ٢٧٣٠)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٠/ ٤٢٥٥).

(٢) عمدة القاري (٧/ ١٤٧).

(٣) عمدة القاري (٧/ ١٤٩).

والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»[1].

★ غريب الحديث:

تغلوا: من الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها.

التمثيل: التشويه بالقتيل، كجدع أنفه وأذنه والعبث به.

الفيء: ما أخذ بغير قتال بخلاف الغنيمة فتكون نتيجة قتال.

الذمّة: العهد.

تخفروا: تنقضوا.

★ فوائد الحديث:

قال المازري: «أما قوله في التحول: «إنهم لهم ما للمهاجرين وإن أبوا فكالأعراب» فيمكن أن يريد الإشارة لتمييز المهاجرين عن غيرهم، ولو لم يمكن إلا بغزوهم مع النبي ﷺ وخروجهم معه كلما خرج فيستحقون الغنائم، ولعله على هذا نبّه بقوله ﷺ «يكونون كأعراب المسلمين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين»»[2].

قال القاضي عياض: «قد يحتمل أنه على وجهه؛ لأنهم إذا لم يجاهدوا لم يكن لهم جزء من الغنائم، وخمسها إنما يدفعه الإمام باجتهاده، ولا شك أن من خرج عن بلاده وأمواله يحتاج من المرافق ما لا يحتاج المقيم بها، فكان المهاجرون

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨/ ١٧٣١) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٨٣/ ٢٦١٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٢-٢٣٣/ ٨٧٥٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٣-٩٥٤/ ٢٨٥٨).

(٢) المعلم (٣/ ١٠).

أولى بالخمس، وكذلك كان النبي ﷺ يزيدهم على الأنصار، للعلة التي ذكرناها من استغناء الأنصار عن ذلك، وأنه كان يريد إعطاء المهاجرين حتى لا يحتاجون إلى مواساة لهم؛ ولهذا لما فتحت عليه الفتوح وجاء اللَّه سبحانه بالخير أمرهم بردّ ما كان الأنصار منحوهم من الأموال.

قال الشافعي: لم يختلف أحد ممن لقيته أنه ليس للأعراب حق في العطاء، ويحتج الشافعي بهذا الحديث؛ لأنه لا يرى للأعراب شيئًا من الفيء، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم. كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم من الصدقة عنده ويصرف كل مال في أهله. وسوى مالك وأبو حنيفة بين المالين، وجوزا صرفهما للصنفين»[1].

ولأبي عبيد رأي آخر فهو يذهب إلى أن الحكم المشتمل عليه حديث بريدة وهو اختصاص الفيء بالمهاجرين دون الأعراب منسوخ مستندًا في ذلك إلى عموم آية الفيء وإلى ما روي عن عمر في ذلك فيقول: «فهذه آية الفيء، رأى عمر أن الآية محيطة بالمسلمين، وأنه ليس منهم أحد يخلو من أن يكون له فيها نصيب، ثم اختلف المسلمون بعد ذلك أيضًا.

فقال قائلون: من لم يكن له غناء عن المسلمين في جهاد عدو، أو قيام بحكم، أو اجتباء مال، أو غير ذلك، مما يرجع على المسلمين نفعه، ولم يكن مع هذا من أهل الفاقة والمسكنة، فلا حق له في بيت المال. لحديث رسول اللَّه ﷺ الذي ذكرناه قوله: «**وليس لهم في الغنيمة والفيء شيء**».

وقال آخرون: بل المسلمون شركاء في الفيء كلهم؛ لأنهم أهل دين وقبلة، وهم يد واحدة على الأمم، يواسي بعضهم بعضًا، ويرد أقصاهم على أدناهم، يذهبون في ذلك إلى كلام عمر، مع احتجاجه بتأويل القرآن. فاختلفوا لاختلاف هذين الحكمين عندهم: حديث رسول اللَّه ﷺ وحديث عمر، وكذلك هما في الظاهر مختلفان، ولكل واحد من الفريقين مذهب ومقال.

والأمر عندي في ذلك: أن الحكمين لكل واحد منهما وجه غير وجه صاحبه،

---

(١) إكمال المعلم (٦/ ٣٢-٣٣).

إلا أن الذي يؤول إليه الأمر عندي قول الذين رأوا اشتراك المسلمين في الفيء، وليس هذا براد للأمر الأول، ولكنهما جميعًا قد كانا وإنما حديث رسول الله ﷺ ناسخ ومنسوخ كالتنزيل، وليس ينسخ سنته إلا سنة له أخرى أو تنزيل. فكان منعه ﷺ مَنْ منع من الغنيمة والفيء إذ تركوا الهجرة هو الأصل الذي كان عليه بدء الإسلام، وإذ كانت الهجرة تفرق بين حكم المهاجرين وبين من لم يهاجر في الولاية والمواريث والمناكحة والفيء، نزل بذلك الكتاب وجرت به السنة، فأما السنة فقوله: «وليس لهم في الغنيمة والفيء شيء» وأما التنزيل فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[1]»[2].

والأظهر القول الأول قال الخطابي: «والأعراب من أجاب منهم وقاتل أخذ سهمه، ومن لم يخرج في البعث فلا شيء له من الفيء، ولا عتب عليه مادام في أهل الجهاد كفاية»[3].

* عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «فعلى كل مسلم أن يجاهد بكل نوع من هذه الأنواع. أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5] وعلَّق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

(١) الأنفال: الآية (٧٢). (٢) الأموال (ص: ٢٢٦-٢٢٧).
(٣) معالم السنن (٢/ ٢٢٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٤و١٥٣و٢٥١)، وأبو داود (٣/ ٢٢/ ٢٥٠٤) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٣١٤/ ٣٠٩٦)، وابن حبان (الإحسان: ١١/ ٦/ ٤٧٠٨)، والحاكم (٢/ ٨١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
(٥) التوبة: الآية (٤١).

فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[(١)] وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾[(٢)] أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ وأخبر سبحانه أنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال أيضًا في الحكمة من تقديم المال على النفس في الأمر بالجهاد: «ويتعلق بهذا نوع آخر من التقديم... وهو تقديم الأنفس على الأموال في الجهاد حيث ما وقع في القرآن إلا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾[(٥)] وقوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾[(٦)] وهو كثير، فما الحكمة في تقديم المال على النفس، وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه اللَّه، فيقال أولًا: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزًا وجب عليه أن يكتري بماله، وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا، ومن تأمل أحوال النبي ﷺ وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول، والمقصود تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرًا على أن يغزي بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال، فكيف يقال لا يجب به، ولو قيل إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس لكان هذا القول أصح من قول من قال لا يجب بالمال، وهذا بين، وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر، وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله، وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب اللَّه تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل

---

(١) الصف: الآيات (١٠-١٢).
(٢) الصف: الآية (١٣).
(٣) التوبة: الآية (١١١).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٧٢-٧٣).
(٥) الصف: الآية (١١).
(٦) التوبة: الآية (٢٠).

معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون اللَّه هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له، فهذا غاية الحب، فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئًا بذل له محبوبه من نفسه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب، وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية، ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فرّ وتركهم، فلم يرض اللَّه من محبيه بهذا؛ بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها، وأيضًا فبذل النفس آخر المراتب فإن العبد يبذل ماله أولًا يقي به نفسه، فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقًا للواقع»[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٧-٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم. وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين. ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر، من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تفعلوا ما ذكر وهو ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض وتناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم. ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم أو ينبذ على سواء -يقع من الفتنة والفساد الكبير في الأرض ما فيه أعظم الخطر عليكم بتخاذلكم وفشلكم المفضي إلى ظفر الكفار بكم، واضطهادكم في دينكم لصدكم عنه كما كانوا يفتنون ضعفاءكم بمكة قبل الهجرة، وقيل: إن لم تفعلوا ما أمرتم به في الميراث وهو قول ابن عباس. . وقد ذكره عنه البغوي هنا، ثم قال: وقال ابن جريج: إلا تعاونوا وتناصروا. وقال ابن إسحاق: جعل اللّه المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فالفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام. اهـ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٩٤).

وأقول: الأظهر أن الفتنة في الأرض ما ذكرنا من اضطهادهم المسلمين وصدهم عن دينهم كما يدل عليه ما سبق في هذه السورة وفي سورة البقرة وهي من لوازم قوة الكفر وسلطان أهله الذي كانوا عليه، ولا يزال الذين يدعون حرية الدين منهم في هذا العصر يفتنون المسلمين عن دينهم، حتى في بلاد المسلمين أنفسهم بما يلقيه دعاة النصرانية منهم من المطاعن فيه وفي الرسول ﷺ، وبما يغرون به الفقراء من العوام الجاهلين من المال وأسباب المعيشة، كذلك الفساد الكبير من لوازم ضعف الإسلام الذي يوجب على أهله تولي بعضهم لبعض في التعاون والنصرة، وعدم تولي غيرهم من دونهم»[1].

وقال ابن عاشور: «والفتنة تحصل من مخالطة المسلمين مع المشركين؛ لأن الناس كانوا قريبي عهد بالإسلام، وكانت لهم مع المشركين أواصر قرابة وولاء ومودة ومصاهرة ومخالطة، وقد كان إسلام من أسلم مثيرا لحنق المشركين عليه؛ فإذا لم ينقطع المسلمون عن موالاة المشركين، يخشى على ضعفاء النفوس من المسلمين أن تجذبهم تلك الأواصر، وتفتنهم قوة المشركين وعزتهم، ويقذف بها الشيطان في نفوسهم، فيحنوا إلى المشركين ويعودوا إلى الكفر. فكان إيجاب مقاطعتهم لقصد قطع نفوسهم عن تذكر تلك الصلات، وإنسائهم تلك الأحوال، بحيث لا يشاهدون إلا حال جماعة المسلمين، ولا يشتغلوا إلا بما يقويها، وليكونوا في مزاولتهم أمور الإسلام عن تفرغ بال من تحسر أو تعطف على المشركين؛ فإن الوسائل قد يسري بعضها إلى بعض، فتفضي وسائل الرأفة والقرابة إلى وسائل الموافقة في الرأي، فلذا كان هذا حسما لوسائل الفتنة»[2].

قال البقاعي: «وبيان الفساد أنه إذا قارب المؤمن الكافر، والكافر المؤمن، وتناصروا أو ترك المؤمنون التناصر فيما بينهم، انخل النظام، فاختل كل من النقض والإبرام، فاختلف الكلام، فتباعدت القلوب، فتزايدت الكروب، فالواجب عليكم أن تكونوا إلبا[3] واحدا، ويدا واحدة في الموالاة وتقاطعوا الكفار بكل اعتبار، ليقوم أمركم وتطيب حياتكم، وتصلح غاية الصلاح دنياكم وآخرتكم، والآية شاملة لكل ما يسمى توليا، حتى في الإرث وقتال الكفار ومدافعة المسلمين

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٣٢). (٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٨).

(٣) إلبا: الإِلْبُ بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان وقد تألَّبوا: أي تَجَمَّعُوا.

بالأمر والإنكار، ولما ترك بعض العلماء إعانة بعض فئة حصل ما خوف اللَّه تعالى منه من الفتنة والفساد، حتى صار الأمر إلى ما ترى من علو المفسدين، وضعف أهل الدين، فالآمر بالمعروف فيهم في غاية الذل والغربة، يرد عليه أدنى الناس فلا يجد له ناصرا، ويجد ذلك الآخر له على الرد أعوانا كثيرة، وصار أحسن الناس حالا مع الأمراء وأعظمهم له محبة من يقنع بلومه على فعله ظنا منه أن ذلك شفقة عليه واللَّه المستعان»[١].

قال النيسابوري: «﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم، والغرض نهي المسلمين عن موالاتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارث بعضهم بعضا. وفيه أن المشركين واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد ﷺ، صارت هذه الجهة موجبة للانضمام بعضهم إلى بعض، وقرب بعضهم من بعض، وإن كان كل واحد منهم في نهاية الإنكار لصاحبه، وذلك من أدل الدلائل على أن تلك العداوة ليست لأجل الدين، ولكنها محض الحسد والعناد»[٢].

قال الرازي: «اعلم أن هذا الترتيب الذي اعتبره اللَّه في هذه الآية في غاية الحسن؛ لأنه ذكر هاهنا أقساما ثلاثة. فالأول: المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وهم أفضل الناس، وبين أنه يجب أن يوالي بعضهم بعضا. والقسم الثاني: المؤمنون الذين لم يهاجروا، فهؤلاء بسبب إيمانهم لهم فضل وكرامة، وبسبب ترك الهجرة لهم حالة نازلة، فوجب أن يكون حكمهم حكما متوسطا بين الإجلال والإذلال، وذلك هو أن الولاية المثبتة للقسم الأول تكون منفية عن هذا القسم، إلا أنهم يكونون بحيث لو استنصروا المؤمنين واستعانوا بهم ونصروهم وأعانوهم، فهذا الحكم متوسط بين الإجلال والإذلال، وأما الكفار فليس لهم البتة ما يوجب شيئًا من أسباب الفضيلة، فوجب كون المسلمين منقطعين عنهم من كل الوجوه، فلا يكون بينهم ولاية ولا مناصرة بوجه من الوجوه، فظهر أن هذا الترتيب في غاية الحسن»[٣].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) غرائب القرآن (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) التفسير الكبير (١٥/ ٢١٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أنه لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم

* عن أسامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافرًا، ولا كافر مسلمًا، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «أجمع المسلمون على أن الكافر لا يرث المسلم، وأما المسلم فلا يرث الكافر أيضًا عند جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وذهبت طائفة إلى توريث المسلم من الكافر وهو مذهب معاذ بن جبل ومعاوية وسعيد بن المسيب ومسروق وغيرهم، وروي أيضًا عن أبي الدرداء والشعبي والزهري والنخعي نحوه على خلاف بينهم في ذلك، والصحيح عن هؤلاء كقول الجمهور: واحتجوا بحديث «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه»[2]، وحجة الجمهور هذا الحديث الصحيح الصريح، ولا حجة في حديث «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه»

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٤٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
والحديث أخرجه بدون ذكر: الآية: أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (٨/ ١٦/ ٤٢٨٣)و(١٢/ ٥٨/ ٦٧٦٤)، ومسلم (٣/ ١٢٣٣/ ١٦١٤)، وأبو داود (٣/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٢٩٠٩)، والترمذي (٤/ ٣٦٩/ ٢١٠٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٨٠-٨١/ ٦٣٧٢-٦٣٨٠)، وابن ماجه (٢/ ٩١١/ ٢٧٢٩).

(٢) أخرجه: الدارقطني (٣/ ٢٥٢)، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٠٥) من حديث عائذ بن عمرو المزني، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٣/ ٢٨٢)، وتعقبه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٠٧) فقال: «وهم ظاهر، فلا يتبع عليه».
وعلل هذا التعقيب بأن في سنده عبدالله بن حشرج وجده، قال ابن أبي حاتم عن أبيه في كل منهما: «لا يعرف» وأقره الحافظ في اللسان. قال الشيخ الألباني: «نعم، يمكن أن يحسن لغيره لحديث معاذ الآتي». وحديث معاذ أخرجه نهشل في تاريخ واسط، وذكره الألباني في الإرواء (٥/ ١٠٨) بسنده وقال: «ذكره الزيلعي وسكت عليه وتبعه الحافظ، وإسناده ضعيف من أجل عمران بن أبان.. قلت -أي الألباني-: وبقية رجاله ثقات معروفون غير إسماعيل بن عيسى وهو بغدادي واسطي وثقه الخطيب وغيره».
وأخرجه: الطحاوي (٢/ ١٥٠)، والبخاري تعليقا (٣/ ٢٨٠) موقوفا على عبدالله بن عباس. وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٩/ ٥٢٥) والألباني في الإرواء (٥/ ١٠٩). قال الشيخ الألباني: «وجملة القول أن الحديث حسن مرفوعًا بمجموع طريقي عائذ ومعاذ، وصحيح موقوفا والله أعلم».

لأن المراد به فضل الإسلام على غيره، ولم يتعرض فيه لميراث، فكيف يترك به نص حديث لا يرث المسلم الكافر، ولعل هذه الطائفة لم يبلغها هذا الحديث»(١).

قال ابن قدامة: «لا نعلم خلافًا بين أهل العلم في أن المرتد لا يرث أحدًا. وهذا قول مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، ولا نعلم عن غيرهم خلافهم؛ وذلك لأنه لا يرث مسلمًا، لقول النبي ﷺ: «**لا يرث كافر مسلمًا**». ولا يرث كافرًا؛ لأنه يخالفه في حكم الدين؛ لأنه لا يُقرّ على كفره، فلم يثبت له حكم أهل الدين الذي انتقل إليه، ولهذا لا تحلّ ذبيحتهم، ولا نكاح نسائهم، وإن انتقلوا إلى دين أهل الكتاب. ولأن المرتد تزول أملاكه الثابتة له واستقرارها، فلأن لا يثبت له مِلك أولى. ولو ارتد متوارثان، فمات أحدهما، لم يرثه الآخر، فإن المرتد لا يرث، ولا يورث»(٢).

وقال أيضًا: «فأما الكفار فيتوارثون، إذا كان دينهم واحدا، لا نعلم بين أهل العلم فيه خلافا، وقول النبي ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر**» دليل على أن بعضهم يرث بعضا... ولأن قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ عام في جميعهم، وروي عن أحمد أن الكفر ملل مختلفة لا يرث بعضهم بعضا. اختاره أبو بكر، وهو قول كثير من أهل العلم؛ لأن قول النبي ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**»(٣) ينفي توارثهما، ويخص عموم الكتاب، ولم نسمع عن أحمد تصريحا بذكر أقسام الملل... ويحتمل كلام أحمد ﵁ أن يكون الكفر مللًا كثيرة، فتكون المجوسية ملة، وعبادة الأوثان ملة أخرى، وعبادة الشمس ملة، فلا يرث بعضهم بعضًا. رُوي ذلك عن علي. وبه قال الزهري، وربيعة، وطائفة من أهل المدينة، وأهل البصرة، وإسحاق، وهو أصح الأقوال، إن شاء اللَّه تعالى؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**»(٤). ولأن كل فريقين منهم لا موالاة بينهم، ولا اتفاق في دين، فلم يرث بعضهم بعضًا، كالمسلمين والكفار، والعمومات في التوريث مخصوصة، فيُخص منها محلّ النزاع بالخبر والقياس، ولأن مخالفينا قطعوا

(١) شرح مسلم (١١/ ٤٤).
(٢) المغني (٩/ ١٥٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٨)، وأبو داود (٣/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٢٩١١)، وابن ماجه (٢/ ٩١٢/ ٢٧٣١) وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (برقم ٢٥٢٧): «حسن صحيح».
(٤) تقدم تخريجه.

التوريث بين أهل الحرب وأهل دار الإسلام، مع اتفاقهم في الملة، لانقطاع الموالاة، فمع اختلاف الملة أولى. وقول من حصر الملة بعدم الكتاب غير صحيح، فإن هذا وصف عدمي، لا يقتضي حكمًا، ولا جمعًا، ثم لا بد لهذا الضابط من دليل يدل على اعتباره، ثم قد افترق حكمهم، فإن المجوس يُقرّون بالجزية، وغيرهم لا يُقرّ بها، وهم مختلفون في معبوداتهم، ومعتقداتهم، وآرائهم، يستحل بعضهم دماء بعض، ويكفّر بعضهم بعضًا، فكانوا مللًا كاليهود والنصارى. وقد رُوي ذلك عن علي، رضي الله عنه، فإن إسماعيل بن أبي خالد روى عن الشعبي، عن علي رضي الله عنه، أنه جعل الكفر مللًا مختلفة. ولم يعرف له مخالف في الصحابة، فيكون إجماعًا.

والقياس عندي، أن الملة الواحدة يتوارثون، وإن اختلفت ديارهم؛ لأن العمومات من النصوص تقتضي توريثهم، ولم يَرد بتخصيصهم نص، ولا إجماع، ولا يصح فيهم قياس، فيجب العمل بعمومها»[1].

* * *

(١) المغني (٩/ ١٥٦-١٥٧) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يمل؛ لحسنه وتنوعه»[1].

قال الرازي: «واعلم أن هذا ليس بتكرار، وذلك لأنه -تعالى- ذكرهم أولًا ليبين حكمهم، وهو ولاية بعضهم بعضا، ثم إنه -تعالى ذكرهم- هاهنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم، وبيانه من وجهين: الأول: أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم، وذلك يدل على الشرف العظيم. والثاني: وهو أنه تعالى أثنى عليهم ههنا من ثلاثة أوجه: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ فقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿حَقًّاۚ﴾ يفيد المبالغة في وصفهم محقين محققين في طريق الدين، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن من لم يكن محقا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم يبذل النفس والمال، ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين، وثانيها: قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وتنكير لفظ المغفرة يدل على الكمال كما أن التنكير في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[2] يدل على كمال تلك الحياة، والمعنى: لهم مغفرة تامة كاملة عن جميع الذنوب والتبعات. وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٩).

(٢) البقرة: الآية (٩٦).

الرفيع الشريف. والحاصل: أنه تعالى شرح حالهم في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب، أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وهذه السعادات العالية إنما حصلت لأنهم أعرضوا عن اللذات الجسمانية فتركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال»[1].

وقال أبو السعود: «﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾»[2].

قال محمد رشيد رضا: «وهذه الشهادة المقرونة بهذا الجزاء العظيم، ترغم أنوف الروافض، وتلقم كل نابح بالطعن في أصحاب رسول اللَّه ﷺ الحجر، ولاسيما زعمهم بأن أكثرهم قد ارتدوا بعده ﷺ»[3].

وقال صديق حسن خان: «والحاصل أنهم هم الكاملون في الإيمان؛ لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى، وليس في هذا تكرير لما قبله، فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب الموالاة والمناصرة على التوحيد والإسلام

* عن جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض

(١) التفسير الكبير (١٥/ ٢١٩-٢٢٠).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٨).
(٣) تفسير المنار (١٠/ ١٣٤).
(٤) فتح البيان (٥/ ٢٢١).

إلى يوم القيامة»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال أحمد البنا: «أي: كل منهم أحقّ بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة حتى نسخ اللّه تعالى ذلك بالمواريث.

«**والطلقاء من قريش**» هم الذين عفا عنهم رسول اللّه ﷺ يوم فتح مكة ولم يقتلهم. وقال لهم: «**أنتم الطلقاء**».

«**والعتقاء من ثقيف**» هم الذين أعتقهم النبي ﷺ بإسلامهم، فهؤلاء درجتهم واحدة، بعضهم أولياء بعض؛ أي: كل واحد منهم أحق بالآخر؛ لأنهم لم يحصلوا المهاجرين والأنصار في الفضل، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٣)، والطيالسي (رقم: ٦٧١)، وعنه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٧٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٤٧/ ٢٤٥٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢٥٠/ ٧٢٦٠)، والحاكم (٤/ ٨٠و٨١) ووافقه الذهبي.

(٢) الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد (٢٢/ ١٧٨-١٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذا هو الصنف الرابع من المؤمنين في ذلك العهد، وهم من تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى، أو عن نزول هذه الآيات، فيكون الفعل الماضي ﴿ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده بمعنى المستقبل، وقيل عن صلح الحديبية وكان في ذي القعدة سنة ست، والسورة كلها نزلت عقب غزوة بدر، وحكمهم على كل حال أنهم يلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار فيما تقدم بيانه من أحكام ولايتهم وجزائهم، قال ابن جرير: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ في الولاية، يجب لكم عليهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة مثل الذي يجب لكم عليهم ولبعضكم على بعض، وروي ذلك عن ابن إسحاق، ولا خلاف فيه على ما أعلم.

وأقول: إن جعلهم تبعا لهم، وعدهم منهم دليل على فضل السابقين على اللاحقين، ولاسيما بعد اختلاف الحالين، من قوة وضعف وغنى وفقر، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3] وقد بين في سياق قسمة الفيء من سورة الحشر هذه الدرجات الثلاث قال عز من قائل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا

(١) الأنفال: الآية (٧٥)
(٢) الحديد: الآية (١٠).
(٣) التوبة: الآية (١٠٠).

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] وفضيلة السبق معلومة بالنقل والعقل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢]»[٣].

قال ابن كثير: ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة»[٤].

قال الرازي: «اختلفوا في المراد من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ نقل الواحدي عن ابن عباس: بعد الحديبية وهي الهجرة الثانية، وقيل: بعد نزول هذه الآية، وقيل: بعد يوم بدر، والأصح أن المراد: والذين هاجروا بعد الهجرة الأولى، وهؤلاء هم التابعون بإحسان كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ . . والأصح أن الهجرة انقطعت بفتح مكة؛ لأن عنده صارت مكة بلد الإسلام، وقال الحسن: الهجرة غير منقطعة أبدا، وأما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[٥] فالمراد الهجرة المخصوصة، فإنها انقطعت بالفتح وبقوة الإسلام. أما لو اتفق في بعض الأزمان كون المؤمنين في بلد وفي عددهم قلة، ويحصل للكفار بسبب كونهم معهم شوكة، وإن هاجر المسلمون من تلك البلدة وانتقلوا إلى بلدة أخرى ضعفت شوكة الكفار، فهاهنا تلزمهم الهجرة على ما قاله الحسن؛ لأنه قد حصل فيهم مثل العلة في الهجرة من مكة إلى المدينة»[٦].

قال القاسمي: «واللفظ الكريم يعمها كلها، والتخصيص بأحدها تخصيص بلا مخصص»[٧].

قال صديق حسن خان: «فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة؛ لأن اللّٰه تعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين، وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق»[٨].

---

(١) الحشر: الآيات (٨-١٠).
(٢) الواقعة: الآيات (١٠-١٢).
(٣) تفسير المنار (١٠-١٣٤-١٣٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٩).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣١٥-٣١٦) والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٣) ومسلم (٢/ ٩٨٦/ ١٣٥٣) وأبو داود (٣/ ٨-٩/ ٢٤٨٠) والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠) والنسائي (٧/ ١٦٥/ ٤١٨١). وأخرجه: ابن ماجه (٢/ ٩٢٦/ ٢٧٧٣) دون محل الشاهد.
(٦) التفسير الكبير (١٥/ ٢٢٠).
(٧) محاسن التأويل (٨/ ١١١).
(٨) فتح البيان (٥/ ٢٢٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المرء مع من أحبّ

* عن أبي موسى قال: «قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم؟ قال: المرء مع من أحب»[1].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «فيه أن محبة اللَّه ومحبة نبيه ﷺ الاستقامة على طاعتهما وترك مخالفتهما، وإذا أحبهما تأدب بأدب شريعتهما، ووقف عند حدودهما، وفي حبه لله ولنبيه ولمن أحبه من الصالحين، وميله بقلبه إليهم، إنما ذلك كله لله تعالى وطاعة له، وثمرة صحة إيمانه وشرح قلبه، وهو من أعظم الدرجات وأرفع منازل الطاعات، ومن أعمال القلوب التي الأجر عليها أعظم من أجر أعمال الجوارح، وإثابة اللَّه على ذلك أن رفع إلى منزلة من أحبه فيه وإن لم يكن له أعمال مثل أعماله، وهو فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[2].

وقال ابن بطال: «فدل هذا أن من أحب عبدًا في اللَّه، فإن اللَّه جامع بينه وبينه في جنته، ومدخله مدخله، وإن قصر عن عمله، وهذا معنى قوله: «ولم يلحق بهم» يعني في العمل والمنزلة، وبيان هذا المعنى -واللَّه أعلم- أنه لما كان المحب للصالحين إنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت المحبة عملا من أعمال القلوب واعتقادا لها، أثاب اللَّه معتقد ذلك ثواب الصالحين؛ إذ النية هي الأصل والعمل تابع لها، واللَّه يؤتي فضله من يشاء»[3].

قال النووي: «فيه فضل حب اللَّه ورسوله ﷺ والصالحين وأهل الخير، الأحياء والأموات، ومن فضل محبة اللَّه ورسوله امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، والتأدب بالآداب الشرعية، ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم، إذ لو عمله لكان منهم ومثلهم»[4].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٧٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤/ ٢٦٤١).
(٢) إكمال المعلم (٨/ ١١٩). (٣) شرح البخاري (٩/ ٣٣٣).
(٤) شرح مسلم (١٦/ ١٥٢-١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والمتناسبون بالأرحام ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الميراث إذا كانوا ممن قسم اللّه له منه نصيبا وحظا من الحليف والولي ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يقول: في حكم اللّه الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء»[١].

قال ابن كثير: «وليس المراد بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم، ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة، وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحا في المسألة؛ بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «**إن اللّه قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»[٢] قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب اللّه مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، واللّه أعلم»[٣].

قال البقاعي: «ثم علل سبحانه ما ذكر بما يرغب فيه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي:

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٧)، وأبو داود (٣/ ٨٢٤-٨٢٥/ ٣٥٦٥)، والترمذي (٤/ ٣٧٦-٣٧٧/ ٢١٢٠)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ٩٠٥/ ٢٧١٣) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٩-١٠٠) وقد سبق الكلام على هذه المسألة في سورة النساء.

الذي له صفات الكمال كلها ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو يعلم أن هذا هو الذي تدور عليه المصلحة، وتدوم به الألفة، كما علم في أول الأمر أن نوط الإرث وغيره من لوازم القرب بالأخوة الإسلامية أولى، لما في ذلك من تكثير قلتكم، ونصر ذلتكم، وجمع شتاتكم، وجعل ما بينكم من الأخوة كلحمة النسب، فأما الآن فقد ضرب الدين بجرانه، وثبت بقواعده وأركانه، وولى الكفر بسلطانه، ونكص مدبرا بأعوانه، فتوارثوا بالإسلام والقرابة، وقاطعوا الكفار، وقربوا وبعدوا، وانحازوا عنهم كما انحازوا عنكم، وتبرأوا منهم كما تبرأوا منكم»[1].

قال القاسمي: «واستدل بالآية الإمامية على تقديم الإمام علي رضي الله عنه على غيره في الإمامة لاندراجها في عموم الأولوية، والجواب -على فرض صحة هذه الدلالة- أن العباس رضي الله عنه كان أولى بالإمامة؛ لأنه كان أقرب إلى رسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى المتبادر من نص الآية وقرينة السياق أنها: في ولاية الرحم والقرابة، بعد بيان ولاية الإيمان والهجرة، فهو عز شأنه يقول: ﴿وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتناصر والتعاون -وكذا التوارث في دار الهجرة في عهد وجوب الهجرة ثم في كل عهد- هم أولى بذلك في كتاب الله أي في حكمه الذي كتبه على عباده المؤمنين وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذي القربى في هذه الآية وغيرها مما نزل قبلها، وأكده فيما نزل بعدها كآية الأحزاب في معناها وكقوله بعد محرمات النكاح ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[3] فهو قد أوجبه في دين الفطرة، كما جعله من مقتضى غرائز الفطرة، فالقريب ذو الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره، ومقدم عليهم في جميع أنواع الولايات المتعلقة بأمره، كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغير ذلك. وهذه الأولوية لا تقتضي عدم التوارث العارض بين المهاجرين والأنصار والمتعاقدين على أن يرث كل منهما الآخر كما كانت تفعل العرب، وإذ وجد قريب

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤٩).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ١١٧)، وانظر التفسير الكبير (١٥/ ٢٢١).

(٣) النساء: الآية (٢٤).

وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب مقدم كما قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[1]..

وجملة القول: أن أولوية أولي الأرحام بعضهم ببعض هو تفضيل لولايتهم على ما هو أعم منها من ولاية الإيمان وولاية الهجرة في عهدها، ولكن في ضمن دائرتهما فالقريب أولى بقريبه ذي رحمه المؤمن المهاجري والأنصاري من المؤمن الأجنبي، وأما قريبه الكافر فإن كان محاربا للمؤمنين فالكفر مع القتال يقطعان له حقوق الرحم كما قال تعالى في سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[2] الآيات، وإن كان معاهدا أو ذميا فله من حق البر وحسن العشرة ما ليس لغيره. قال تعالى في الوالدين المشركين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[3] ثم قال في الكفار عامة ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4] فالبر والعدل مشروعان عامان في حدود الشرع..

ثم ختم اللّه تعالى هذه السورة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو تذييل استئنافي لأحكام هذا السياق الأخير؛ بل لجميع أحكام السورة وحِكمها، مبين أنها محكمة لا وجه لنسخها ولا نقضها، فالمعنى أنه تعالى شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود وصلة الأرحام، وما قبلها مما سبق من أحكام القتال والغنائم وقواعد التشريع وسنن التكوين والاجتماع، وأصول الحكم المتعلقة بالأنفس، ومكارم الأخلاق، والآداب، عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في توريث ذوي الأرحام

* عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ فكان الأعرابي لا يرث المهاجر ولا يرثه المهاجر، فنسختها فقال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ

---

(١) النساء: الآية (٣٦).
(٢) الممتحنة: الآية (١).
(٣) لقمان: الآية (١٥).
(٤) الممتحنة: الآية (٨).
(٥) تفسير المنار (١٠/ ١٣٧-١٣٩).

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[(١)][(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخفاجي: «فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري، واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة، والولي القريب والناصر؛ لأن أصله في القرب المكاني، ثم جعل للمعنوي كالنسب والدين والنصرة، فقد جعل ﷺ في أول الإسلام التناصر الديني أخوة، وأثبت لها أحكام الأخوة الحقيقية من التوارث، فلا وجه لما قيل إن هذا التفسير لا تساعده اللغة، فالولاية على هذا الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية. انتهى»[(٣)].

قال أبو بكر الجصاص: «اختلف السلف في أن التوارث كان ثابتًا بينهم بالهجرة والأخوة التي آخى بها رسول الله ﷺ بينهم دون الأرحام، وأن ذلك مراد هذه الآية، وأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ قد أريد به إيجاب التوارث بينهم، وأن قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ قد نفى إثبات التوارث بينهم بنفيه الموالاة بينهم، وفي هذا دلالة على أن إطلاق لفظ الموالاة يوجب التوارث، وإن كان قد يختص به بعضهم دون جميعهم، على حسب وجود الأسباب المؤكدة له، كما أن النسب سبب يستحق به الميراث، وإن كان بعض ذوي الأنساب أولى به في بعض الأحوال لتأكد سببه..

إلى أن قال: وقد كانت الهجرة فرضًا حين هاجر النبي ﷺ إلى أن فتح النبي ﷺ مكة، فقال: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»[(٤)] فنسخ التوارث بالهجرة بسقوط فرض الهجرة وأثبت التوارث بالأنساب بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[(٥)] قال الحسن: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة حتى كثر

---

(١) الأنفال: الآية (٧٥).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ٣٣٧-٣٣٨/ ٢٩٢٤)، والحاكم (٤/ ٣٤٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «علي بن أبي طلحة قال أحمد: له أشياء منكرات ولم يخرج له البخاري» قال الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٥٦٥/ ٢٥٣٧): «حسن صحيح».

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي (٤/ ٢٩٤).

(٤) تقدم تخريجه عند: الآية (٧٥).

(٥) الأنفال: الآية (٧٥).

المسلمون فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾فتوارثوا بالأرحام. .
وقيل: إنه أراد نفي إيجاب النصرة فلم تكن حينئذ على المهاجر نصرة من لم يهاجر إلا أن يستنصر، فتكون عليه نصرته إلا على من كان بينه وبينه عهد، فلاينقض عهده، وليس يمتنع أن يكون نفي الولاية مقتضيًا للأمرين جميعًا من نفي التوارث والنصرة، ثم نسخ نفي الميراث بإيجاب التوارث بالأرحام مهاجرًا كان أو غير مهاجر وإسقاطه بالهجرة فحسب، ونسخ نفي إيجاب النصرة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1]»[2].

وانظر بقية بحث المسألة في سورة النساء الآية (١٣).

* * *

(١) التوبة: الآية (٧١).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٧٥-٧٦) بتصرف واختصار.

فهرس الموضوعات

سورة الأنفال

* * *